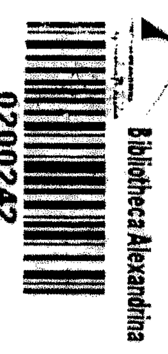
حسن الأمين

إطلالات على التاريخ



توزيع: دار المحجة البيضاء



إطـلالات
على التـاريخ



حسن الأمين

إطلالات على التاريخ

الطبعة الأولى

١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م

المحتويات

الأمويون والإسلام والعروبة

سلاجقة وصليبيون


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بين يدي الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه دراسات كان قد نشر بعضها مقالات في الصحف اليومية، وبعضها في كتب مستقلة، جمعت ما اخترته منها في هذا الكتاب ليسهل تناولها، تاركاً لمن يريدها كاملة أن يرجع إلى الكتب التي جمعتها. وقد كان إخراج هذا الكتاب بهذا الشكل، هو استجابة لإلحاح جمهرة من القراء أرادوني على ذلك، وقد كان أول ما دعوا إليه، جمع ما نشر في الصحف التي أصبح من المتعذر الحصول عليها، ثم إكمال ما يجمع منها بلمّ بعض ما تناثر في الكتب المتفرقة. فاستجبت لدعوتهم فكان هذا الكتاب الذي أرجو أن يحقق ما أمله المؤملون.

حسن الأمين



الحجاج بن يوسف

قال كاتب يصف الحجاج بن يوسف: «نشر الأمن والأمان والأمانة والإيمان».

ثم قال: «وكان الحجاج عادلاً في الحكم بالفعل».

والكاتب في هذا الكلام يرد ـ بدون أن يسمى كلامه رداً ـ على تطرقنا عرضاً لذكر الحجاج ومظالمه في مقال لنا سابق.

ولقد كان شيئاً رهيباً أن يخالف كاتب في هذا العصر ما أجمع عليه خيار الأمة في عصر الحجاج وبعد عصر الحجاج فيتكلم بهذا الكلام عن رجل يقول عنه خير الدين الزركلي في كتابه (الأعلام): «وكان سفاكاً سفاحاً باتفاق معظم المؤرخين».

لقد اتفق على ذلك معظم المؤرخين بنص المؤرخ المعاصر صاحب الأعلام. وطبيعي أن يوجد من له مثل ذهنية كاتب المقال فيشذ عن هؤلاء المؤرخين ويخرج على إجماعهم.

ومن العجيب أن الكاتب ممن يرون الإجماع حجة في الشؤون الكبرى والصغرى ويغمزون بمن لا يأخذ بهذا الإجماع، ولكنه هنا لا يبالي أن يكون شاذاً عن هذا الإجماع ما دام هذا الشذوذ يوافق هوى في نفسه!

إن الحسن البصري، وهو من هو في التاريخ الإسلامي، والكاتب أعرف الناس به، إن الحسن البصري هذا يسجد لله شكراً لما مات الحجاج، ويقول: «اللهم كما أمته فأمت عنا سنته».

وإن عمر بن عبد العزيز يقول: «الوليد بالشام والحجاج بالعراق وقرة بمصر وعثمان بن حيان بالحجاز، امتلأت والله الأرض جوراً».

لا يتمالك الحسن البصري وهو الشيخ الوقور الرزين، الذي يزن القول والفعل بأدق

ميزان ـ لا يتمالك نفسه أن يخر ساجداً لله معفراً جبينه بالأرض شكراً لله تعالى على أن أراح الأمة من السفاح السفاك الطاغية، وأنقذها من المجازر البشرية التي كانت تحدث في كل يوم، ومن الجور الفادح الذي كان يحل بها في كل ساعة. ثم يخشى هذا الشيخ الجليل أن يخلف الحجاج من يسير على سنته، فلا ينسى أن يدعو الله أن يميت سنته كما أماته هو نفسه.

يفعل الحسن البصري هذا الفعل ويقول هذا القول عن الحجاج، وهو المعاصر له الشاهد على أفاعيله، ثم يأتينا في هذا العصر من يقول: «كان الحجاج عادلاً في الحكم فعلاً».

ونقول لهذا القائل: إن الحسن البصري أوثق عندنا وعند غيرنا منك، وهذا أضعف ما يمكن أن نقوله!

ويرى عمر بن عبد العزيز، ـ وهو أيضاً الشاهد المعاصر ـ أن الأرض امتلأت جوراً في حكم الحجاج وزملاء الحجاج، ويقسم بالله على ذلك، ثم نعيش لنرى من لا يتورع عن القول في الحجاج: «إنه نشر الأمانة والإيمان». ونكرر القول لهذا القائل: إن عمر عبد العزيز أوثق عندنا وعند غيرنا منك!

ولو أردنا نقل ما قاله خيار المسلمين في الحجاج لكان علينا أن نملأ مجلداً ضخماً، ولضاقت بأنقالنا الصفحات، فهذا مثلاً (اليافعي) في كتابه (مرآة الجنان) يذكر موت الحجاج بهذا النص: «أراح الله المسلمين من الحجاج بن يوسف الثقفي في ليلة مباركة».

ثم عندما يضطر لذكره في مكان آخر يقول: «فقصته السم القاتل والشؤم العاجل». ثم يقول: «فأراح الله العباد والبلاد من الحجاج وما كان فيه من الإفساد».

ويقول في مكان آخر «أراد الحجاج أن يتشبه بزياد فأهلكه الله ودمره».

ولا يمر اليافعي في كتابه (مرآة الجنان) بذكر الحجاج إلا ويصفه بما هو فيه، ثم يقول: «يخبر عن نفسه أن أكبر لذته سفك الدماء».

وقد اخترنا من بين المؤرخين مؤرخاً واحداً ليكون نموذجاً لما اتفق عليه المؤرخون في وصف الحجاج.

وهذا الإمام أحمد بن حنبل يقول: «قتل الحجاج سعيد بن جبير وما على وجه الأرض أحد إلا وهو مفتقر إلى علمه ولم يسلطه الله بعده على قتل أحد».

ذلك أن الحجاج لم يعش إلا قليلاً بعد قتله سعيد بن جبير.

وكان تفجع الإمام ابن جنبل على قتل سعيد هذا منصباً أكثر ما هو منصب على علم هذا الشهيد. فالفاجعة بقتل العلماء أعظم الفواجع.

ويزيد في فظاعة هذا الجرم أن المقتول كان في التاسعة والتسعين من عمره.

ونحن لا ندري أنصدق اليافعي والإمام أحمد بن حنبل، أم نصدق كاتب المقال؟

ولكن الحقيقة أننا ندري!

نحن لا نريد أن نحدث الكاتب عن عشرات الألوف البريئة التي قتلها الحجاج صبرا، ولا عن عشرات الألوف من النساء والرجال التي وجدت في سجنه بعد موته.

لا نريد أن نحدثه عن ذلك، لأن هذا أمر إنساني، ويبدو جلياً أن الإنسانية لا تهم الكاتب، لذلك سننصرف عن الحديث الإنساني إلى الحديث الإسلامي:

قال ابن سعد في كتاب الطبقات: «قال الحجاج هممت أن أضرب عنق ابن عمر».

ثم لما استدعاه إليه خاطبه شاتماً له:

«أسكت فإنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك، ويوشك شيخ أن يؤخذ فتضرب عنقه».

ثم يذكر ابن سعد أن الحجاج أرسل إليه من اغتاله، ثم منع أن يدفن حيث أوصى.

عبد الله بن عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين. عبد الله بقية صحابة رسول الله: الهادىء الوديع الورع، ينحدر به الزمن إلى أن يقف بين يدي الحجاج ضارعاً ذليلاً يتلقى الشتيمة صابراً محتسباً.

والحجاج في ذلك عند الكاتب «رجل الأمن والأمان والأمانة والإيمان».

ولو وجد الكاتب مشتقات أخرى لكلمة (أمن) لأضافها إلى هذه الصفات الرائعة التي أضفاها على الحجاج جزاء ما لقي ابن عمر بن الخطاب منه، ولقاء ما أبداه من احتقار لذكرى الخليفة الراشدي الثاني!

وحقد الحجاج على أصحاب رسول الله لم يقتصر على عبد الله بن عمر، فقد امتدت الحياة بثلاثة من الصحابة إلى أن أدركوا عصر الحجاج. وعوضاً عن أن يكون هؤلاء الثلاثة في شيخوختهم الواهنة موضع الإجلال والتكريم، وأن يرى الناس فيهم بقية ذلك السلف الصالح الذي رأى النبي وعاشره وتعلم منه فيتبركون بهم ويرفعون من شأنهم، عوضاً عن ذلك، لم ير فيهم الحجاج إلا موضعاً للإذلال، فقد قال في (أسد الغابة) ما يلي بنصه: «ختم الحجاج في عنق سهل الساعدي وأنس بن مالك وفي يد جابر بن عبد الله يريد إذلالهم»، وهؤلاء الثلاثة كانوا آخر من بقي من أصحاب رسول الله.

فإذا كانت الناحية الإنسانية لا تهم (الكاتب) فلا تروعه مجازر عشرات الألوف، أفما كان يقتضي أن تهمه الناحية الإسلامية فيغضب لإهانة عمر بن الخطاب في شخص ابنه عبد الله، وقبل ذلك لإهانة الرسول في أشخاص أصحابه؟

ونريد أن نسأل الكاتب عن «الأمن والإيمان والأمانة والأمان» فيما سنقصه عليه، وهو صورة عما كان يعانيه الشعب في ظل الحاكم الذي يعجب به هذا الكاتب.

أحدث الحكام الذين تولوا حكم العرب والمسلمين منذ السنة (٤١) هجرية وظيفة جديدة لتثبيت حكمهم هي وظيفة (صاحب العذاب). ويغني ذكر اسم الوظيفة لمعرفة مهمة متولي أمرها.

ولقد كان لعبيد الله بن زياد بن سمية (صاحب عذاب)، ومن قصصه ما رواه ابن عبد البر في كتاب (الاستيعاب) وهو يتحدث عن الصحابي قيس بن خرشة القيسي: «أراد عبيد الله بن زياد تعذيبه لأنه كان قوالاً بالحق، فلما أعد له العذاب مات قبل أن يصيبه شيء».

وصاحب السيرة الحلبية يقول وهو يروي القصة: «إن عبيد الله بن زياد قال: أؤتوني بصاحب العذاب، فمال عند ذلك قيس فمات».

لقد كان مجرد ذكر (صاحب العذاب) كافياً لأن يحدث صدمة في نفس الصحابي قيس بن خرشة فيموت في الحال.

وفي عهد الحجاج كان اسم (صاحب العذاب) (معدّ). ويروي صاحب كتاب (النجوم الزاهرة) ما جرى لحطيط الزيات الكوفي مع الحجاج: وبعد أن يعدد المؤلف بعض صفات حطيط الزيات بقوله: «كان عابداً زاهداً يصدع بالحق»، يروي حواراً جرى بينه وبين الحجاج، كان فيه حطيط شجاعاً صريحاً لم يحد عن خطه المستقيم. فقال معدّ (صاحب العذاب): إني أريد أن تدفعه إليّ فوالله لأسمعك صياحه، فسلمه إليه فجعل يعذبه ليلته كلها وهو ساكت: فلما كان وقت الصبح كُسر ساق حطيط، ثم دخل عليه الحجاج فقال له: ما فعلت بأسيرك، فقال: إن رأى الأمير أن يأخذه مني فقد أفسد عليّ أهل سجني، فقال الحجاج: عليّ به، فعذبه بأنواع العذاب وهو صابر، فكان يأتي بالمسال فيغرزها في جسمه وهو صابر، ثم لفه في بارية وألقاه حتى مات (اهـ.).

أهذا هو (الأمن والأمان والأمانة والإيمان) التي يصف بها الكاتب صاحبه الحجاج؟

وإذا كان الكاتب لا تعنيه الناحية الإنسانية، ولا يؤثر فيه ذبح عشرات الألوف، أفلا تؤثر

فيه الناحية الإسلامية فيرثي لحال المسلم الذي وصف بأنه «عابد زاهد يصدع بالحق»، فيتورع عن الثناء على من هذه أفعاله بالمسلمين الزاهدين العابدين الصادعين بالحق.

ومن الطريف العجيب المحزن في الوقت نفسه أن يذكر الكاتب قصة تكذب نفسها بنفسها، وخلاصتها أن قائد الحجاج طلب من ملك الهند أن يملأ له قاعة القصر ذهباً ليكون ذلك الذهب غرامة حربية وأن الملك استجاب لذلك فملأ القاعة ذهباً!

ثم يقول الكاتب: «أرسل القائد الشاب ذلك الذهب كله إلى الحجاج حاكم العراق، وأنفق الحجاج هذا المال في إصلاح العراق وفي حاجات البلاد المفتوحة!».

ليتصور القارىء قاعة قصر أمبراطور الهند، وليتصور سعتها ومساحتها بالأمتار المكعبة، إنها ليست كوخاً، بل قاعة قصر أمبراطور الهند، وكفى ذلك وصفاً لطولها وعرضها وارتفاعها، ليتصور القارىء ذلك، فإذا تصوره فهل يتصور أن إنساناً ذا عقل سليم يمكن أن يصدق أن أحداً يمكنه أن يملأها ذهباً، ولو كان أمبراطور الهند، لا سيما إذا كان هذا الأمر قد تم في طرفة عين!

بمثل هذه الخرافات الساذجة المفضوحة يريد بعض الناس أن يغطوا فظائع جلادي الشعوب.

رأي المؤرخين في الحجاج

قال الكاتب المصري محمد فريد أبو حديد من مقال له في مجلة (الكتاب) (الجزء الثامن من السنة الأولى ص٢٠٤)، وهو يتحدث عن الحجاج:

لا نستطيع أن نجد الكثير من شخصيات التاريخ من يشبهونه في كراهة الناس له، فقد كان الناس يبغضونه من أعماق قلوبهم.

ويقول: إن سيرته كلها تشهد بما كان يعتاده من دوافع وحشية، فكان يسفك الدماء لسبب ولغير سبب، وكان يحب التعذيب ولا تعتريه خلجة ألم من منظر المتألمين ولا من سماع أنين الموجعين.

ويقول: فكان في حكمه يقف من الناس جميعاً موقف الجلاد الذي يعرف حق المعرفة أن الرعية ترتعد من خوفه وتلعنه في ضمائرها، فهو رجل يقف موقف عداوة وحشية صريحة مع المجتمع كله.

ويقول: كان في مسلكه مع الخلفاء يظهر نوعاً من الذلة عجيباً. فكانت قسوته على المحكومين مقرونة إلى جانب ذلته أمام الخلفاء... (اهـ).

فهناك قصته مع هند بنت النعمان التي تزوجها ثم طلقها، فخطبها عبد الملك بن مروان، فاشترطت عليه أن يقود الحجاج جملها من (المعرة) مكان إقامتها إلى دمشق على أن يكون ماشياً حافياً فأرسل إليه عبد الملك يأمره بذلك، وكانت هند قد ركبت في محمل الزفاف وركب حولها جواريها وخدمها، فأخذ الحجاج زمام البعير يقوده ويسير به حتى دمشق.

أما عن سفكه الدماء فإنه هو نفسه يقول عن نفسه: ما أعلم اليوم رجلاً على ظهر الأرض هو أجرأ على دم مني. (ابن سعد: الطبقات الكبير ٦/٦٦).

ويذكر المسعودي في كتابه التنبيه والإشراف ص٣١٨ أن عدد من قتلهم الحجاج صبراً بلغ مائة وثلاثين ألفاً، عدا من قتل في زحوفه وحروبه.

وأقل عدد ذكره المؤرخون هو مائة وعشرين ألفاً.

حتى ليلاحظ عبد الملك نفسه هذا الإسراف في سفك الدماء فيكتب إليه مهدداً متوعداً (أنظر كتاب عبد الملك إليه في مروج الذهب للمسعودي ٢/١٠٧).

ويقول ابن خرداذبه في (المسالك والممالك ص١٥: إن الخراج انحط في عصر الحجاج، انحطاطاً لا نظير له لعسفه وخرقه وظلمه. ويروي الطبري أن يزيد بن المهلب أبى أن يقبل ولاية العراق بعد الحجاج حيث قال: إن العراق أخربها الحجاج وأنا اليوم رجاء أهل العراق ومتى قدمتها وأخذت الناس بالخراج وعذبتهم عليه صرت مثل الحجاج (اهـ).

هذه بعض شهادات المؤرخين في الحجاج الذي يصفه الكاتب بما وصفه به.

يقول المؤرخون إنه أخرب الأرض ومن عليها، ويقول الكاتب: إنه بذل ذهب الهند في إصلاحها!!..

ويقول الطبري (ص٢٠٦) عن الحجاج حين ولي المدينة:

فأقام بها (المدينة) ثلاثة أشهر يتعبث بأهل المدينة ويتعنتهم، واستخف بأصحاب رسول الله فختم في أعناقهم فذكر أن محمد بن عمران بن أبي ذؤيب حدثه عمن رأى جابر بن عبد الله مختوماً في يده، وعن ابن أبي ذؤيب عن إسحاق بن يزيد أنه رأى أنس بن مالك مختوماً في عنقه يريد أن يذله بذلك.

وختم كذلك سهل بن سعد فختم في عنقه برصاص.

ثورة الأحرار على الحجاج

قبل الثورة

في سنة ٧٩ هجرية كان الحجاج قد ساق نخبة رجال الشعب وخيرة فرسانه شيوخاً وشباناً إلى مجزرة رهيبة في محاولة لغزو (رتبيل) في عقر داره، وكان يقود الحملة والي سجستان عبيد الله بن أبي بكرة.

ولكي ندرك أن هذا الغزو لم يكن له أي مبرر ننقل عبارة الطبري كما وردت في تاريخه، يقول الطبري وهو يتحدث عن ولاية ابن أبي بكرة على سجستان: (ثم إنه غزا رتبيل وقد كان مصالحاً) ثم يقول الطبري: (فبعث الحجاج إلى عبيد الله بن أبي بكرة أن ناجزه بمن معك من المسلمين فلا ترجع حتى تستبيح أرضه وتهدم قلاعه وتقتل مقاتليه وتسبي ذريته)[١] ومن النصوص المتقدمة الواردة في الطبري نعلم أن «رتبيل» كان مصالحاً، وأن سلاماً كان متفقاً عليه بين الفريقين، وأن لا شيء يوجب نقض الصلح واستبدال الحرب بالسلم.

ثم إن أوامر الحجاج صريحة: فهي لا تطلب من قائد الجيش أن يهدي الناس ويرشدهم

---

(١) كانت وصية معاوية لبسر بن أرطاة حين سيره إلى الحجاز: (سر حتى تمر بالمدينة فأطرد الناس وأخف من مررت به وانهب أموال كل من أصبت له مالاً ممن لم يكن قد دخل في طاعتنا). ووصى معاوية أيضاً سفيان بن عوف الغامدي حين أرسله إلى العراق: (اقتل من لقيته ممن ليس هو على مثل رأيك واخرب كل ما مررت به من قرى). ولما أرسل منكوقاآن أخاه هولاكو لغزو البلاد الإسلامية كان من جملة وصيته له: (أما من يعصيك فأغرقه في الذل والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقاربه وكل ما يتعلق به وابدأ بإقليم قهستان في خراسان فخرب القلاع والحصون). فأي فرق بين الأوامر المغولية وأوامر معاوية، مع العلم بأن جيوش معاوية كانت تغزو بلاداً إسلامية عربية، وتطبق هذه الأوامر على المسلمين والعرب.

ولا أن ينشر بينهم الرحمة والعدل والعلم والمعرفة، وهي الأهداف التي أراد الإسلام تحقيقها. بل يطلب إليه أن يستبيح الأرض ويقتل الرجال ويسبي النساء والأبناء.

وأية حرب هي هذه الحرب التي لا تهدف إلا إلى الاستباحة والقتل والسبي. ولا تتحدث أوامرها إلا عن المغانم والجرائم.

أهي الحرب التي يجوز أن يكون وقودها شبان المسلمين وشيوخهم وأن يفنى فيها أهل الحفاظ والحمية والنجدة.

ويسترسل الطبري في الحديث فيقول: «فخرج عبيد الله بن أبي بكرة بمن معه من المسلمين من أهل الكوفة وأهل البصرة، حتى وغل في بلاد «رتبيل» فأصاب من البقر والغنم والأموال ما شاء».

وهكذا فإن أهل البصرة والكوفة هم المقصودون، وهم المراد لهم أن يكونوا الضحايا، وهكذا فإن رجلاً كريماً مثل شريح بن هاني الحارثي يساق بعد السير تحت راية علي، إلى السير تحت رايات الحجاج لسلب البقر والغنم.

وهكذا فقد كانت غاية الحملة حيازة الأموال وسوق المواشي، وحسبك بهذه الغاية غاية لئيمة مجرمة، وغنم من، وبقر من، وأموال من أصاب الجيش المجاهد؟ إنها غنم الفقراء وبقر المستضعفين، وأموال البؤساء في غير شك، إنها المواشي التي كانت تسرح في المراعي وأصحابها مطمئنون للصلح. أما عن الدعوة إلى الهدى والنداء إلى الحق، فلا تحدثنا أخبار الحملة بشيء أبداً. وما دام الجيش الغازي قد أصاب البقر والغنم والأموال فقد حقق هدفه وأنجز طلبته وفاز بالمراد.

وكان الترك قوم «رتبيل» قد أعدوا خطة محكمة لحماية بلادهم فتركوا الجيش المقبل يتوغل في أرضهم ثم «أخذوا على المسلمين العقاب والشعاب فسقط في أيدي المسلمين» على حد تعبير الطبري، وحوصروا في تلك الفجاج حصاراً محكماً وضاق بهم الأمر، ولم يفد البقر والغنم شيئاً، واحتار قائد الجيش ابن أبي بكرة فيما يصنع فأرسل إلى شريح بن هاني يستشيره في أن يدفع أموالاً ليخلوا بينه وبين الخروج. ولكن شريحاً نبهه إلى أن غاية «المتآمرين» من هذه الحرب هي سلب الأموال، وأنه حين يدفع مالاً للأعداء، فإن الدولة ستقتطع الأموال من رواتبهم، فقال له ما نصه: «إنك لا تصالح على شيء إلا حسبه السلطان عليكم في أعطياتكم» فقال ابن أبي بكرة: لو منعنا العطاء ما حيينا كان أهون علينا من إهلاكنا.

وبعد حوار قصير بينهما قال له شريح: «إنما حسبك أن يقال بستان ابن أبي بكرة وحمام ابن أبي بكرة»[1].

ومن هذا الحوار نفهم أن ابن أبي بكرة وهو من ولاة الأمويين وحكامهم كان له من المزارع والعقارات كغيره من الحكام ما يغنيه عن اعطياته، وأما الجنود وهم من أفراد الشعب البائس المحروم، فليس لهم رزق إذا منعوا أعطياتهم وحرموا من رواتبهم لذلك كان من رأي شريح أن يجازفوا في الإفلات من الحصار بهجمات يائسة لعل بعضهم ينجو ويسلم. وهكذا نادى شريح يا أهل الإسلام، من أراد منكم الشهادة فإلي، فقاتل حتى قتل، ويقول الطبري: (فاتبعه فرسان الناس وأهل الحفاظ فقاتلوا حتى أصيبوا إلا قليلاً).ولما بلغ الحجاج الخبر كتب إلى عبد الملك بن مروان بما جرى من جملة كتاب: أما بعد فإن جند أمير المؤمنين الذين بسجستان أصيبوا ولم ينج منهم إلا القليل.

وهكذا فإن فرسان العرب وأهل الحفاظ أبيدوا عن آخرهم إلا قليلاً، أبيدوا في تلك الديار النائية، بعيدين عن أهلهم وأوطانهم، أبيدوا لأن «الدولة العربية» حولتهم إلى سراق بقر وغنم، وكانوا بين خطتين: إما أن يبيدهم السيف في أرض عدوهم أو يعودوا فيذلهم الفقر في أوطانهم.

جيش جديد

وكان فيما كتبه الحجاج لعبد الملك طلبه تجهيز حملة جديدة من أبناء الكوفة والبصرة لتسلك طريق الحملة الأولى فوافق هذا الطلب هوى عبد الملك فأرسل إلى الحجاج موافقاً على تسيير هذه الحملة.

يقول الطبري: «كان الحجاج وليس في العراق أبغض إليه من عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث».

ويفترض في مثل هذا البغيض أن يكون بعيداً عن الحجاج ووظائف الحجاج ولكن الحجاج الذكي لم يختر لقيادة الحملة الجديدة إلا بغيضه اللدود عبد الرحمن.

وكيف لا يختاره ما دام المقصود من الحملة لا كسب المحامد ونشر الفضائل، ولا الدعوة إلى صلاح ورشاد. بل إن المقصود منها تحطيم قوى الشعب الروحية والجسدية، والقضاء على فروسيته في المجاهل النائية.

---

(١) الطبري.

ويروي الطبري أيضاً أن عبد الرحمن هذا دخل مرة على الحجاج فلما رآه مقبلاً قال لجليسه الشعبي: «انظر إلى مشيته والله لهممت أن أضرب عنقه».

عبد الرحمن أبغض الناس إلى الحجاج، والحجاج يود لو يقتله، فمن هو إذن أجدر من عبد الرحمن ليقود الأربعين الألف من الشبان العرب إلى مصارعهم باسم الفتح والجهاد.

إن نظرة الحجاج للقائد العام للجيش لا تختلف أبداً عن نظرته لكل فرد من أفراد الجيش وإن نواياه لعبد الرحمن لا تختلف عن نواياه لأولئك الأربعين الألف الجندي الباسلين وإنه يبغضهم كما يبغض قائدهم ويود لو ضرب أعناقهم كافة، لذلك خصهم كما خص قائدهم بهذا الجهاد.

يقول الطبري: «ثم إن الحجاج أخذ في جهاز عشرين ألف رجل من أهل الكوفة، وعشرين ألف رجل من أهل البصرة».

ومضى هذا الجيش بقيادة عبد الرحمن، ولما بلغ الخبر إلى «رتبيل» كتب إلى عبد الرحمن «يعتذر إليه عن مصاب المسلمين ويخبره أنه كان لذلك كارهاً وأنهم لجأوا إلى قتالهم ويسأله الصلح».

ولكن عبد الرحمن لم يجرؤ على قبول الصلح لأن الأوامر صريحة بوجوب غزو بلاد «رتبيل»، على أن عبد الرحمن وهو يعلم الغاية من هذه الحملة وكل الحملات دبر في نفسه أمراً ينجيه من الوقوع فيما وقعت فيه الحملة السابقة، ويظهر به في نفس الوقت بمظهر من أدى واجبه فلا يناله الحجاج، ومن ورائه عبد الملك بسوء.

عبد الرحمن يحاول التخلص

وهكذا كان فقد اقتحم عبد الرحمن بجيشه بلاد «رتبيل» دون أن يلقى مقاومة، لأن «رتبيل» كان قد اتبع نفس النهج الذي اتبعه في مقاومة الحملة الأولى، فترك هذه الحملة الثانية تتوغل في بلاده على أمل اصطيادها في الثنايا والشعاب، لأنه لا بد لها إذا أرادت تنفيذ أوامر عبد الملك والحجاج من الوقوع في المصيدة. ولكن عبد الرحمن وقف عند نقطة معينة ولم يتجاوزها. يقول الطبري: «حتى إذا حاز من أرض رتبيل أرضاً عظيمة وملأ يديه من البقر والغنم والغنائم العظيمة حبس الناس على الوغول في أرض رتبيل».

وبهذا أفسد عبد الرحمن خطة الحجاج وعبد الملك في إفناء شبان المسلمين في تلك المعاقل والعقاب والشعاب، وبنفس الوقت حقق لهما حيازة الأسلاب من البقر والغنم والأموال الأخرى.

ثم كتب إلى الحجاج بما انتهى إليه وأبان له رأيه في وجوب التوقف عن الاندفاع في أراضي الأعداء، ولكن الحجاج لم يكن يرضيه هذا الرأي فلا بد من الغزو لأن في الغزو تحقيق ما يشتهي، فكتب إلى عبد الرحمن يفند رأيه ويحاول أن يثير فيه عاطفته فنسبه إلى الجبن وفساد الرأي فقال فيما قاله له: «إنه لم يحملك عليه إلا ضعفك والتياث رأيك فامض بما أمرتك به من الوغول في أرضهم والهدم لحصونهم وقتل وسبي ذراريهم». وهكذا فالأوامر واحدة لكل حملة: هدم وقتل وسبي، أما نشر الإسلام وإشاعة العدل والرحمة والحق فلا مكان لها في أوامر الدولة[1] ثم أردف الكتاب بكتاب ثان ثم بكتاب ثالث.

مؤتمر شعبي

وكان عبد الرحمن أعقل وأحكم من أن يعرض نفسه ويعرض معه الأربعين الألف العربي لمجزرة إرضاء لنزوات الحجاج. على أنه لم يشأ أن يتفرد بالأمر وحده بل رأى أن يشرك معه مجموع الجيش فدعا الناس ووقف فيهم قائلاً: «إني لكم ناصح ولصلاحكم محب ولكم في كل ما يحيط بكم نفعه ناظر. وقد كان من رأيي فيما بينكم وبين عدوكم رأي استشرت فيه ذوي أحلامكم وأولي التجربة للحرب منكم، فرضوه لكم رأياً ورأوه لكم في

(١) في عهد معاوية أرسل زياد بن أبيه إلى الحكم بن عمرو بخراسان أن يغزو أهل جبل الأشل فغزاهم وغنم غنائم كبيرة. قال الطبري فأرسل إليه زياد: «إن أمير المؤمنين كتب أن أصطفي له كل صفراء وبيضاء والروائع فلا تحركن شيئاً حتى تخرج ذلك». ولكن الحكم هذا كان من الأحرار الذين لا يبالون سخط الحكام إذا أرضى الله والشعب، فقد ساءه أن يحرم الجند أبناء الشعب من الغنائم ليحظى بها معاوية فرفض ذلك وكتب إلى زياد: «إن كتاب الله قبل كتاب أمير الؤمنين ولو كانت السماوات والأرض رتقاً على عبد اتقى الله عز وجل جعل الله سبحانه وتعالى له مخرجاً». ثم قال الحكم للناس: «أغدوا على غنائمكم» فغدا الناس، ثم استخرج من الغنائم ضريبة الدولة وهي الخمس وقسم الغنائم بين الناس. فكتب إليه زياد يتوعده بالشر. فقال الحكم: «اللهم إن كان لي عندك خير فاقبضني». فمات بخراسان بمرو قبل أن يصل إليه أذى زياد. وهكذا كان الأمر في كل غزاة وفتح: يطلب من يسمى أمير المؤمنين أن يصطفوا له كل صفراء وبيضاء والروائع، أما أبناء الشعب الذين بتضحياتهم جاءت البيضاء والصفراء والروائع فلهم الحرمان. وليس كل الولاة أحراراً مثل الحكم بن عمرو ليتمردوا على الأوامر، بل كانوا في مجموعهم شركاء في الجريمة. وهذه الغزاة التي طلب معاوية أن يصطفوا له بيضاءها وصفراءها وروائعها، هي من الغزوات التي كاد أبناء الشعب أن يفنوا فيها ولم ينجوا إلا بشق النفس. فقد قال الطبري وهو يصفها: لما قفل الحكم بن عمرو من غزوة جبل الأشل سلكوا في شعاب ضيقة فعارضه الترك فأخذوا عليه بالطرق». . . إلى آخر ما قال.

العاجل والآجل صلاحاً، وقد كتبت إلى أميركم الحجاج فجاءني منه كتاب يعجزني ويضعفني ويأمرني بتعجيل الوغول بكم في أرض العدو، وهي البلاد التي هلك إخوانكم فيها بالأمس وإنما أنا رجل منكم أمضي إذا مضيتم وآبى إذا أبيتم».

ومن هذه الكلمة ندرك أن عبد الرحمن كان قد استشار ذوي الرأي العسكري وتداول معهم فيما يجب عمله وأنهم كانوا قد أقروه على ما ارتأى وأنه حين جمع جمهرة الناس إنما جمعهم ليبلغهم رأي العسكريين الفنيين وأنهم مجمعون على أن لا أمل في نجاح الحملة، فهو الآن يترك الكلمة الأخيرة لهذه المجموعة الحاشدة لتحمل مسؤوليتها بنفسها.

يقول الطبري: «فثار إليه الناس فقالوا: لا بل نأبى على عدو الله ولا نسمع له ولا نطيع».

الأربعون الألف كانوا مدركين كل الإدراك غايات الحجاج، وكانوا يعلمون ما يبيته لهم، لذلك كان رأيهم فيه بالإجماع أنه «عدو الله» وأنهم «لا يسمعون له ولا يطيعون». هذا هو رأي الشعب بحكامه يومذاك هذا هو رأي المسلمين والعرب المحكومين بالدولة العربية الحاكمة.

ولم يكتف الناس بهذا القول الجماعي بل وقف خطباؤهم يفصلون الأمر ويشرحونه فكان ممن خطب عامر بن واثلة الكناني وكان شاعراً خطيباً فكان مما قاله: «إن الحجاج لا يرى فيكم إلا رأي القائل الذي قال لأخيه احمل عبدك على الفرس فإن هلك هلك وإن نجا فلك. إن الحجاج والله لا يبالي أن يخاطر بكم فيقحمكم بلاداً كثيرة اللهوب واللصوب فإن ظفرتم فغنمتم أكل البلاد وحاز المال وكان ذلك زيادة في سلطانه، وإن ظفر عدوكم كنتم أنتم الأعداء البغضاء الذي لا يبالي عنتهم ولا يبقي عليهم».

وتكلم غيره من الخطباء، فنادى الناس من كل جانب مؤيدين أقوال الخطباء منادين بالثورة على الحكم الفاسد الجائر. والكلام الذي أعلنه الخطيب الكناني كان يصور الحقيقة البشعة التي استهدفها الحكام الأمويون فيما أسموه بالفتوحات والتي عرضوا بسببها الشعب إلى هذه المحن المبيدة[1].

---

(١) كان هذا رأي الشعب في حكامه فبعد ست وثلاثين سنة من هذه الأحداث وفي خلافة هشام بن عبد الملك سنة ١١٧ قال رجل من عبد القيس يصف حالة الشعب يومذاك وما يعرضه له حكامه من الويل في دفعه إلى لهوات المنون ليعيشوا على أشلائه:

تولت قريش لذة العيش واتقت ... بنا كل فج من خراسان اغبرا

وقد ظل الشعب يعبر أبداً بهذا وأمثاله عن الآلام التي يعيشها.

وأعلنت الثورة وتقدم الثوار نحو العراق مستهدفين الحجاج ثم الحكم الأموي كله. وكان شاعر الثورة أعشى همدان فقال مشيراً إلى أن الثورة عربية عامة تمثل العرب والمسلمين كلهم في نقمتهم على الحكم الفاسد الذي أراد بهم ما أراد:

إنـا سـمـونـا لـلـكـفـور الـفـتـان حين طغى في الكفر بعد الإيمان

بالسيد الغطريف عبد الرحمن سار بجمع كالدبى من قحطان

ومـن مـعـدّ قـد أتـى ابـن عـدنـان بـجـحـفـل جـم شـديـد الارنـان

فـقـل لـحـجـاج ولـي الـشـيـطـان يـثـبـت لـجـمـعـي مـذحـج وهـمـدان

أما مبادىء الثورة فقد حددتها صورة المبايعة التي بايع بها الناس عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث وهذا نصها: «نبايع على كتاب الله وسنة نبيه وخلع أئمة الضلال وجهاد المحلين».

وهو نص واضح صريح يحدد أهداف الثورة ويعلن مناهجها ومبادئها وهي المناهج والمبادىء والأهداف التي تؤدي إلى تحرير الشعب من عبودية الحكام الفاسدين وإقطاعية الولاة الظالمين، والعودة به إلى المبادىء التي قضى عليها الحكام الجدد وعادوا بالمسلمين إلى ما هو شر من الجاهلية الأولى.

تطور الثورة

كانت الثورة في أول أمرها هي ثورة الجيش وحده، ولكن لم تكد طلائع هذا الجيش تقبل من سجستان ويعلم الناس بأمره حتى هب الشعب عن بكرة أبيه يؤيد الثائرين وينضم إلى صفوفهم، فأول مدينة ثارت هي البصرة فأقبل إليها ابن الأشعث، ويقول الطبري: «بايعه على حرب الحجاج وخلع عبد الملك جميع أهلها». وتلت البصرة في الثورة الكوفة. ويقول الطبري: «فلما دخل ابن الأشعث الكوفة مال إليه أهلها كلهم» ثم تتابعت البلدان الثائرة فيقول الطبري: «وتقوضت إلى ابن الأشعث المسالح والثغور». وهذا أبلغ تعبير في الإشارة إلى انتشار الثورة في كل مكان انتشاراً جعل منها أضخم ثورة شعبية تحررية.

وكان قادتها زعماء شعبيين متواضعين نبتوا من أوساط الشعب وخبروا حياته وعاشوا دنياه بكل ما فيها من اهتضام وحرمان وجور، وكان بينهم نخبة العلماء والفقهاء والشعراء، أو باصطلاحنا الحديث نخبة المثقفين المتحررين ذوي الرسالات الهادفة المناضلة، وكانوا وهم يحرضون الشعب على الصمود والثبات كأنما يسجلون شعارات الثورة، فمن أقوالهم ما كان

يحرض به عبد الرحمن بن أبي ليلى الفقيه من جملة قوله: «قاتلوا هؤلاء المحلين المحدثين المبتدعين الذين جهلوا الحق فلا يعرفونه وعملوا بالعدوان فلا ينكرونه». وقال أبو البختري: «أيها الناس قاتلوهم على دينكم ودنياكم فوالله لئن ظهروا عليكم ليفسدن عليكم دينكم وليغلبن على دنياكم». وقال الشعبي: «يا أهل الإسلام قاتلوهم ولا يأخذكم حرج من قتالهم فوالله ما أعلم على بسيط الأرض أعمل بظلم ولا أجور منهم في الحكم». وقال سعيد بن جبير: «قاتلوهم ولا تأثموا من قتالهم بنية ويقين وعلي آثامهم، قاتلوهم على جورهم في الحكم وتجبرهم في الدين واستذلالهم الضعفاء».

على أن الوحيد الذي كان بعيداً عن جوهر الثورة وروحها هو قائدها عبد الرحمن بن الأشعث، ولكن الظرف وحده هو الذي وضعه على رأس الثورة، وكان لا بد منه لتكتيل الجيش واستبقاء وحدته فإن وجوده على رأس الجيش جعله مفروضاً على قادة الثورة وزعمائها.

ولكن المقادير كتبت للثورة الفشل وهي في قمة نجاحها.

وقد كان الحجاج في ظفره لئيماً لا يخالط قلبه نبل أو مروءة، كما كان الزعماء الشعبيون أبطالاً في مواجهة الحجاج وهم أسرى بين يديه، فمن ذلك أنه كان بين من سيق إليه منهم كميل بن زياد النخعي فحاول الحجاج إهانته كما كان يفعل. فجرى بينهما حوار كان فيه كميل أبياً شموخاً في أعلى ذروات الرجولة، وقد أنهى حواره مع الحجاج بقوله: «أيها الرجل من ثقيف لا تصرف علي أنيابك ولا تهدم علي تهدم الكثيب ولا تكشر كشران الذئب، اقض ما أنت قاض فإن الموعد الله». فقتل كما قتل غيره من الألوف.

أولى معارك الثورة

مضى عبد الرحمن بالجيش إلى العراق ثائراً فلما بلغ الخبر إلى الحجاج كتب إلى عبد الملك في الشام يطلب إليه الإسراع بإرسال الجنود إليه لقمع الثورة، وتقدم هو فنزل البصرة.

ولما وصل كتاب الحجاج إلى عبد الملك هاله وأخذ في تجهيز جيش وإرساله إلى الحجاج، وتتابعت النجدات إلى الحجاج فترك البصرة وتقدم إلى (تستر) لملاقاة عبد الرحمن بن الأشعث، ولم تلبث أن تلاقت مقدمة الجيشين عند (دجيل) فكان الصدام بين المقدمتين، فانهزمت مقدمة الحجاج بعد قتال شديد وقتل منها العدد الجم.

فاضطر الحجاج للرجوع إلى البصرة فتبعه جماعة من الثوار إليها فقتلوا جماعة من أصحابه، فترك البصرة ولم يلبث أن دخلها عبد الرحمن ويصف ابن الأثير[١] ما جرى قائلاً: «فبايعه جميع أهلها: قراؤها وكهولها مستبصرين في قتال الحجاج».

هذه الجملة الموجزة تريك إلى أي حد كان الحكم مكروهاً من الشعب، هذا الشعب الذي لم يكد يرى أعلام الثورة مرفوعة حتى انضم إليها بكل طبقاته، محاولاً التخلص من أولئك الحكام الذين لم يلق منهم إلا العسف والظلم والاضطهاد.

كان الحجاج بعد انسحابه من البصرة قد نزل (الزاوية)[٢] غير بعيد عن البصرة، ويبدو أن سبب انسحابه من البصرة أنه أدرك الجو الشعبي المعادي له فيها فآثر الانسحاب منها على أن لا يبعد عنها.

وبعد أن ركز عبد الرحمن أموره في البصرة قرر الزحف إلى الحجاج بعد أن انضمت إليه جموع البصرة، ففي المحرم من سنة ٨٣ تزاحف الفريقان فكان بينهما عدة معارك، وفي آخر المحرم اشتد القتال فانهزم جيش الحجاج أول الأمر، ولكن لم يطل أمر الهزيمة، إذ لم يلبث أمر الثوار أن تضعضع فانهزموا إلى الكوفة، بما فيهم أهل القوة وأصحاب الخيل من أهل البصرة.

وثبت في البصرة عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب فبايعه من بقي من أهل البصرة فقاتل بهم الحجاج خمس ليال أشد قتال، ثم انسحب لاحقاً بعبد الرحمن في الكوفة:

وكان الصحابي عامر بن واثلة[٣] ممن ساهم في هذا القتال مع ولده طفيل فقتل طفيل فرثاه أبوه بقصيدة منها:

(١) ج٤، ص٤٦٥.

(٢) **الزاوية**: موضع قرب البصرة.

(٣) ولد عامر عام أحد وتوفي سنة ١٠٠ وشهد مع علي صفين وكان من مخلصي أنصاره، وهو شاعر مجيد طبع بعض مستشرقي الألمان ديوانه. وكان عندما أقبل مع عبد الرحمن لقتال الحجاج قال:

ألا طرقتنا بالغريين بعدما ... كللنا على شحط المزار جنوب

أتوك يقودون المنايا وإنما ... هدتها بأولانا إليك ذنوب

ولا خير في الدنيا لمن لم يكن له ... من الله في دار القرار نصيب

ألا أبلغ الحجاج أن قد أظله ... عذاب بأيدي المؤمنين مصيب

خلى طفيل عليّ الهم فانشعبا ... وهدّ ذلك ركني هدة عجبا

مهما نسيت فلا أنساه إذ خرقت ... به الأسنة مقتولاً ومنسلبا

وأخطأتني المنايا لا تطالعني ... حتى كبرت ولم يتركن لي نشبا

وكنت بعد طفيل كالذي نضبت ... عنه السيول وغاض الماء فانقضبا

وقد عرفت هذه الوقعة باسم يوم الزاوية.

وتم أمر البصرة للحجاج فكان أول ما استفتح به مجازره قتل أحد عشر ألفاً، وكان سبيله إلى ذلك أن خدع الناس بالأمان، فأرسل من نادى في البصرة: لا أمان لفلان بن فلان، وسمى رجالاً. فاعتقد العامة أنه قد آمن الناس، فحضروا إليه فأمر بقتلهم فقتلوا.

وأما في الكوفة فقد كان واليها من قبل الحجاج عبد الرحمن الحضرمي، وفي غياب الحجاج وانشغاله بما انشغل به استغل ذلك مطر بن ناجية اليربوعي فأراد الاستيلاء على الكوفة فتحصن ابن الحضرمي بالقصر، وثار أهل الكوفة مع مطر فأخرج ابن الحضرمي ومن معه وكانوا أربعة آلاف، واستولى مطر على القصر. فلما وصل عبد الرحمن إلى الكوفة أبى مطر التسليم له وتحصن في القصر ومعه جماعة من بني تميم غير مدرك حقيقة قوة عبد الرحمن معتقداً أنه مجرد منهزم من الحجاج فاكتفى عبد الرحمن بأن أصعد الناس بالسلالم إلى القصر فاستولوا عليه وقبضوا على مطر بن ناجية فسجنه أول الأمر، ورأى أن يصطنعه لأنه بحاجة إليه فأطلقه، فانضم مطر إليه.

وكان أهل الكوفة قد خرجوا لاستقبال ابن الأشعث عندما علموا بقدومه، ثم مالوا إليه كلهم، وسبقت همدان إليه فحفت به. وتداعى إليه الناس من كل مكان في العراق. «وتقوضت إليه أهل المسالح والثغور»، كما يقول الطبري (ج٨ ص٤٥).

ولم تؤثر هزيمة (الزاوية) في عزم الناس على الاستمرار في الثورة، وبعد أن كانت في أول أمرها ثورة الجيش أصبحت ثورة الشعب والجيش معاً.

الزحف من البصرة

لما تمكن الحجاج في البصرة زحف منها قاصداً عبد الرحمن، ومضى حتى مرّ بين القادسية والعذيب[١] فأرسل إليه عبد الرحمن بن الأشعث خيلاً عظيمة من فرسان الكوفة

(١) **القادسية**: بينها وبين الكوفة خمسة عشر فرسخاً. **والعذيب**: ماء بينه وبين القادسية أربعة أميال.

ارتفعوا على وادي السباع[١]، ثم تسايروا حتى نزل الحجاج دير قرة ونزل عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة الهاشمي دير الجماجم[٢].

ومعنى ذلك أن الحجاج في زحفه من البصرة لم يلق مقاومة حتى كاد أن يشارف الكوفة، فلم تكن الأرياف التي مر فيها مهيأة للقتال، ولا كان ابن الأشعث مهيأً للصمود قبل الكوفة، بل كان منهزماً يريد أن يلوذ بالكوفة، وفي الكوفة تجمعت القوى من كل مكان، ومنها خرج عبد الرحمن بن العباس بفرسانه لوقف زحف الحجاج، فأوقفوه عند دير قرة ووقفوا عند دير الجماجم.

ولما كان الحجاج زاحفاً بكل قوته كان لا بد للثورة من أن تقابله بكل قوتها، لذلك تقدم ابن الأشعث من الكوفة واصلاً إلى دير الجماجم.

يصف الطبري ج٨ ص١٥، قوى الثورة بهذا الوصف: «واجتمع أهل الكوفة وأهل البصرة وأهل الثغور والمسالح بدير الجماجم، والقراء من أهل المصرين، فاجتمعوا جميعاً على حرب الحجاج، وجمعهم عليه بغضهم والكراهية له، وهم إذ ذاك مئة ألف مقاتل ومعهم مثلهم من مواليهم».

وكان الحجاج يتلقى النجدات من عبد الملك قبل نزوله دير قرة، وظلت النجدات تتواصل إليه وهو في دير قرة. على أنه كان قد فكر قبل نزوله دير قرة أن يتقدم إلى (هيت)[٣] وناحية الجزيرة ليقترب من الشام فيأتي منها ومن الجزيرة المدد من قريب. ولكنه عندما وصل دير قرة قال: ما بهذا المنزل بعد من أمير المؤمنين وإن الفلاليج وعين التمر إلى جنبنا، فنزل.

على أنه يبدو أن قوى الثورة كانت عاملاً في الحؤول دون تقدمه إلى هيت ونواحي الجزيرة، ما حمله على النزول بدير قرة.

وهكذا وقف الفريقان وجهاً لوجه يتناوشان، ثم اشتد القتال بينهما، وكانت الأخبار تصل إلى عبد الملك بن مروان في دمشق على خيل البريد المسرعة، وعُرفت في دمشق قوة

---

(١) **وادي السباع**: من نواحي الكوفة.

(٢) **دير الجماجم**: بظاهر الكوفة على مسيرة ٢٨ ميلاً جنوبيها على طرف البر للسالك إلى البصرة. **ودير قرة**: دير بإزاء دير الجماجم، ملاصق لطرف البر ودير الجماجم مما يلي الكوفة. قال أبو عبيدة: الجمجمة: القدح من الخشب وبذلك سمي دير الجماجم لأنه كان يعمل فيه الأقداح من الخشب، والجمجمة أيضاً: البئر تحفر في سبخة، فيجوز أن يكون الموضع سمي بذلك.

(٣) **هيت**: بلدة على الفرات فوق الأنبار.

حشود الثورة وخيف من الصدام الأكبر بين الفريقين وما يمكن أن ينتهي إليه أمر الثوار من النصر.

ويقول الطبري إن اشتداد القتال بلغ «رؤوس قريش وأهل الشام قِبَل عبد الملك ومواليه»، وعرفوا أن المطلوب رأس الحجاج بإقالته من ولاية العراق، فاقترحوا على عبد الملك: «إن كان إنما يرضي أهل العراق أن تنزع عنهم الحجاج فإنَّ نزع الحجاج أيسر من حرب أهل العراق فانزعه عنهم تخلص لك طاعتهم وتحقن به دماءنا ودماءهم».

لا شك أن السبب الأول للثورة كان مظالم الحجاج وطغيانه، ولكن الثوار بعد أن توحدت كلمتهم واشتد ساعدهم وتنامت قوتهم، لم يعد عزل الحجاج هو مطلبهم، بل إن مطلبهم هو اقتلاع الشر من جذوره والقضاء على المصدر الأساسي للظلم والاضطهاد، فالحجاج شعبة من شعب الطغيان وفرع من فروعه، فإذا نحي اليوم فتنحيته لا تجدي ما دام من سيحل محله من نفس الطينة ومن نفس المعدن. ثم إن المطلوب لا إنقاذ شعب العراق وحده، بل إنقاذ الأمة كلها من أقصى ديارها إلى أقصاها وهذا لا يتم إلا بهدم الأساس الذي يقوم عليه هذا الهيكل الطغياني الذي استهان بالناس ودمائهم وكراماتهم وحقوقهم منذ قام في العام الواحد والأربعين من الهجرة.

هذا ما لم يفكر فيه «رؤوس قريش وأهل الشام قِبَل عبد الملك ومواليه».

لذلك اقترحوا على عبد الملك عزل الحجاج إرضاء للثوار. وما لم يفكر فيه عبد الملك نفسه لذلك قبل اقتراحهم، ورضي بأن يضحي بالحجاج.

استدعى عبد الملك ولده عبد الله وطلب إلى أخيه محمد بن مروان الذي كان بأرض الموصل أن يوافي إلى دمشق، فاجتمعا عنده كلاهما في جنديهما. فقد أراد أن يكون وفده إلى الثوار على مستوى عال ومن صميم البيت المالك ومن ألصق الناس بشخصه ليكون في ذلك ضماناً للثوار في إنفاذ ما يعرضه ولده وأخوه، ليقول للثوار ضمناً أنه لا يفاوضهم عن ضعف وأن الناطقين باسمه بلسانيهما سينطقان عند الاقتضاء بسيوف جنودهما.

ومضى الوفد المفاوض حاملاً الحل المقترح ليعرضه على الثوار وهو:

١ - عزل الحجاج عن ولاية العراق.

٢ - يحل محله في ولاية العراق محمد بن مروان أخو عبد الملك.

٣ - يختار عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث أي بلد في العراق ليكون والياً عليه ما دام حياً وما دام عبد الملك باقياً.

٤ ـ أن تجري على أهل العراق أعطياتهم كما تجري على أهل الشام.

فلما وصل الوفد إلى العراق والتقى الحجاج وأطلعه على مهمته، كان موقف الحجاج كما وصفه الطبري:

«فلم يأت على الحجاج أمر قط كان أشد عليه ولا أغيظ له ولا أوجع لقلبه منه مخافة أن يقبلوا فيعزل عنهم».

فكتب إلى عبد الملك: لئن أعطيت أهل العراق نزعي لا يلبثون إلا قليلاً حتى يخالفوك ويسيروا إليك ولا يزيدهم ذلك إلا جرأة عليك، ألم تسمع بوثوب أهل العراق مع الأشتر على ابن عفان، فلما سألهم ما يريدون؟ قالوا: نزع سعيد بن العاص، فلما نزعه لم تتم لهم السنة حتى ساروا إليه فقتلوه، إن الحديد بالحديد يُفلَح، خار الله لك فيما ارتأيت والسلام عليك. (اهـ).

ونحن هنا نريد أن نناقش رأي الحجاج هذا. إننا لا نستغرب تشبث الحجاج بولاية العراق وتفضيله إراقة دماء الشعب على اعتزاله الولاية. ولكن تعريضه بالثائرين على ابن عفان بقيادة الأشتر وقوله: بأنهم بعد أن استجاب لهم ابن عفان بعزل سعيد بن العاص عادوا فساروا إليه قبل أن تتم السنة فقتلوه.

إن تعريضه هذا نابع من روح الطغيان المتأصلة فيه، فهو لا يفهم أن للشعب حقوقاً هي أبعد من تغيير والٍ، وماذا يجدي إبدال سعيد بن العاص بغيره من الولاة ما دام مروان بن الحكم مسيطراً على الخليفة في المدينة، مروان بمفاسده وآثامه المتنافية مع أبسط حقوق الناس، وما دام الخليفة مسترسلاً في تحكيم أسرته الفاسدة بمرافق الدولة وإباحة تلك المرافق لها، وحرمان أصحاب الحقوق من حقوقهم.

لقد طالب أحرار الكوفة بقيادة الأشتر بإبدال سعيد بن العاص بعد أن نال الشعب ما ناله من مظالمه وتهتكه فاستجيب طلبهم فرضوا لعل الأمر العام يمشي إلى الصلاح، ولكن قبل أن تتم السنة كان الأمر في الأمة كلها يسير من سيء إلى أسوأ فكان منهم ما كان.

رفض عبد الملك طلب الحجاج وأصر على عرض الاقتراحات على الثائرين.

لقد كانت الثورة كما قلنا ثورة الجيش وثورة الشعب بكل طبقاته، وكانت نقية مخلصة مؤمنة لا مطمع لرجالها إلا صلاح الحكم.

ولكن الظروف وضعت على رأسها وسلمت قيادتها لرجل هو أبعد الناس عن مهمة

الثورة وعن أهدافها وعما تطالب به، لرجل هو في حقيقته لا يقل بغياً وعسفاً وفساداً عن الذين تثور عليهم الثورة لبغيهم وعسفهم وفسادهم.

ويكفي أنه من الأرومة التي أنبتت الأشعث وبني الأشعث، ومن البيت الذي خرجت منه تلك الزمرة التي عرفها الناس بما عرفوها به من شرور وآثام.

وكان هذا هو الوهن الأكبر في الثورة.

تقدم عبد الله بن عبد الملك فقال: يا أهل العراق... أنا عبد الله بن أمير المؤمنين وهو يعطيكم كذا وكذا... وذكر لهم المقترحات التي تقدم ذكرها.

ثم تقدم محمد بن مروان وقال: أنا رسول أمير المؤمنين إليكم وهو يعرض عليكم كذا وكذا... ففوجىء الثوار بهذا الموقف، ولم يكن من الممكن إعطاء الجواب في الحال، فقالوا: نرجع العشيّة... فرجعوا فاجتمعوا عند ابن الأشعث فلم يبق قائد ولا رأس قوم ولا فارس إلا أتاه.

لقد كانت المقترحات موافقة لهوى ابن الأشعث فهو لم يثر لأمر عام بل ثار لأمر شخصي، وما دام هذا الأمر الشخصي قد تحقق لمصلحته، فهو سيكون والياً ككل ولاة هذه الدولة متحكماً بالشعب على هواه ومزاجه. ما دام الأمر كذلك فيجب إنهاء الثورة. لذلك فإن ابن الأشعث افتتح المؤتمر الشعبي المنعقد برئاسته لتقرير مصير فترة من أخطر فترات الأمة في ذلك الوقت ـ افتتحه بهذا الخطاب الانهزامي:

حمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فقد أعطيتم أمراً انتهازكم إياه فرصة ولا آمن أن يكون على ذي الرأي غداً حسرة وإنكم اليوم على النَّصَف وإن كانوا اعتدّوا بالزاوية فأنتم تعتدّون عليهم بيوم تُستر فاقبلوا ما عرضوا عليكم وأنتم أعزاء أقوياء والقوم لكم هائبون وأنتم لهم منتقصون فلا والله ما زلتم عليهم جُرّاء ولا زلتم عندهم أعزاء إن أنتم قبلتم أبداً ما بقيتم.

هذا هو الخطاب الموجز الذي حاول فيه ابن الأشعث أن يكون منطقياً وأن يدخل إلى عقول القوم عن طريق المنطق وتحليل الواقع تحليلاً عقلياً. في حين أنه لم يقبل هو العرض لأن العرض كان منطقياً عقلياً بل قبله لأنه حقق له مطامعه الشخصية.

ولا شك أنه كان لهذا الخطاب أثر في توهين العزائم وضعضعة الأفكار، ولكن الصوت الأقوى كان للثائرين المتحمسين الذين لم يستطع أي صوت واهن أن يرتفع في دويّ صوتهم الهادر، فوثبوا من كل جانب قائلين: إن الله قد أهلكهم فأصبحوا في الأزل والضنك والمجاعة

والقلة والذلة، ونحن ذوو العدد الكثير والسعر الرفيع والمادة القريبة. لا والله لا نقبل.

ثم أعادوا خلع عبد الملك من جديد بعد أن كانوا قد أعلنوا خلعه من قبل.

فعند ذلك رجع محمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك إلى الحجاج فقالا: لا شأن لنا بعسكرك وجندك فاعمل برأيك فإنا قد أُمرنا أن نسمع لك ونطيع. فقال: قد قلت لكما إنه لا يراد بهذا الأمر غيركما. ثم قال: إنما أقاتل لكما وإنما سلطاني سلطانكما.

وكان عبد الملك قد قال لهما حين أرسلهما: إن أبوا أن يقبلوا فالحجاج هو الأمير وولّي القتال، وأنهما في طاعته.

فلما وصل الأمر إلى هذا الحد كانا إذا لقيا الحجاج سلما عليه بالأمرة.

الحرب

إلى هنا كان لا بد من القتال، وهكذا كان فنظم كل من الفريقين قياداته في الميمنة والميسرة والخيل والرجالة. ومن أبرز قيادات الثوار كان محمد بن سعد بن أبي وقاص(١) الذي كان يقود الرجالة، وعبد الرحمن بن العباس الهاشمي الذي كان يقود الخيالة، وجبلة بن زحر بن قيس الجعفي(٢) الذي كان يقود القرّاء وكان معه خمسة عشر رجلاً من قريش، وكان

---

(١) كان لسعد بن أبي وقاص ولدان: عمر بن سعد الذي قاد الجماعة التي قتلت الحسين (ع) ثم قتله بعد ذلك المختار في الحملة التي قادها للأخذ بثأر الحسين. والابن الثاني لسعد هو محمد هذا الذي كان من زعماء الثورة على الحجاج والأمويين ثم قتله الحجاج كما سنرى.
أما سعد نفسه فقد كان من جماعة الشورى الذين رشحهم عمر بن الخطاب للخلافة، ولما بويع علي رفض أن يبايعه ووقف على الحياد. ولما استتب الأمر لمعاوية لقي سعد منه الإهانة والتحقير.
وكان لسعد ابن أخ هو هاشم بن عتبة بن أبي وقاص كان من أخلص أنصار علي ومن كبار قواده في صفين واستشهد فيها.

(٢) زحر بن قيس والد جبلة هذا: أمره محير، فقد ذكر جميع المؤرخين أنه كان في أصحاب علي (ع) المخلصين المتفانين، وكان في صفين من أبرز الفرسان حتى إن علياً كان إذا نظر إليه قال: من سره أن ينظر إلى الشهيد الحي فلينظر إلى هذا، وكان رسوله إلى جرير بن عبد الله البجلي، وواليه على الري. وهو القائل يوم الجمل:

أضربكم حتى تقروا لعلي	خير قريش كلها بعد النبي
من زانه الله وسماه الوصي	إن الولي حافظ ظهر الولي
علياً عنيت وصي النبي	يجالد عنه غواة الأمم

وهناك زحر بن قيس الذي كان ممن خرجوا لقتال الحسين، وهو الذي دفع إليه ابن زياد رأس الحسين (ع) ورؤوس أصحابه وسرحه إلى يزيد بن معاوية في دمشق، فلما دخل على يزيد قال=

في رجاله عامر الشعبي وسعيد بن جبير وأبو البختريّ الطائي وعبد الرحمن بن أبي ليلى.

وكان الثوار في وضع حياتي جيد إذ كانت تأتيهم المواد التموينية من الكوفة وريفها الواسع، في حين كان الحجاج في وضع سيىء إذ قل عنده الطعام وفقد اللحم، فهو شبه محصور.

وبدأ القتال بمناوشات بين الفريقين، يتزاحفون في كل يوم ويقتتلون أشد قتال وتقدم جبلة بن زحر وتقدم أمامه كميل بن زياد في كتيبة فعبى الحجاج أصحابه ثم زحف في صفوفه، وخرج ابن الأشعث في سبعة صفوف بعضها على أثر بعض. فعبى الحجاج لكتيبة القراء التي مع جبلة بن زحر ثلاث كتائب وبعث عليها الجراح بن عبد الله الحكمي فأقبلوا نحوهم.

ويروي أبو يزيد السكسكي الذي كان مع الجراح الحكمي قائلاً: أنا والله في الخيل التي عُبّيت لجبلة بن زحر، حملنا عليه وعلى أصحابه ثلاث حملات، كل كتيبة تحمل حملة فلا والله ما استنقصنا منهم شيئاً.

وقد سمعنا واحداً من جماعة الحجاج يصف حملات جماعته على خيل جبلة بن زحر، ولنسمع الآن واحداً من جماعة جبلة يصف تلك الحملات:

= له يزيد: ما وراءك وما عندك؟ قال زحر: أبشر يا أمير المؤمنين بفتح الله ونصره، ورد علينا الحسين بن علي في ثمانية عشر رجلاً من أهل بيته وستين من شيعته فسرنا إليهم فسألناهم أن يستسلموا وينزلوا على حكم الأمير عبيد الله بن زياد أو القتال فأرادوا القتال على الاستسلام فغدونا عليهم مع شروق الشمس فأحطنا بهم من كل ناحية حتى إذا أخذت السيوف مأخذها من هام القوم جعلوا يهربون إلى غير وزر ويلوذون منا بالآكام والشجر لواذاً كما لاذ الحمام من الصقر فوالله يا أمير المؤمنين ما كان إلاّ جزر جزور أو نومة قائل حتى أتينا على آخرهم فهاتيك أجسادهم مجردة وثيابهم مرملة وخدودهم معفرة تصهرهم الشموس وتسفى عليهم الرياح زوارهم العقبان والرخم.
فهل يمكن أن يكون زحر هذا هو زحر الآخر نفسه؟
ولم لا يكون ونحن نرى في عصرنا الذي نعيش فيه من أخلاق الرجال ما هو أحط من هذا!.. كما رأينا ذلك في الماضين وهذا شبث بن ربعي مثلاً كان من أصحاب علي وأرسله عضواً في وفد إلى معاوية فكان من أشد أعضاء الوفد احتجاجاً على معاوية ونقاشاً، ثم كان من الخارجين إلى قتال الحسين يوم كربلا. ثم كان ابنه عبد المؤمن من أبرز رجال هذه الثورة التي نتحدث عنها.
على أننا لا نستبعد أن يكون هناك زحران، لا زحر واحد، اسم أبي كل منهما قيس وهذا يقع كثيراً.
وفي كتاب (الإصابة): كان لزحر أربعة أولاد نجباء أشراف بالكوفة: أحدهم فرات قتله المختار والثاني جبلة قتل مع ابن الأشعث والثالث جهم كان مع قتيبة بن مسلم والرابع كان بالرستاق.

قال أبو الزبير الهمداني: كنت في خيل جبلة بن زحر فلما حمل عليه أهل الشام مرة نادى عبد الرحمن بن أبي ليلى الفقيه فقال: يا معشر القراء إن الفرار ليس بأحد من الناس بأقبح به منكم إني سمعت علياً رفع الله درجته في الصالحين وأثابه أحسن ثواب الشهداء والصديقين يقول يوم لقينا أهل الشام: أيها المؤمنون إنه من رأى عدواناً يُعمل به ومنكراً يُدعى إليه فأنكره بقلبه فقد سلم وبرىء، ومن أنكر بلسانه فقد أجر وهو أفضل من صاحبه، ومن أنكره بالسيف لتكون كلمة الله العليا وكلمة الظالمين السفلى فذلك الذي أصاب سبيل الهدى ونوّر في قلبه باليقين، فقاتلوا هؤلاء المحلين المحدثين المبتدعين الذين قد جهلوا الحق فلا يعرفونه وعملوا بالعدوان فليس ينكرونه. وقال أبو البختري: أيها الناس قاتلوهم عن دينكم ودنياكم فوالله لئن ظهروا عليكم ليفسدن عليكم دينكم وليغلبن على دنياكم. وقال الشعبي: يا أهل الإسلام قاتلوهم ولا يأخذكم حرج من قتالهم فوالله ما أعلم قوماً على بسيط الأرض أعمل بظلم ولا أجور منهم في الحكم فليكن بهم البدار. وقال سعيد بن جبير: قاتلوهم ولا تأثموا من قتالهم بنية ويقين وعليّ آثامهم، قاتلوهم على جورهم في الحكم وتجبرهم في الدين واستذلالهم للضعفاء وإماتتهم للصلاة.

ويتمم أبو الزبير قوله متحدثاً عن أثر هذه الخطب في الثوار قائلاً: فتهيأنا للحملة عليهم.

ونفهم مما رواه أبو يزيد السكسكي، ثم ما رواه أبو الزبير الهمداني أن الحال كان في أول الأمر حال هجوم من جيش الحجاج على الثوار، وأن الثوار لزموا جانب الدفاع، وأن هجمات الحجاج استهدفت كتيبة القراء التي كانت ضمن قيادة جبلة بن زحر برئاسة كميل بن زياد النخعي، وأن الحجاج عبى لهذه الكتيبة ثلاث كتائب، وأن القصد من ذلك كان القضاء على هذه الكتيبة التي كانت أصلب الكتائب في القتال وأشدها ثباتاً في مواجهة الأعداء، فإذا تضعضعت كان ذلك نذيراً بتضعضع الجيش كله، ومن هنا رأينا الحجاج يهاجمها بثلاثة أضعافها عدداً، ثم يواصل الهجمات هجمة بعد هجمة. ولكنها صمدت لكل ذلك، وقد آن الآن للخيالة كلها ومنها كتيبة القراء أن تبادر بالهجوم. فخطب الخطباء الثلاثة محرضين معلنين حقيقة من يثورون عليهم في سلوكهم وفي معاملتهم للشعب بالظلم والجور.

يقول أبو الزبير: فتهيأنا للحملة عليهم، فقال لنا جبلة: إذا حملتم عليهم فاحملوا حملة صادقة ولا تردوا وجوهكم عنهم حتى تواقعوا صفهم. فحملنا عليهم حملة بجرمنا في قتالهم

وقوة منا عليهم فضربنا الكتائب الثلاث حتى اشفترّت[1]، ثم مضينا حتى واقعنا صفهم فضربناهم حتى أزلناهم عنه، ثم انصرفنا فمررنا بجبلة صريعاً لا ندري كيف قتل، فهدّنا ذلك وجبنّا فوقفنا موقفنا الذي كنا به، وإن قرّاءنا لمتوافرون ونحن نتناغى جبلة بن زحر بيننا كأنما فقد به كل واحد منا أباه أو أخاه، بل هو في ذلك الموطن كان أشدّ علينا فقداً. فقال لنا أبو البختريّ الطائي: لا يستبين فيكم قتل جبلة بن زحر فإنما كان كرجل منكم أتته منيته ليومها لم يكن ليتقدم يومه ولا ليتأخر عنه وكلكم ذائق ما ذاق ومدعو فمجيب.

ويتمم أبو الزبير وصف ما جرى قائلاً: فنظرت إلى وجوه القراء فإذا الكآبة على وجوههم بينة وإذا ألسنتهم منقطعة وإذا الفشل فيهم قد ظهر، وإذا أهل الشام قد سُروا وجذلوا فنادوا: يا أعداء الله قد هلكتم وقتل طاغوتكم.

أما من الجانب الآخر فيحدث أبو يزيد السكسكي قائلاً: إن جبلة حين حمل هو وأصحابه علينا انكشفنا وتبعونا وافترقت منا فرقة فكانت ناحية فنظرنا فإذا أصحابه يتبعون أصحابنا وقد وقف لأصحابه ليرجعوا إليه على رأس رهوة[2] فقال بعضنا: هذا والله جبلة بن زحر احملوا عليه ما دام أصحابه مشاغيل بالقتال عنه لعلكم تصيبونه، فحملنا عليه فأشهد ما ولى ولكن حمل علينا بالسيف، فلما هبط من الرهوة شجرناه بالرماح فأذريناه عن فرسه فوقع قتيلاً ورجع أصحابه فلما رأيناهم مقبلين تنحينا عنهم فلما رأوه قتيلاً رأينا من استرجاعهم وجزعهم ما قرت به أعيننا، فتبينا ذلك في قتالهم إيانا وخروجهم إلينا.

يقول سهم بن عبد الرحمن الجهني وهو من الثوار:

لما أصيب جبلة هدّ الناس مقتله حتى قدم علينا بسطام بن مصقلة بن هبيرة الشيباني فشجع الناس مقدمه وقالوا يقوم مقام جبلة، فسمع هذا القول من بعضهم أبو البختريّ فقال: قبّحتم، إن قتل منكم رجل واحد ظننتم أن قد أحيط بكم فإن قُتل الآن ابن مصقلة ألقيتم بأيديكم إلى التهلكة وقلتم لم يبق أحد يقاتل معه ما أخلقكم أن يُخلف رجاؤنا فيكم.

وكان مقدم بسطام من الري فالتقى هو وقتيبة في الطريق فدعاه قتيبة إلى الحجاج وأهل الشام ودعاه بسطام إلى عبد الرحمن وأهل العراق، فكلاهما أبى على صاحبه وقال بسطام: لأن أموت مع أهل العراق أحب إليّ من أن أعيش مع أهل الشام[3].

(١) **الشفترة**: التفرق واشفترّ الشيء: تفرق واشفترّ العود: تكسر.

(٢) **الرهو والرهوة**: ما ارتفع من الأرض، شبه تل صغير.

(٣) بسطام هذا هو ابن مصقلة بن هبيرة الشيباني. ولأبيه مصقلة تاريخ سيىء يتناقض مع موقف ابنه =

وجيء برأس جبلة إلى الحجاج فحمله الحجاج على رمحين، ثم قال: يا أهل الشام أبشروا هذا أول الفتح . . .

وقد كان الأمر كذلك.

ونستطيع تصور الموقف بهذه الصورة: الثورة ثورة عارمة ذات أهداف محددة هي إلغاء السلطة القائمة التي طال عيثها بالشعب، وطال استغلالها له لمصلحة طبقة محددة من الأقرباء

= هذا ـ وربما أراد بموقفه هذا أن يكفّر عن موقف أبيه: ذلك أن أسرى كان قد أسرهم معقل بن قيس أحد قواد أمير المؤمنين علي (ع) فأقبل بهم حتى مر بهم على مصقلة وهو عامل علي على أردشير خُرّة وكانوا خمسمئة إنسان فاستجاروا بمصقلة ليفتديهم بمبلغ من المال ففاوض في ذلك معقلاً فاتفقا على أن يدفع مصقلة عنهم مليون ودفعهم إليه وقال عجل بالمال إلى أمير المؤمنين، فقال: أنا باعث الآن بصدر ثم أبعث بصدر آخر كذلك حتى لا يبقى منه شيء إن شاء الله تعالى وأقبل معقل بن قيس إلى أمير المؤمنين وأخبره بما كان منه في ذلك، فقال له: أحسنت وأصبت. وانتظر علي مصقلة أن يبعث بالمال ـ مع العلم بأن هذا المال هو مال الدولة يدخل خزينتها ـ وبلغ علياً أن مصقلة خلى سبيل الأسرى ولم يسألهم أن يعينوه في فكاك أنفسهم بشيء، فقال: ما أظن مصقلة إلا قد تحمل حمالة، ألا لا أراكم سترونه عن قريب مُلْبِداً، ثم إنه كتب إليه: أما بعد فإن من أعظم الخيانة خيانة الأمة وأعظم الغش على أهل المصر غش الإمام، وعندك من حق المسلمين خمسمئة ألف فابعث بها إليّ ساعة يأتيك رسولي وإلا فأقبل حين تنظر في كتابي فإني قد تقدمت إلى رسولي ألا يدعك أن تقيم ساعة واحدة بعد قدومه عليك إلا أن تبعث بالمال والسلام عليك.

فكانت النهاية فرار مصقلة إلى معاوية، فقال علي لما بلغه ذلك: فعل فعْل السيد وفر فرار العبد وخان خيانة الفاجر. وكان نعيم بن هبيرة أخو مصقلة من أخلص الناس لعلي فكتب إليه مصقلة من الشام مع رجل يدعى حلوان يدعوه إلى اللحاق به ويقول له: إن معاوية وعدك الإمارة ومناك الكرامة فأقبل إليّ ساعة يلقاك رسولي. فرد نعيم على أخيه مصقلة بهذه الأبيات رافضاً طلبه:

لا ترمين هداك الله معترضاً ... بالظن منك فما بالي وحلوانا
ذاك الحريص على ما نال من طمع ... وهو البعيد فلا يحزنك إذ خانا
ماذا أردت إلى إرساله سفهاً ... ترجو سقاط امرىء لم يلف وسنانا
عرّضته لعلي إنه أسد ... يمشي العِرِضْنة من آساد خفانا
قد كنت في منظر عن ذا ومستمع ... تحمي العراق وتدعى خير شيبانا
حتى تقحمت أمراً كنت تكرهه ... للراكبين له سراً وإعلانا
لو كنت أديت ما للقوم مصطبراً ... للحق أحييت أحيانا وموتانا
لكن لحقت بأهل الشام ملتمساً ... فضل ابن هند وذاك الرأي أشجانا
فاليوم تقرع سن الغُرم من ندم ... ماذا تقول وقد كان الذي كانا
أصبحت تبغضك الأحياء قاطبة ... لم يرفع الله بالبغضاء إنسانا

والأعوان، ثم جاءت تقذف بمجموع الشعب من الشيوخ والكهول والشبان في أتون حرب عبثية لا تبتغي من ورائها إلا جني المغانم، غير مبالية بالخطر الداهم الذي يحيق بتلك الجموع الشعبية التي لا تتكافأ قواها مع قوى العدو.

الثورة على السلطة الظالمة ثورة عارمة، ولكن هذه الثورة العارمة تنقصها القيادة المؤمنة بمبادىء الثورة المتحمسة لها، وحين تكون القيادة بهذه الصفة فإنها تبعث بإيمانها وحماستها العزم الصارم في نفوس الثوار، فتظل معنوياتهم قوية لا تهي ولا تلين.

ولكن قائد هذه الثورة انتهازي وصولي لا صلة له بمبادىء الثورة وأهدافها، ولا مطامح له إلا مطامحه الشخصية. فإذا ضُمنت له تخلى عن الثورة!.

وقد بان ذلك للثوار منذ الساعة التي ضمن له فيها وفد عبد الملك إشراكه بالسلطة. فبدلاً من أن يكون وجوده في قيادة الثورة مصدر دفع لها، أصبح مصدر تراجع!.

وأعتقد اعتقاداً جازماً بأن الثورة فقدت زخمها منذ بانت للثوار حقيقة عبد الرحمن، ولم يبق في هذا الزخم إلا مجموعة القادة الكبار ومن إليهم. أما الجمهور فقد تضعضع عزمه وبدأ ينهار هذا العزم من أول صدمة.

وقد رأينا ما فعل مقتل جبلة بن زحر بن قيس في النفوس، وقد كان أقل وصف له أنه هدّ الناس!.

والثورة التي يهد الناس فيها مقتل قائد من قوادها هي ثورة مضعضعة الجمهور، والعامل الأول في هذا التضعضع هو قيادتها الانتهازية الوصولية التي لو كانت قيادة صالحة لكان مجرد ظهورها للناس كافياً لتثبيت أقدامهم وشحذ عزائمهم، ولكن ظهور عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي للناس يذكرهم بمواقفه ومواقف أسرته الخيانية الغادرة فيزلزل الأقدام ويوهي العزائم[1].

وقد كان جزع الناس لمقتل جبلة بن زحر ثم تشجعهم بمجيء بسطام بن مصقلة دليلاً واضحاً على تلهفهم إلى القيادة الصحيحة التي كانوا يفتقدونها بوجود ابن الأشعث.

(١) موقف الأشعث بن قيس جد عبد الرحمن من أمير المؤمنين علي (ع) معروف. أما عبد الرحمن فهو الذي وشى بمسلم بن عقيل. وأما أبوه فهو الذي قاد الجماعة التي هاجمت مسلم بن عقيل في الدار التي أوى إليها وقبض عليه وأخذه إلى عبيد الله بن زياد فقتله. وأخوه قيس بن محمد شارك في قتل الحسين في كربلا.

وقد عرف أبو البختريّ الأمر على حقيقته لذلك خاطب الناس بما خاطبهم به لانهدادهم بمقتل جبلة وانبعاثهم بمجيء بسطام!.

لقد كانت جمهرة الثورة أمراً عجباً. فهذا عامر بن واثلة وعبد الرحمن بن أبي ليلى وسعيد بن جبير وأبو البختريّ الطائي وأمثالهم ممن قاتلوا بقيادة علي بن أبي طالب يرون أنفسهم اليوم يقاتلون بقيادة الرجل الذي كان جده من أسباب تخلخل خلافة علي بن أبي طالب، وكان أبوه وكان هو ممن وشى برسول الحسين بن علي بن أبي طالب، وممن تسببوا في مقتل ابن أخي علي بن أبي طالب، وكان أخوه قيس ممن قاتل الحسين بن علي بن أبي طالب في كربلا وشارك في مقتله.

وهؤلاء ثوار ثائرون على الظلم والاستبداد والفساد، وعلى حكم أذل الشعب واستباح حرماته وأمواله يرون أنفسهم مقودين بمن كان هو وأبوه وأعمامه وجده من قواعد هذا الحكم، وحين اطمأنوا إليه فلُوّح له بالمنصب لم يلبث أن عاد إلى أصوله يحاول بيع الثورة ومبادئها وأهدافها بذاك المنصب!.

عندما كان القتال قتال مناوشات ومبارزات، أظهرت هذه المبارزات حقيقة الانقسام القبلي، وتفرق العشيرة بين هذا الفريق وذاك الفريق. فمن ذلك أن رجلاً من أهل الشام تقدم يدعو إلى المبارزة فخرج إليه الحجاج بن جارية فحمل عليه فطعنه فأذراه وحمل أصحابه فاستنقذوه، فإذا هو رجل من خثعم يقال له: أبو الدرداء، وكان ابن جارية خثعميًا، فقال: إني لم أعرفه حتى وقع ولو عرفته ما بارزته، ما أحب أن يصاب أحد من قومي مثله.

وخرج عبد الرحمن بن عوف الرؤاسي فدعا إلى المبارزة فخرج إليه ابن عم له من أهل الشام فاضطربا بسيفيهما، فقال كل واحد منهما: أنا الغلام الكلابي. فقال كل واحد منهما لصاحبه: من أنت؟ فلما تساءلا تحاجزا.

وإذا كان الأقرباء قد اقتتلوا: قريب في هذا الجانب وقريب في ذاك الجانب، فإن الأصدقاء كانوا كذلك وكانوا في الوقت نفسه من قبيلة واحدة.

خرج عبد الله بن رزام الحارثي إلى كتيبة الحجاج فقال: اخرجوا إليّ رجلاً رجلاً، فأخرج إليه رجل فقتله، ثم فعل ذلك ثلاثة أيام يقتل كل يوم رجلاً، حتى إذا كان اليوم الرابع، أقبل، فقالوا قد جاء لا جاء الله به، فدعا إلى المبارزة، فقال الحجاج للجرّاح: أخرج إليه، فخرج إليه. فقال عبد الله بن رزام ـ وكان له صديقاً ـ ويحك يا جراح!. ما أخرجك إليّ؟ قال: قد ابتليت بك، قال: فهل لك في خير؟ قال: ما هو؟ قال: انهزم لك فترجع إلى

الحجاج وقد أحسنت عنده وحمدك، وأما أنا فإني أحتمل مقالة الناس في انهزامي عنك، حباً لسلامتك فإني لا أحب أن أقتل من قومي مثلك. قال: فافعل فحمل عليه فأخذ يستطرد له فاطرد له الحارثي ـ وكان يصاحب الحارثي غلام له ـ وحمل عليه الجراح حملة بجد لا يريد إلا قتله، فصاح به غلامه: إن الرجل جاد في قتلك، فعطف عليه فضربه بالعمود على رأسه فصرعه، وقال لغلامه: انضح على وجهه الماء واسقه، ففعل ذلك به. فقال: يا جراح بئس ما جزيتني، أردت بك العافية وأردت أن تزيّرني المنية، وقال: انطلق فقد تركتك للقرابة والعشيرة.

لا يستطيع المؤرخ إلا أن يعتقد أن طبيعة كل من الرجلين كانت مختلفة، وأن أخلاقهما كانت متباينة، فلو التقيا في موقف غير هذا الموقف وفي مناسبة غير هذه المناسبة لكان تصرف الرؤاسي نفس التصرف الأخلاقي الذي تصرفه وهو يبارز صديقه وقريبه الجراح، التصرف المنبعث من النبل وكرم الأخلاق والشهامة... ولكان تصرف الجراح نفس التصرف غير الأخلاقي المنبعث من اللؤم والغدر والنذالة...

ولكن المؤرخ مع ذلك لا يستطيع وهو يرى هذا البون الشاسع بين تصرف الرجلين ـ لا يستطيع إلا أن يلمح في أعماق نفسه طيف القيادتين المختلفتين اللتين تربى كل واحد منهما في إحداهما... والمنبعين المتناقضين اللذين صدر كل واحد منهما عن أحدهما...

وظل التقاتل مستمراً مئة يوم كما عدها أبو المخارق. يقول أبو المخارق واصفاً ما جرى: قاتلناهم مئة يوم سواء أعدها عداً: نزلنا دير الجماجم مع ابن محمد غداة الثلاثاء لليلة مضت من شهر ربيع الأول سنة ٨٣ وهزمنا يوم الأربعاء لأربع عشرة مضت من جمادى الآخرة عند امتداد الضحى ومتوع النهار، وما كنا قط أجرأ عليهم ولا هم أهون علينا منهم في ذلك اليوم.

خرجنا إليهم وخرجوا إلينا يوم الأربعاء لأربع عشرة مضت من جمادى الآخرة فقاتلناهم عامة النهار أحسن قتال قاتلناهموه قط ونحن آمنون من الهزيمة عالون للقوم إذ خرج سفيان بن الأبرد الكلبي من الخيل من قبل ميمنة أصحابه حتى دنا من الأبرد بن قرة التميمي وهو على ميسرة عبد الرحمن بن محمد فوالله ما قاتله كبير قتال حتى انهزم ابن الأبرد فأنكرها الناس منه وكان شجاعاً ولم يكن الفرار له بعادة، فظن الناس أنه قد كان أومن وصولح على أن ينهزم بالناس.

فلما فعل تقوضت الصفوف من نحوه وركب الناس وجوههم وأخذوا في كل وجه.

وصعد عبد الرحمن بن محمد المنبر فأخذ ينادي الناس: عباد الله إليّ أنا ابن محمد... فأتاه عبد الله بن رزام الحارثي فوقف تحت منبره، وجاء عبد الله بن ذؤاب السلمي في خيل له فوقف منه قريباً وثبت حتى دنا منه أهل الشام فأخذت نبلهم تحوزه. فقال: يا ابن رزام احمل، هذه الرجال والخيل، فحمل عليهم حتى أمعنوا وثبت لا يبرح منبره. ودخل أهل الشام العسكر فكبروا، فصعد إليه عبد الله بن يزيد بن المغفل الأزدي، وكانت مليكة ابنة أخيه امرأة عبد الرحمن، فقال: انزل فإني أخاف عليك أن تؤسر، ولعلك إن انصرفت أن تجمع لهم جمعاً يهلكهم الله بعد اليوم، فنزل وخلى أهل العراق العسكر وانهزموا لا يلوون على شيء (اهـ).

هذه الهزيمة المفجعة التي انبعثت فجأة من صميم ثبات وصمود، ومن أماني نصر مأمول، كانت بفعل فاعل متعمد هو سفيان بن الأبرد الكلبي الذي كان معروفاً بالشجاعة وعدم الفرار في الساعات العصيبة. ولكنه كان هنا لا جباناً ولا فرّاراً، بل خائناً مخامراً. لقد انهزم من غير كبير قتال بل من كبير خيانة!.

والناس الذين شهدوه يومذاك وشهدوا موقفه اتهموه بالخيانة.

لقد استطاع الحجاج النفاذ إلى صفوف الثوار بالرشوة بعد أن عجز عن النفاذ إلى صفوفهم بالحرب فاستمال سفيان بن الإبرد الكلبي، وكان كافياً أن ينهزم قائد من قواد الميمنة معروف بالشجاعة والثبات، أن ينهزم بخيله لتتقوض الميمنة ويتقوض معها الجيش كله....

ولا نعلم الثمن الذي قبضه سفيان هذا لقاء خيانته!.

على أننا يجب أن نتذكر الضعضعة المعنوية للجماهير المقاتلة بسبب فقدانها الثقة بالقيادة، وزاد في هذه الضعضعة بروز الانتهازية بروزاً كاملاً في نهج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث في قبوله المنصب مقابل تخليه عن الثورة، لذلك رأينا تلك الجماهير تنهار.

وكما قلنا من قبل فإن ظهور القائد المخلص لجماهيره يبعث فيها الحماسة ويردها إلى الثبات، ولكن ظهور ابن الأشعث للجماهير كان يذكرها بماضيه وماضي أسلافه القذر وبانتهازيته الوضيعة لذلك رأينا تلك الجماهير لا تستجيب له حين راح يناديها، ولم يقبل عليه منها سوى قائدين لم يغنيا شيئاً.

كميل بن زياد

ذهب الحجاج بعد النصر الذي فاجأه إلى الكوفة ووضع نصاً جديداً للبيعة كان قد سبقه

إلى مثله القائد الأموي الآخر فاتح مدينة الرسول مسلم بن عقبة حين أصرّ على أن يبايعه كل واحد من أهلها على أنه عبد من عبيد يزيد بن معاوية، ومن رفض هذه البيعة قتل.

النص الذي وضعه الحجاج هو أن يشهد كل واحد على نفسه أنه كفر، ومن رفض هذه البيعة: قتل. ويروي الطبري[1] وهو يتحدث عن الحجاج - يروي ما جرى بهذا النص:

«وكان لا يبايعه أحد إلا قال له: أتشهد أنك قد كفرت، فإذا قال: نعم، بايعه وإلا قتله، فجاء إليه رجل من خثعم قد كان معتزلاً للناس جميعاً من وراء الفرات، فسأله عن حاله، فقال: ما زلت معتزلاً وراء هذه النطفة منتظراً أمر الناس حتى ظهرت فأتيتك لأبايعك مع الناس. قال: أمتربص أنت؟ أتشهد أنك كافر؟ قال: بئس الرجل أنا إن كنت عبدت الله ثمانين سنة ثم أشهد على نفسي بالكفر! . قال: إذاً أقتلك! . قال: وإن قتلتني فوالله ما بقي من عمري إلا القليل، وإني لأنتظر الموت صباح مساء. قال: اضربوا عنقه، فضربت عنقه! .

ودعا بكميل بن زياد النخعي فقال له: أنت المقتص من عثمان أمير المؤمنين؟ قد كنت أحب أن أجد عليك سبيلاً. . فقال: والله ما أدري على أينا أنت أشد غضباً؟ عليه، حين أقاد من نفسه؟ أم عليّ حين عفوت عنه؟ ثم قال: أيها الرجل من ثقيف: لا تصرف عليّ أنيابك ولا تهدّم تهدّم الكثيب ولا تكشر كشران الذئب، والله ما بقي من عمري إلا ظمء الحمار فإنه يشرب غدوة ويموت عشية ويشرب عشية ويموت غدوة، اقض ما أنت قاض فإن الموعد الله وبعد القتل الحساب.

قال الحجاج: فإن الحجة عليك.

قال: ذلك إن كان القضاء إليك.

قال: بلى كنت فيمن قتل عثمان وخلعت أمير المؤمنين، اقتلوه. فقدم فقتل.

وفي خلال هذه المذابح والفواجع حدثت هذه الأطروفة المضحكة:

فبعد كميل بن زياد قُدّم رجل يبدو أن الحجاج كان يريد قتله فحاول إغراءه بعدم الاعتراف بالكفر، فقال له: إني أرى رجلاً ما أظنه يشهد على نفسه بالكفر.

فقال الرجل: أخادعي عن نفسي؟ أنا أكفر أهل الأرض وأكفر من فرعون ذي الأوتاد.

(١) ج٨ ص٢٥.

محاولة تجديد الثورة

بعد الهزيمة تفرق القادة محاولين التجمع من جديد، فذهب محمد بن سعد بن أبي وقاص إلى (المدائن) حيث اجتمع إليه كثير من الناس، وخرج عبيد الله بن عبد الرحمن القرشي إلى البصرة فاستولى عليها، وقصدها في الوقت نفسه عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فتلقاه الناس فيها وانضم إليه عبيد اللّه.

أما الحجاج فعندما بلغته أخبار هذه التجمعات توجه أولاً إلى المدائن، فعلم محمد بن سعد أن لا قبل له بالحجاج فتوجه إلى عبد الرحمن بن محمد منضماً إليه. وأتاه أهل الكوفة وتجمعت الفلول من كل مكان، وأدرك الجميع أن فرارهم من المعركة كان ضعفاً لا مبرر له ولام بعضهم بعضاً على ما جرى وقرروا الصمود من جديد.

وكان أبرز القادة شجاعة وإقداماً بسطام بن مصقلة بن هبيرة فبايعه أكثر الناس على الموت وجاءهم خالد بن جرير بن عبد الله القسري من خراسان مع جماعة، وظلت القيادة العامة لعبد الرحمن بن محمد الذي كان من تدابيره أن بثق الماء من جانب فجعل القتال من وجه واحد.

وتابع الحجاج هذا التجمع الجديد وطارده فاشتعل القتال واحتدمت المعركة، وكانت الحرب من العنف والثوار من الصمود بحيث استمر القتال خمس عشرة ليلة قتل فيه فيمن قتل قائد من أبرز قواد الحجاج هو زياد بن غنيم القيني، ويقول راوي الأحداث أبو يزيد السكسكي أن مقتله هدّ الحجاج.

ولو أن هذا الثبات الذي ثبته الثوار في هذا الموقف ثبتوه يوم دير الجماجم لكان للثورة مصير غير المصير الذي صارت إليه، على أنهم كانوا هنا أقل عدداً، كانوا فلولاً وبقايا، وثباتهم خمس عشرة ليلة في قتال متواصل لم يحل دون هزيمتهم في النهاية.

وعندما بدت لأبي البختريّ ولعبد الرحمن بن أبي ليلى ملامح الهزيمة قالا: إن الفرار كل ساعة بنا لقبيح فاستقتلا فقتلا.

أما بسطام بن مصقلة الشيباني فقد أبى هو الآخر الفرار، وكان حوله أربعة آلاف من أهل الحفاظ من الكوفيين والبصريين فكسروا جفون السيوف وقال لهم بسطام: لو كنا إذا فررنا بأنفسنا من الموت نجونا منه، فررنا، ولكننا قد علمنا أنه نازل بنا عما قليل، فأين المحيد عما لا بد منه. يا قوم إنكم محقون فقاتلوا على الحق، والله لو لم تكونوا على الحق لكان موت في عز خيراً من حياة في ذل.

فقاتل هو وأصحابه قتالاً شديداً كشفوا فيه جيش الحجاج مراراً حتى قال الحجاج: عليّ بالرماة، لا يقاتلهم غيرهم، فلما جاءتهم الرماة وأحاط بهم الناس من كل جانب قتلوا إلا قليلاً. وأسر بكير بن أبي ربيعة الضبي فأتي به الحجاج فقتله.

إذا كان بسطام بن مصقلة بن هبيرة قد وقف هو والأربعة الآلاف هذا الموقف البطولي فاستشهدوا ولقوا هذا المصير الدامي، فلأن أباه مصقلة وأمثاله قد خذلوا الحق وحامي الحق ولحقوا بالباطل وحامي الباطل، فأورثوا بنيهم ما أورثوهم من إذلال الحكام لهم واستئثارهم بحقهم حتى لم يجدوا ملاذاً إلا سيوفهم يثورون بها على الطغاة الظالمين والعتاة المستبدين، وإلا الاستشهاد ينجيهم من حياة الهوان.

إن المسؤول عن مصير بسطام بن مصقلة بن هبيرة هو أبوه مصقلة...

أما عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فقد مضى في فل من المنهزمين نحو سجستان، فأرسل الحجاج لمطاردته قوة بقيادة عمارة بن تميم اللخمي ومعه ابنه محمد بن الحجاج فأدركه بالسوس فتقاتلا واستطاع عبد الرحمن الإفلات حتى بلغ سابور وعمارة يطارده، وفي سابور اجتمع الأكراد إلى عبد الرحمن فتقوى بهم وصمد لعمارة وقاتله قتالاً شديداً فجرح عمارة وانهزم، فتقدم عبد الرحمن حتى وصل كرمان وكان يحكمها والٍ كان عبد الرحمن قد ولاه، هو عمرو بن لقيط العبدي، فأحسن عمرو استقباله وهيأ له نزلاً فنزل.

ولكي ندرك ما كان الناس يتناقلونه عن عبد الرحمن ورأيهم فيه نذكر هنا هذا الحوار بين شيخ من عبد القيس وبين عبد الرحمن:

قال الشيخ: لقد بلغنا عنك يا ابن الأشعث أن كنت جباناً.

أجاب عبد الرحمن: والله ما جبنت ولقد دلفت الرجال بالرجال ولففت الخيل بالخيل ولقد قاتلت فارساً وقاتلت راجلاً وما انهزمت ولا تركت العرصة للقوم في موطن حتى لا أجد مقاتلاً ولا أرى معي مقاتلاً.

وما قاله عبد الرحمن عن نفسه صحيح فهو لم يكن جباناً، ولم يكن الجبن علة هزائمه. والناس دائماً على المغلوب، فما دام عبد الرحمن قد غلب فالناس يلصقون به العيوب، ويعللون فشله بما فيه من عيوب.

وصورة أخرى ترينا الحالة النفسية التي آل إليها الكوفيون المنهزمون المشردون الآن في كل مكان.

ففي خلال مطاردة جنود الحجاج لعبد الرحمن ووصولهم إلى مفازة كرمان وجد أحد

رجاله كتابة كتبها بعض أهل الكوفة على أحد القصور، وهي أبيات من قصيدة لأبي جلدة اليشكري:

أيا لهفاً ويا حزناً جميعاً	ويا حر الفؤاد لما لقينا
تركنا الدين والدنيا جميعا	وأسلمنا الحلائل والبنينا
فما كنا أناساً أهل دين	فنصبر في البلاء إذا ابتلينا
وما كنا أناساً أهل دنيا	فنمنعها ولو لم نرج دينا
تركنا دورنا لطغام عك	وأنباط القرى والأشعرينا

وبالرغم من أن هذه الأبيات ليست من نظم الكوفي الذي كتبها على القصر، فإنها بمجرد تبنيه لها واستشهاده بها تعبّر لا عن لسان حاله وحده، بل عن لسان حال الثائرين جميعاً ولا سيما منهم الكوفيون، وتعتبر تصويراً للحالة النفسية التي يعيشونها في تلك الظروف الرهيبة!.

بل هي في الواقع لسان حال العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه.

هذا العالم الإسلامي، والعراقي منه خاصة، والكوفي على الأخص ـ هذا العالم الذي آمن برسالة محمد ﷺ، واتخذ الإسلام ديناً.

رسالة محمد التي عبر عنها القرآن بآيته: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾.

هذا العالم الذي أصبح في قبضة طغاة سفاحين، يستحلون كل محرم، ويستبيحون الدماء والكرامات والأموال، ولا يردعهم رادع من دين أو ضمير أو شرف.

هذا العالم الذي أصبح أئمته ووارثوه لا المستضعفون بل الجبابرة. هذا العالم الذي يقف أحد عتاته ليطلب إلى الورعين الأتقياء أن يشهدوا على أنفسهم بالكفر، فإذا أبوا سفك دماءهم.

هذا العالم الذي حمل بنوه السلاح لينقذوا أنفسهم من الذل والفقر والاستعباد فقهروا وتشردوا.

إن هذه الأبيات هي لسان حالهم...

ترك عبد الرحمن كرمان وفوّز في مفازتها[1] حتى وصل (زرنج) في سجستان، وكان

(١) هذه المفازة تمتد فتقطع هضبة إيران العالية من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، ويقدر =

أيام سلطانه قد ولّى عليها عبد الله بن عامر البعّار، فأغلق هذا دونه باب المدينة ومنعه من دخولها فأقام عبد الرحمن عليها أياماً رجاء افتتاحها ودخولها ولكنها ظلت مغلقة في وجهه فتركها إلى (بُسْت)، وكان قد ولّى عليها عياض بن هميان السدوسي فاستقبله وأنزله، وانتظر حتى إذا غفل أصحاب عبد الرحمن وتفرقوا عنه وثب عليه وأوثقه ناوياً إرساله إلى الحجاج.

ثلاثة رجال اختارهم عبد الرحمن بن الأشعث أيام تسلطه ولاة ليشاركوه الحكم.

اختارهم من بين رجاله ووثق بهم وأحسن إليهم وصاروا بفضله حكاماً يأمرون وينهون، ويسمع الناس لهم ويطيعون.

فلما أدبرت عنه الدنيا وأراد اللجوء إليهم مستطرقاً أحسن الوالي الأول استقباله وذكر أياديه عليه.

أما الثاني فقد أغلق في وجهه باب المدينة ورفض استقباله.

وأما الثالث فقد خدعه، فرحب به حتى إذا أمكنته منه الفرصة قبض عليه وأحكم وثاقه وأراد التقرب به إلى الحجاج!.

هؤلاء هم الناس في كل مكان وزمان. وقد شاهدنا بأنفسنا في عصرنا هذا من لم يقلوا غدراً وعقوقاً وتنكراً للجميل عن عبد الله البعّار وعياض، وقد عانينا منهم ما عانينا، ونحن

= طولها بنحو ٨٠٠ ميل، وعرضها يختلف باختلاف بقاعها، وحين تفصل بين سجستان وكرمان لا يتجاوز عرضها المئة ميل. وقد عرفها البلدانيون العرب في القرون الوسطى باسم (المفازة)، أما اليوم فتعرف بـ(دشت لوط) أي مفازة لوط، ويعرف ما فيها من مستنقعات ملحية وسباخ بـ(دشت كوير) ـ بوزن صغير ـ ويطلق أحياناً اسم كوير على المفازة بأجمعها أيضاً. أما اشتقاق اسم لوط وكوير فغير معروف.

وما كتبه ابن حوقل والمقدسي عن المفازة إنما كان عن خبرة ومشاهدة إذ أن كليهما اجتاز قفارها غير مرة. وقال عنها ابن حوقل بأنه ليس فيها قرية ولا مدينة سوى في ثلاثة مواضع. وقال المقدسي الذي أمضى فيها سبعين يوماً مخترقاً إياها من أقصاها إلى أقصاها: إن فيها رمالاً قليلة ونخيلاً وزروعاً في أضعاف كثير من وديانها الصغيرة.

وبعد المقدسي بنحو من نصف قرن أي في سنة ٤٤٤هـ (١٠٥٢م) قطع ناصر خسرو الجزء الشمالي من المفازة في عودته من حجه إلى مكة، ولم يطلق عليها اسماً خاصاً بها، بل أشار إليها فقط بلفظ (بيابان)، أي: أرض لا ماء فيها.

وتتوسط القسم الأعلى الواسع من المفازة عند منتصف الطريق بين أصفهان وطبس في قوهستان واحة يقال لها اليوم (جندك) أو (بيابانك) وهي التي كان يعرفها العرب في القرون الوسطى بالجرمق، وكانت تكتب بالفارسية بصورة (گرمة).

نعرف أي مرارة كان يكابدها عبد الرحمن وهو يقابل بما قوبل به في زرنج وبُسْت!.. قتل الإنسان ما أكفره...

وقد بلغ مسامع (رتبيل) المصير الذي صار إليه عبد الرحمن، فأسرع لإنقاذه وأحاط بجنوده ببُست وأرسل إلى عياض: ولله لئن آذيته بما يُقذي عينه أو ضررته ببعض المضرة أو رزأته حبلاً من شعر لا أبرح العرصة حتى أستنزلك فأقتلك وجميع من معك ثم أسبي ذراريكم وأقسم بين الجند أموالكم.

أمام هذا التهديد المقرون بالقوة وإمكان سرعة التنفيذ استسلم عياض فأرسل إلى رتبيل يطلب الأمان على نفسه وأمواله ويتعهد بتسليم عبد الرحمن إليه سالماً مع أمواله.

فآمنه رتبيل، فخلى سبيل ابن الأشعث، فلما وصل هذا إلى رتبيل قال له: إن هذا كان عاملي على هذه المدينة، فغدرني فائذن لي في قتله، فقال رتبيل قد آمنته وأكره أن أغدر به. على أنه أذن له في تعنيفه والتصغير به...

وعني ربتيل بابن الأشعث فكرمه وعظمه، ولم يكن ابن الأشعث وحده، بل كان معه من بقايا المنهزمين عدد وافر.

ولما استقر ابن الأشعب تواصل من تشرد من الرؤساء والجماعات ومن انضم إليهم من الناقمين فتشكل من مجموع ذلك ما لا يقل عن ستين ألف ثائر.

فاتصلوا بابن الأشعث وأخبروه بتجمعهم وعددهم وطلبوا إليه القدوم إليهم على أمل أن يسيروا إلى خراسان لعلهم يقنعون من بها من الجند الكثير بالانضمام إليهم. فضلاً عن أنها بلاد واسعة فيها الرجال والحصون.

وكان المتقدم في هؤلاء الستين الألف والمصلي بهم عبد الرحمن بن العباس الهاشمي. فاستجاب لهم ابن الأشعث ووفد عليهم بمن معه من الرجال، فأول ما فعلوه أن حصروا عبد الله بن عامر البعاج والي (زرنج) الذي رفض استقبال ابن الأشعث وأغلق دونه باب المدينة، فاستنزلوه، وضربوه وعذبوه وسجنوه.

وتناقشوا في أمر السير إلى خراسان، فكان من رأي ابن الأشعث أن واليها يزيد بن المهلب شاب شجاع صارم لن يتخلى عما في يده بسهولة.

وكان من رأيهم أن الخراسانيين منهم، وأنهم لو رأوهم لكان من يتبعهم منهم أكثر ممن يقاتلهم. ثم إنها أرض طويلة عريضة تتسع للجميع ويمكن الاستقلال برقعة منها انتظاراً لما تأتي به المقادير، فلعل الموت يسرع إلى الحجاج أو إلى عبد الملك. أو يرون من رأيهم.

فاقتنع ابن الأشعث وساروا جميعاً مخلفين سجستان متجهين إلى خراسان، فلما بلغوا هرات، كانت المقادير التي انتظروا أن تأتيهم بالخير، قد أعدت لهم الشر!.

فإن أحد كبرائهم عبيد الله بن عبد الرحمن بن سمرة القرشي انفصل عنهم بجماعته التي لا تقل عن ألفي رجل، وأخذ في طريق غير طريقهم...

ولما كانت أحداث الماضي قد روّعت ابن الأشعث بما فيه الكفاية ولا تزال ذكرياتها تروعه، فقد رأى في انفصال هذا القرشي نذير ترويع جديد، ولما كانت عزيمته لم تعد تتحمل ترويعاً جديداً لذلك وقف في الجماعة خطيباً قائلاً لهم:

إني قد شهدتكم في هذه المواطن وليس فيها مشهد إلا أصبر لكم فيه نفسي حتى لا يبقى منكم فيه أحد، فلما رأيت أنكم لا تقاتلون ولا تصبرون أتيت ملجأ ومأمناً فكنت فيه، فجاءتني كتبكم بأن أقبل إلينا فإنا قد اجتمعنا وأمرنا واحد لعلنا نقاتل عدونا، فأتيتكم فرأيت أن أمضي إلى خراسان وزعمتم أنكم مجتمعون لي وأنكم لن تتفرّقوا عني.

ثم هذا عبيد الله بن عبد الرحمن قد صنع ما قد رأيتم، فحسبي منكم يومي هذا، فاصنعوا ما بدا لكم. أما أنا فمنصرف إلى صاحبي الذي أتيتكم من قبله، فمن أحب منكم أن يتبعني فليتبعني، ومن كره ذلك فليذهب حيث أحب في عياذ من الله.

ولنا هنا أن نقف فنتساءل عن تعليل ما جرى، لماذا طالب هذا الجمع الذي تألف من الفلول المجتمعة من بقايا ذلك الحشد الكبير التي احتشد في دير الجماجم، وممن انضم إليهم في سجستان وغيرها ممن يرى رأيهم، لماذا طالب هذا التحشد الجديد بقيادة ابن الأشعث بعد أن كان قد تخلص من هذه القيادة بلجوء ابن الأشعث إلى رتبيل، وبعد أن لم يكن لابن الأشعث يد في تحشده، على عكس ما كان في الماضي من كون ابن الأشعث مفروضاً عليهم، لأنه قائد الجيش، والثورة في الأصل هي ثورة الجيش، فلا مناص من أن يقودها قائد الجيش... مع أن الجميع في أعماق نفوسهم كانوا كارهين لهذه القيادة لتناقض أهداف ابن الأشعث مع أهدافهم.

أما اليوم فقد تجمعوا وليس لابن الأشعث أثر في تجمعهم، وليس هو الذي ندبهم لهذا التجمع، وهو الآن بعيد عنهم قار في ملجئه مطمئن لمن احتمى به واستقر عنده.

لماذا إذاً دعوه ليتولى القيادة؟..

الجواب على ذلك: هو أنه لا بد لهم من قائد وليس فيهم من يجمعون على قيادته، ولا من هو بين قيادييهم بارز عن غيره بروزاً بيناً يؤهله لتسليم القياديين الآخرين له.

لذلك كان الحل بأن يعودوا للقيادة الأولى بعد أن اعتاد الناس عليها، هذا فضلاً عما كان لديه من الرجال الذين لم يفارقوه وكانوا سينضمون إليه فيتقوى الثائرون بهم.

أما انفصال عبيد الله بن عبد الرحمن القرشي عنهم وسيره في غير طريقهم، فيبدو أنه ناجم عن عدم اقتناعه بصلاح ابن الأشعث لقيادة الحركة الجديدة بعد تجارب الماضي، ثم إنه يبدو أنه كان من الأصل آنفاً ـ وهو القرشي الأصيل ـ من السير بقيادة غير قرشية، وأنه سلم في الماضي بذلك أملاً بوحدة الصف، أما اليوم فلم يعد يجد مبرراً لهذا التسليم بعد أن تبدلت الظروف وتغيرت الأحوال... ولعله كان يائساً من النجاح في هذه المحاولة الجديدة، ولم تعد أعصابه تتحمل هزيمة بعد هزيمة، فآثر السلامة...

ونفذ ابن الأشعث قوله فانفصل عنهم وتبعه جماعة، وتفرقت جماعة. أما جمهور الثائرين فقد بقوا متكتلين واختاروا لقيادتهم عبد الرحمن بن العباس الهاشمي، وواصل ابن الأشعث سيره إلى رتبيل، وواصلوا هم تنفيذ الخطة التي كانوا اعتمدوها في السير إلى خراسان.

ويبدو من قول الطبري (ج٨ ص٢٩) أن عددهم قد نزل من الستين الألف إلى العشرين الألف، ووصلوا إلى هرات واستقروا فيها.

فأرسل يزيد بن المهلب إلى عبد الرحمن بن العباس الهاشمي: قد كان لك في البلاد متسع ومن هو أكلّ مني حداً وأهون شوكة، فارتحل إلى بلد ليس لي فيه سلطان، فإني أكره قتالك، وإن أحببت أن أمدك بمال لسفرك أعنتك به.

فأرسل إليه عبد الرحمن: ما نزلنا هذه البلاد لمحاربة ولا لمقام، ولكنا أردنا أن نريح ثم نشخص إن شاء الله، وليست بنا حاجة إلى ما عرضت.

فانصرف رسول يزيد إليه.

ولكن الهاشمي بدأ يتصرف تصرف المالكين، وراح يجبي الخراج وبلغ يزيد فقال: من أراد يريح ثم يجتاز لم يجب الخراج.

ولم يكتف بالكلام بل أرسل حملة عسكرية ثم سار بنفسه حتى أتى هرات، وأرسل إلى الهاشمي: قد أرحتَ وأسمنتَ وجبيتَ فلك ما جبيت وإن شئت زدناك فاخرج فوالله ما أحب أن أقاتلك.

ولكن الهاشمي لم يستجب فكان لا بد من القتال. ونشب القتال. ويقول الطبري:

(ج٨ ص٣٠): «وتهايجوا فلم يكن بينهم كبير قتال حتى تفرق الناس عن عبد الرحمن الهاشمي، وصبر وصبرت معه طائفة من أهل الحفاظ».

ووقع في الأسر جماعة كان بينهم محمد بن سعد بن أبي وقاص فأرسلهم يزيد بن المهلب إلى الحجاج فكان من أمر محمد بن سعد معه ما يلي:

الحجاج: إيهاً يا ظل الشيطان، أعظم الناس تيهاً وكبراً، تأبى بيعة يزيد بن معاوية وتتشبّه بحسين وابن عمر، ثم صرت مؤذناً لابن كناز عبد بني نصر (يعني عمر بن أبي الصلت).

ثم راح الحجاج يضرب بعود في يده رأس محمد بن سعد حتى أدماه.

فقال له محمد: أيها الرجل ملكت فأسجح.

ثم قال له: إن رأيت أن تكتب إلى أمير المؤمنين فإن جاءك عفو كنتَ شريكاً في ذلك محموداً وإن جاءك غير ذلك كنتَ قد أعذرتَ.

فأطرق الحجاج ملياً، ثم قال: إضرب عنقه، فضُربت عنقه...

هكذا انتهى محمد بن سعد بن أبي وقاص.

وإننا لنعود قليلاً إلى الوراء، إلى حقبة من التاريخ غير بعيدة عن هذه الحقبة، فنرى سعد بن أبي وقاص يرفض أن يبايع علي بن أبي طالب وأن يسير معه لمحاربة الطغيان!.

وبفضل خذلان سعد وغير سعد انتصر الطغيان، وامتد انتصاره فكان من ضحاياه ابن سعد. وليت سعد بن أبي وقاص كان يمكن أن يظل حياً ليرى بعينيه ذل ابنه محمد ثم ضرب عنقه وإراقة دمه، ليعرف هو وأمثاله ماذا جنوا بخذلانهم للحق، ماذا جنوا على الشعب وفيه ذراريهم.

وكما كان مصقلة بن هبيرة مسؤولاً عما أصاب ابنه بسطام، فكذلك كان سعد بن أبي وقاص مسؤولاً عما أصاب ابنه محمد.

أعشى همدان

هو عبد الرحمن بن عبد الله، وعرف بأعشى همدان. نشأ في الكوفة ولكن حياته كانت حياة تنقل واضطراب. وكان شاعراً مجيداً صاحب مواقف والتزام، رثى التوابين الذين خرجوا بقيادة سليمان بن صرد للطلب بثأر الحسين (ع) فقال فيهم من قصيدة:

فيا خير جيش للعراق وأهله سقيتم روايا كل اسحم ساكب

فإن تقتلوا فالقتل أكرم ميتة ... وكل فتى يوماً لأحدى النوائب

كان أعشى همدان شاعر الثورة، ثم كان بين الأسرى الذين سيقوا إلى الحجاج، فقال له الحجاج: الحمد لله الذي أمكن منك ألست القائل لابن الأشعث وفرسك يهمج بك أمامه: (لما سمونا للكفور الفتان)، وهي الأبيات التي تقدم ذكرها.

ثم ألست القائل:

يا ابن الأشج قريع كنـ ... ـدة لا أبالي فيك عتبا

أنت الرئيس بن الرئيس ... وأنت أعلى الناس كعبا

نبئت حجاج بن يوسف ... خرّ من زلق فتبا

فانهض فديت لعله ... يجلو بك الرحمن كربا

وابعث عطية في الجنـ ... ـود يكبهن عليه كبا

كلا يا عدو الله، بل عبد الرحمن بن الأشعث هو الذي خر من زلق فتب، وحار وانكب وما لقي ما أحب.

فقال الأعشي: بل أنا القائل:

أبى الله إلا أن يتمم نوره ... ويطفىء نور الفاسقين فيخمدا

ويظهر أهل الحق في كل موطن ... ويُعدل وقع السيف من كان أصيدا

وينزل ذلاً بالعراق وأهله ... لما نقضوا العهد الوثيق المؤكدا

وما أحدثوا من بدعة وعظيمة ... من القول لم تصعد إلى الله مصعدا

وما نكثوا من بيعة بعد بيعة ... إذا ضمنوها اليوم خاسوا بها غدا

وجبناً حشاه ربهم في قلوبهم ... فما يقربون الناس إلا تهددا

فلا صدق في قول ولا صبر عندهم ... ولكن فخراً فيهم وتزيدا

فكيف رأيت الله فرق جمعهم ... ومزقهم عُرض البلاد وشردا

فقتلاهم قتلى ضلال وفتنة ... وحيهم أمسى ذليلاً مطرداً

ولما زحفنا لابن يوسف غدوة ... وأبرق منا العارضان وأرعدا

قطعنا إليه الخندقين وإنما ... قطعنا وأفضينا إلى الموت مرصدا

فكافحنا الحجاج دون صفوفنا ... كفاحاً ولم يضرب لذلك موعدا

بصف كأن البرق في حجراته ... إذا ما تجلى بيضه وتوقدا
دلفنا إليه في صفوف كأنها ... جبال شرورى لو تُعانُ فتنهُدا
فما لبث الحجاج أن سل سيفه ... علينا فولى جمعنا وتبددا
وما زاحف الحجاج إلا رأيته ... معاناً ملقى للفتوح معودا
وإن ابن عباس لفي مرجحنة ... نشبهها قطعاً من الليل أسودا
فما شرعوا رمحاً ولا جردوا له ... ألا ربما لاقى الجبان فجردا
وكرت علينا خيل سفيان كرة ... بفرسانها والسمهري مقصدا
كهول ومرد من قضاعة حوله ... مساعير أبطال إذا النكس عردا
إذا قال شدوا شدة حملوا معاً ... فأنهل خرصان الرماح وأوردا
جنود أمير المؤمنين وخيله ... وسلطانه أمسى عزيزاً مؤيدا
فيهنى أمير المؤمنين ظهوره ... على أمة كانوا بغاة وحسدا
نزوا يشتكون البغي من أمرائهم ... وكانوا هم أبغى البغاة وأعندا
كذاك يضل الله من كان قلبه ... مريضاً ومن والى النفاق وألحدا
فقد تركوا الأهلين والمال خلفهم ... وبيضاً عليهن الجلابيب خردا
أنكثاً وعصياناً وغدراً وذلة ... أهان الإله من أهان وأبعدا

فقال أهل الشام: أحسَنَ، أصلح الله الأمير.

فقال الحجاج: لا لم يحسن، إنكم لا تدرون ما أراد بها.

ثم قال: يا عدو الله إنّا لسنا نحمدك على هذا القول، إنما قلت تأسف أن لا يكون ظهر وظفر وتحريضاً لأصحابك علينا. وليس عن هذا سألناك. أنفذ إلينا قولك: (بين الأشج وبين قيس باذخ)، فأنفذها، فلما قال: (بخ بخ لوالده وللمولود). قال الحجاج: لا والله، لا تبخبخ بعدها لأحد أبداً فقدمه فقتل.

كان بين الأسرى الذين أرسلهم يزيد بن المهلب إلى الحجاج من يسميه الطبري (فيروز حصين) فقال الحجاج لحاجبه: إذا دعوتك بسيدهم فائتني بفيروز.

ثم قال لحاجبه: جئني بسيدهم.

فقال لفيروز: قم.

فقال له الحجاج: أبا عثمان ما أخرجك مع هؤلاء، فوالله ما لحمك من لحومهم ولا دمك من دمائهم.

قال: فتنة عمت الناس فكنا فيها.

قال: اكتب لي أموالك.

قال: ثم ماذا؟

قال: أكتبها أول.

قال: ثم أنا آمن على دمي؟

قال: اكتبها ثم انظر

قال: اكتب يا غلام: ألف ألف، ألفي ألف... وذكر مالاً كثيراً.

قال: أين هذه الأموال؟

قال: عندي

قال: فأدها

قال: وأنا آمن على دمي؟

قال: والله لتؤدينها ثم لأقتلنك.

قال: والله لا تجمع مالي ودمي.

فأمر الحجاج به فعذب، فكان مما عذب به أن كان يُشد عليه القصب الفارسي المشقوق ثم يجرّ عليه حتى يخرّق جسده، ثم ينضح عليه الخل والملح.

فلما أحسّ بالموت قال لصاحب العذاب: إن الناس لا يشكون بأني قد قتلت، ولي ودائع أموال عند الناس لا تؤدى لكم أبداً، فأظهروني للناس ليعلموا أني حي فيؤدوا المال.

فأُعلم الحجاج، فقال: أظهروه.

فأُخرج إلى باب المدينة، فصاح في الناس: من عرفني فقد عرفني، ومن أنكرني فأنا فيروز حصين، إن لي عند أقوام مالاً، فمن كان لي عنده شيء فهو له، وهو منه في حل، فلا يؤدين منه أحد درهماً، ليبلغ الشاهد الغائب...

فأمر به الحجاج فقتل.

نهاية ابن الأشعث

فارق ابن الأشعث الجماعة في هزات لاجئاً إلى رتبيل مع فريق من رجاله، ولكن

واحداً من هؤلاء الرجال اسمه علقمة بن عمر كان أبعد نظراً من ابن الأشعث فرفض مرافقته إلى رتبيل قائلاً له: إني أتخوف عليك وعلى من معك، والله لكأني بكتاب الحجاج قد جاء فوقع إلى رتبيل يُرغّبه ويُرهبه، فإذا هو قد بعث بك سلماً أو قتلكم، ولكن ها هنا خمسمئة قد تبايعنا على أن ندخل مدينة فنتحصن فيها ونقاتل حتى نُعطى أماناً أو نموت كراماً.

فقال له ابن الأشعث: أما لو دخلت معي لآسيتك وأكرمتك.

فأبى علقمة. ودخل ابن الأشعث إلى رتبيل، وخرج هؤلاء الخمسمئة حتى جاءهم مهاجماً عُمارة بن تميم اللخمي فحاصرهم، فقاتلوه وامتنعوا منه حتى آمنهم فخرجوا إليه فوفى لهم.

أما الحجاج فقد تتابعت كتبه إلى رتبيل في ابن الأشعث يتوعده إن لم يرسله إليه ويهدده بأن يغزوه بألف ألف مقاتل.

وكان عند رتبيل عربي اسمه عبيد بن أبي سبيع يحسن اغتنام الفرص الانتهازية فتوسط بين رتبيل وبين الحجاج قائلاً لرتبيل: أنا آخذ لك عهداً من الحجاج ليكفنّ الخراج عن أرضك سبع سنين على أن تدفع إليه عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث.

وهكذا بدأت المساومة على رأس ابن الأشعث، مساومة عمادها المال، وهكذا رخص هذا الرجل إلى الحد الذي وضعت حياته في المزاد.

لو كان رجل مبدأ ورجل قضية، بل لو كان رجل كرامة لأنف من الفرار بعد الفرار، وأنف من اللجوء إلى الأجنبي، والاحتماء بالغريب!..

ولكنه: عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث. ومن كانت هذه أصوله، ومن كان الأشعث بن قيس منبته، لا يمكن أن يكون رجل مبدأ ورجل قضية ورجل كرامة وشرف.

وقد واجهه أحد أتباعه بحقيقته، فإنه وهو هارب إلى بلاد رتبيل تمثل بهذين البيتين:

يطرده الخوف فهو تائه ... كذاك من يكره حَرّ الجلاد

منخرق الخفين يشكو الوجا ... تنكبه أطراف مُرو حداد

قد كان في الموت له راحة ... والموت حتم في رقاب العباد

فقال له تابعه: هلاّ ثبت في موطن من المواطن فنموت بين يديك، فكان خيراً لك مما صرت إليه.

لم يمت ميتة الكرامة في ساحة الحرب، بل آثر العيش الذليل، ثم مات الميتة التي تجدر بحفيد الأشعث من قيس...

لقد ساوم عبيد بن أبي سبيع، رتبيل على ابن الأشعث وأغراه بالمال، والانتهازي لا يساوم مجاناً، بل كان ينتظر نصيبه من هنا ومن هناك.

قال رتبيل لعبيد: إن فعلتَ فإن لك عندي ما سألت.

فكتب عبيد إلى الحجاج يخبره بأن رتبيل لا يعصيه وأنه لن يدع رتبيل حتى يبعث إليه بعبد الرحمن...

يقول الطبري: فأعطاه الحجاج على ذلك مالاً، وأخذ من رتبيل عليه مالاً...

ويقول الطبري عن عبيد هذا: «كان مع ابن الأشعث عبيد بن أبي سميع التميمي قد خُصّ به، وكان رسوله إلى رتبيل، فخص برتبيل أيضاً وخف عليه».

ولما تمت الصفقة أرسل رتبيل إلى ابن الأشعث فأحضره وثلاثين من أهل بيته وقد أعد لهم الجوامع والقيود، فألقى في عنقه جامعة وفي عنق أخيه القاسم جامعة وأرسل بهم جميعاً إلى الحجاج، وقال لجماعة من كان مع ابن الأشعث من الناس تفرقوا إلى حيث شئتم.

وقد عزّ على ابن الأشعث أن يصل إلى الحجاج بهذه الحال، فاغتنم فرصة وضعهم على سطح قصر عال - وهم في طريقهم إلى الحجاج - فألقى بنفسه من فوق القصر فمات.

فاحتز عمارة بن تميم صاحب مسلحة الحجاج رأسه وقتل من كان معه من أهله وأرسل رؤوس الجميع إلى الحجاج...

واحد وثلاثون رجلاً من سلالة الأشعث قطعت رؤوسهم وأرسلت إلى الحجاج ومنه إلى عبد الملك... لقد خَذَلَ الأشعثُ علياً بن أبي طالب وتآمر على خلافته، ووشى ابنه محمد بمسلم بن عقيل، وقاتل ولده الآخر قيس: الحسين في كربلا وشارك في قتله وقتل أهل بيته وأصحابه...

كل ذلك تدعيماً لحكم الطغيان ونصرة للظالمين... وتشاء إرادة الله أن تُقطع رؤوس واحد وثلاثين رجلاً من سلالة الأشعث بأيدي حكم الطغيان نفسه الذي آزره الأشعث وبنوه، وبأوامر من أولئك الظالمين أنفسهم!.

ليس ذلك من الأقدار انتقاماً للرؤوس التي تسبب آل الأشعث بإرسالها من كربلا إلى الكوفة ومنها إلى الشام.

فقلامة ظفر قدم من أقدام أصحاب تلك الرؤوس أغلى على الأقدار من الرؤوس الأشعثية الواحدة والثلاثين.

ولكنها عبرة الأقدار...



الأمـويـون
والإسـلام والعــروبـة



الأمويون والإسلام والعروبة

في الكلمة التي كتبها كاتب في جريدة النهار حرص كل الحرص على التنويه بعروبة الدولة الأموية وأغرق في ذلك ما شاء له الإغراق.

وليست هذه هي المرة الأولى التي يبدي فيها الكاتب هذا الرأي فقد سبق له أن أبداه أكثر من مرة، وعاد هنا يكرره ويشيد به... وليس هو وحده الذي يقول هذا القول، بل هناك غيره ممن سبقوه إليه ونادوا به مجاهرين مفاخرين... فما هي الحقيقة في ذلك؟

نحن نريد أولاً أن نسلم ـ جدلاً ـ بصحة هذا القول، ولكننا نريد أن نسأل هذه الجماعة هل أن النبي محمداً ﷺ المؤسس الأول للدولة إنما قصد بتأسيسها أن يحل محل الحكمين البيزنطي والساساني الاستبداديين الظالمين المتحكمين بشعبيهما تحكماً فردياً لا يبالي بأن يستبيح الدماء والأموال والكرامات، ولا يهمه استفحال الفقر بالفقراء واستشراء الغنى بالأغنياء، وتميز فئة محدودة بكل الخيرات، وتميز جمهور الشعب بالبؤس والفاقة والذل، هل كان قصد النبي محمد ﷺ أن يحل محل هذين الحكمين حكم عربي فيه المفاسد نفسها، ولا يبرره إلا أنه حكم عربي؟.

أم أن مقصد النبي محمد ﷺ برسالته الإسلامية وتأسيسه للدولة الجديدة أن تكون ثورة عالمية على فساد الحكام والتمييز بين الطبقات، وتطبيق القانون على الناس جميعاً، وإحلال الكفاءة والإخلاص محل الأنساب، وتوزيع الثروات على الناس توزيعاً عادلاً، وإحلال الشورى محل الاستبداد وإلغاء التمييز العنصري. إلى غير ذلك مما ليس هذا مجال تعداده. إن كانت رسالة محمد ﷺ تستهدف الأمر الأول، فيحق لنا حينئذ أن نباهي بالعروبة المزعومة

للدولة الأموية . . . وأما إذا كانت تستهدف الأمر الثاني، فإن علينا أن نخجل كل الخجل من المصير الذي صارت إليه الشعوب كلها بما فيها الشعب العربي من الانقلاب على الحكم الذي هدفت إليه رسالة محمد ﷺ.

ولكن ما هي حقيقة عروبة الدولة الأموية؟ أصحيح أنها استهدفت مصلحة العرب؟

الأحداث تجيب

لنترك الأحداث تجيبنا على ذلك. فنحن نعلم أن العرب قبل الإسلام كانوا منقسمين على أنفسهم قبائل، لا يرى الواحد منهم من فخر له إلا بقبيلته وحدها، ولا شأن له ببقية العرب، وأن انتماءه إنما هو لهذه القبيلة، وأنه يستبيح دماء أي فرد من قبيلة أخرى إذا حاولت منافسة قبيلته، إنهم لا يهمهم إلا إعزاز قبائلهم لا اعزاز أمتهم. إن عمرو بن كلثوم صاحب النونية الافتخارية الشهيرة كان يباهي القبائل الأخرى ويتحداها بقبيلته، فهو حين يقول مثلاً:

إذا بلغ الفطام لنا صبي   تخر له الجبابر ساجدينا

أو يقول:

ملأنا البر حتى ضاق عنا   وظهر البحر نملؤه سفينا

إنما يقصد بني تغلب وحدهم ولا علاقة له بالعرب، وهو يريد أن تخر جبابرة العرب ساجدة أمام الصبي التغلبي المفطوم؟

وهو يريد أن يملأ البر والبحر لا ليقاتل به أعداء العرب، بل ليقاتل به العرب . . .

هذه هي الذهنية الجاهلية التي جاء الإسلام ليقضي عليها، واستطاع ذلك، وصهر العرب كلهم في أمة واحدة أرادها أن تحمل الإسلام إلى العالم كله مطبقة فيه مفهومه الجديد للحكم، لا أن يطبق على الشعوب حكم القياصرة والأكاسرة نفسه، وأن يحل محل ذلك الحكم بكل شروره ومفاسده . . .

فماذا كانت نتيجة الحكم الذي يسميه من يسميه بالحكم العربي؟

كانت النتيجة أن هذا الحكم عاد بالعرب إلى جاهليتهم الأولى من إثارة النعرات القبلية وتحريش القبائل بعضها ببعض لتنشغل بصراعاتها فيما بينها عن التبصر فيما يمارسه الحكم من اضطهاد وبما يتحكم فيه من فساد، وقد نجح الحكم في ذلك إلى أبعد الحدود.

لقد كان يصنف الناس إلى قبائل فيقدم أحدها ويغدق عليها نعمه ليثير أحقاد القبيلة الأخرى لتنسى كل شيء ولا تفكر إلا كيف تتقرب من الحكم لتغيظ القبيلة المنافسة.

وقد استعمل الحكم في ذلك مختلف الوسائل فكان يحرّش بين رؤساء القبائل ويحرّش بين شعراء القبائل، فيثير بذلك الفتن بين القبائل وتعود إلى ماضيها الجاهلي البغيض.

وكان الحكام يستغلون التقاء وفود القبائل في مجالسهم فيحرضونها بعضها على بعض، ويدعون خطباء كل قبيلة إلى التفاخر والتباهي حين تفد إليهم وفودها. لذلك كانت كل قبيلة تحرص على أن يكون في وفدها من يجيد المقارعة والمفاخرة.

فقد التقى وفد نزار ووفد اليمن في مجلس معاوية فما زال بهم حتى قام خطباء نزار وذهبوا في خطبهم في التفاخر كل مذهب فقام صبرة بن شيمان سيد الأزد واختصر الأمر بأن قال: (إنّا حيّ فعال ولسنا حيّ مقال ونحن نبلغ بفعالنا أكثر من مقال غيرنا).

وانفض المجلس بعد أن بلغ الحكم غايته من إثارة الأحقاد بين القبيلتين الكبيرتين.

وفي يوم آخر كانت عنده مجموعة من رجال القبائل فأراد أن يثير المنافسة بينها جميعها دفعة واحدة فقال:

إذا جاءت بنو هاشم بقديمها وحديثها، وجاءت بنو أمية بأحلامها وسياستها وبنو أسد بن عبد العزى برفادتها ودياتها، وبنو عبد الدار بحجابها ولوائها وبنو مخزوم بأفعالها وأموالها، وبنو تيم بصديقها وجوادها وبنو عدي بفاروقها ومتفكرها وبنو سهم بآرائها ودهائها، وبنو جمح بشرفها وبنو عامر بن لؤي بفارسها وقريعها، فمن ذا يجلي في مضمارها ويجري إلى غايتها؟ . . .

ولم يكن شيء أكثر تحريشاً بين القبائل وإثارة أحقادها ودعوتها إلى التفاخر والتنابذ أكثر من هذا القول ينطق به رأس الحكم . . .

وكذلك فعل عبد الملك بن مروان حين دخل عليه عياش بن الزبرقان وعنده روح بن زنباع فقال عبد الملك: يا عياش، أما ترى هذا اليماني يفخر بملوك اليمن؟ . . .

وكان هذا القول كافياً لأن يثير ما أثار في القبيلتين.

وكذلك فعل هشام بن عبد الملك حين حرش بين الأبرش الكلبي وخالد بن صفوان.

وفيما يذكر في هذا الموضوع أن معاوية وابنه يزيد بذلوا لقضاعة أموالاً جسيمة لتنتفي من اليمن وتنتسب إلى معد فاستجاب نفر من رؤسائها لذلك، ولكن آخرين رفضوا هذا الانتساب وقاموا بمظاهرة صاخبة كان رجالها يرتجزون وهم يقتحمون المسجد:

يا أيها الداعي ادعنا وبشّر وكن قضاعياً ولا تنزّر

نحن بنو الشيخ الهجان الأزهر قضاعة بن مالك بن حمير
النسب المعروف غير المنكر من قال قولاً غير ذا يبصّر

وهكذا وقعت الفتنة في القبيلة الواحدة، ثم امتدت إلى أوسع من ذلك بين القبيلتين، ثم إلى العبث بأحاديث الرسول فوضعت نزار حديثاً ينسب فيه الرسول قضاعة إلى معدّ، بل يجعله بكر ولده ووضع أهل اليمن أحاديث تنقض هذا القول وتؤيد نسبة قضاعة إلى حمير[1].

أرأيت كيف نجحت اللعبة وبماذا انشغل الشعب؟ . . .

وهناك قصيدة الوليد بن يزيد التي قالها في تحدي اليمن، ما أثار الفتنة بين النزاريين واليمنيين . . وهذا الذي نذكره غيض من فيض، وليس هو كل ما جرى، بل هو نقطة من بحر ما جرى حتى لقد أدى الأمر إلى أن تكون النزاعات القبلية هي شغل الناس الشاغل اليومي، ولعل ما يصور الأمر على حقيقته ما رواه الجاحظ في (البيان والتبيين) من أنه: ما كان رجلان من قبيلتين يلتقيان حتى يتذكرا أيام قبيلتيهما في الجاهلية ويتفاخرا. وهذا ما رمت إليه دولة (القومية العربية) من إشغال الناس عنها بنزاعاتهم القبلية.

القتال الدموي

على أن الأمر تعدى التشاحن باللسان واستثارة الضغائن في النفوس، إلى القتال الدموي بين القبائل، وهو النتيجة الطبيعية لشحن العقول بكل ما شحنت به، فرأينا مثلاً الوقائع الدامية بين قبيلتي قيس وتغلب في بلاد الجزيرة. وبعد أن كان المسجد مكان تلاقي الناس على المحبة والوئام أصبح مكان تلاقيهم على البغضاء والقتال كهذا الذي جرى في مسجد البصرة بين مضر وربيعة، وبعد أن كان الهتاف فيه: حي على الفلاح، صار يالتميم . . واقتحم بنو تميم في إحدى المرات مسجد البصرة على مسعود بن عمر وأنزلوه عن المنبر وقتلوه.

وعمت الفتن القبلية جميع الأرجاء وحملها ولاة دولة (القومية العربية) معهم إلى ما تولوه من بلاد خارج الأرض العربية، لمن نزلها هناك من القبائل فكان والي خراسان الجراح

(١) ليس هذا الحادث وحده الذي وضعت فيه الأحاديث النبوية، فإن أحد كبار رواة الحديث المشهورين جعل أحاديث الرسول طرفاً في النزاع القبلي، فأخذ يروي: الإيمان يمان، آل لخم وجذام صلوات الله على جذام يقاتلون الكفار على رؤوس الشعاف وينصرون الله ورسوله (الانباه ص١٠٤).

الحكمي يصرخ على منبر المسجد[١]: والله لرجل من (قومي)[٢] أحب إليّ من مئة غيرهم، يقول هذا القول على مسمع من ليسوا قومه فتثور حزازاتهم وأضغانهم.

وعمر بن هبيرة والي العراق كان من دواعي فخره أنه لم يعرض له أمر رأى فيه منفعة (لقومه) إلا فعله[٣].

وخالد بن عبد الله القسري كان أشد خلق الله عصبية على نزار[٤] وقد اتهمته المضرية بتعمد إيذاء شعراء مضر وحبسهم[٥] وأخوه أسد بن عبد الله والي خراسان كان ينافس أخاه خالداً في عصبيته على النزارية[٦] وجاء بعده والياً عليها نصر بن سيار فعمد إلى فعل عكس ما فعله سلفه فأظهر العصبية لمضر، لتزداد الفتنة تأججاً فالحكم تارة مع هؤلاء وتارة مع خصومهم[٧].

وعبيدة بن عبد الرحمن السلمي والي أفريقيا أضرّ بمن هناك من الكلبيين وتعصب عليهم[٨].

وكما قلنا فقد أدى ذلك إلى الاقتتال الدموي حتى بين القبائل العربية خارج الأرض العربية كهذا القتال الطويل في خراسان الذي قاده عبد الله بن خازم السلمي في الحرب بين قبيلته وبين قبائل ربيعة والأزد والذي استطاع بعده أن يستأثر بالأمور في خراسان إلى حين[٩] فتساءلت قبيلة بكر: علام يأكل هؤلاء خراسان دوننا؟ وهكذا فالتزاحم لا على المآثر والمكارم، ولا على نشر العدل، بل على (الأكل)[١٠].

ولم تقتصر فتنة خراسان هذه على عرب خراسان بل تردد صداها وامتد أثرها إلى العراق حيث حرّق مالك بن مسمع دور تميم في البصرة رداً على مذابح ابن خازم في قبيلة ربيعة في هرات[١١]. وعبد الله بن خازم نفسه لم يقصر في خراسان بالإيقاع فيما بين تميم حين حصرهم في حصن (فرتنا) وقتل فرسانهم وأبطالهم ما تردد صداه في تميم في العراق[١٢].

وكذلك لما هاجت العصبية بخراسان بين اليمنية والمضرية أرسلت يمانية الشام إلى

---

(١) الطبري.
(٢) سنرى ما يقصد بكلمة(قومي).
(٣) الأغاني.
(٤) الطبري.
(٥) طبقات ابن سلاّم.
(٦) الطبري.
(٧) الطبري.
(٨) أنساب الأشراف.
(٩) فتوح البلدان.
(١٠) ن. م.
(١١) الطبري.
(١٢) ن. م.

خراسان نجدة عسكرية لنصرة قومهم[١]. وفي (بلخ)[٢] وقعت معركة البرقان بين المضرية وعلى رأسهم نصر بن سيار وبين الأزد وبكر وعليهما عمرو بن مسلم[٣]. ولما ثارت الفتنة القبلية في خراسان بين نصر بن سيار والكرماني اجتمعت اليمانية تحت لواء الكرماني واجتمعت مضر إلى نصر.

الوحشية والفظائع

على أن أخطر ما أنتجته سياسة دولة (القومية العربية) في إثارتها النزاع بين قبائل العرب إلى حد الحروب الدامية، هو أن هذه الحروب فاقت بشراستها وفظائعها حروب القبائل في الجاهلية بل أدت هذه الحروب إلى ما يصم التاريخ العربي بوصمة العار. فقد كانت الحروب القبلية في الجاهلية إنما يثيرها الفقر وطلب المغانم، لذلك كان الظافرون فيها يحرصون على استبقاء الأسرى لمفاداتهم بالمال. أما في حروب دولة (القومية العربية) فقد عادت الحروب القبلية حروب إفناء وإبادة لا حروب حصول على الأسرى، وارتكب فيها من الفظائع ما يخجل الإنسانية كلها لا العرب وحدهم، ففضلاً عن قتل الأسرى وما فيه من شناعة وعار، فقد جاءت هذه الحروب بما لم يعرفه العرب في تاريخهم من وحشية وفظاعة، لقد كانت حروب القبائل الجاهلية تتسم دائماً بطابع من المروءة العربية الأصيلة التي كانت هي ميزة العربي الأولى لا سيما مع النساء.

أما الحروب القبلية التي أثارتها دولة (القومية العربية) فقد كان بعض أفعالها بقر بطون النساء الحوامل. ففي وقعة (ماكسين) وحدها بقرت قبيلة قيس بطون ألفين من بطون نساء تغلب[٤] وافتخر بذلك شاعرهم نفيع بن صفار المحاربي فقال:

بقرنا منهم ألفي بقير … فلم نترك لحاملة جنينا

وفي معركة الثرثار[٥] الأولى بين جموع بني سليم وجموع ربيعة التي انهزم فيها بنو سليم، بقرت ربيعة بطون ثلاثين امرأة من بني سليم.

ولما التقت تغلب وقيس يوم الكحيل وانهزمت تغلب وراحت فلولها تحاول عبور

(١) ن. م.
(٢) هي اليوم تتبع أفغانستان.
(٣) الطبري.
(٤) أنساب الأشراف والأغاني. وماكسين أو ماكس من قرى الخابور قرب رأس العين.
(٥) **الثرثار**: نهر ينبع من هرماس نصيبين ويفرغ في دجلة بين الكحيل ورأس العين.

دجلة، غرّق القيسيون من التغلبيين بشراً عظيماً في النهر وقتلوا من وقع في أيديهم أسيراً وبقروا بطون نسائهم، وفي معارك ابن خازم مع ربيعة في خراسان التي مرت الإشارة إليها وانتصر فيها ابن خازم، ظل ابن خازم يقتل كل من وقع في يده من الأسرى حتى غابت الشمس.

والظاهرة الملفتة للنظر أنه في المدن المتأثرة بسياسة دولة (القومية العربية) كانت الفتن تعظم وتشتد وتمتد ففي البصرة مثلاً حيث كان التجمع القبلي الكبير: مضر وربيعة والأزد كانت الفتن بين القبائل متواصلة لا تهدأ ولا تستقر، في حين أن الكوفة غير المتأثرة بسياسة دولة (القومية العربية)، كانت قبائلها على كثرتها وتنوع أصولها متماسكة فلم يظهر فيها نزاعات قبلية ذات شأن كالتي شهدتها البصرة. والعجيب في أمر هذه القبائل المتنازعة المتقاتلة أنها في أعماق نفوسها كانت تحس أن الدولة هي التي تؤرث البغضاء بينها فتدفعها إلى الاحتراب والتعادي. وبدافع من هذا الإحساس رأينا هذه القبائل عندما كانت تلوح لها أول فرصة للثورة على هذه الدولة تنسى كل ما كان بينها من اشتجار وتهاج واقتتال، وتهب كلها يمنيها ومضريها وربعيها وتجتمع على الثورة على دولة (القومية العربية) كما حدث في الثورة على ممثل السلطة الحجاج بن يوسف التي فرضت الظروف أن يقودها عبد الرحمن بن الأشعث سنة٨١. فسمعنا شاعر تلك الثورة أعشى همدان ينطق باسم العرب جميعاً، باسم القبائل الثائرة كلها معدداً لها قبيلة قبيلة قائلاً:

سار بجمع كالدبى من قحطان	ومن معد قد أتى ابن عدنان
بجحفل جمٌ شديد الإرنان	فقل لحجاج ولي الشيطان
يثبت لجمعي مذحج وهمدان	والحي من بكر وقيس عيلان

وكذلك في ثورة الحارث بن سريج في خراسان حيث اجتمعت تحت قيادته مضر واليمن والأزد وتميم وهي القبائل المتنافرة المتنازعة، ولم يكن أعجب من أن تمشي اليمن وراء زعيم مضري.

السياسة التطبيقية

وكانت السياسة التطبيقية بتأريث العداوة بين القبائل هي خطة الحكم فعبد الملك بن مروان مثلاً بعد أن قرب اليمانية وأغدق عليهم ما أغدق، فأثار العداء بينهم وبين القيسية وتحققت أهدافه، عاد يقرب القيسية ويحلهم محل اليمانية لتزداد الأحقاد ويتأصل النزاع.

ومثل هذا فعل من تقدموه ومن تأخروا عنه. فمنهج الحكم قبلي بحت لا عربي قومي، فلا يقدّم العربي لأنه عربي، بل تقدم القبيلة كلها أو تجفى كلها ليظل الصراع مشتعلاً بين القبائل.

وهكذا تقسمت الأمة العربية من جديد إلى قبائل متنازعة متخاصمة، بعد أن صهرها الحكم العربي الصحيح حكم محمد بن عبد الله ﷺ في وحدة متراصة متكاتفة تبرز العربي عربياً لا يعلن انتماءه إلا للعرب، لا إلى قبيلة من القبائل، إلى العرب الذين عوّل عليهم محمد ﷺ في حمل رسالته العالمية إلى الكون كله.

وكان أعظم أدوات الحكم (العربي) الذي يباهي به الكاتب لتمزيق الصف العربي هم الشعراء الذين كان يغريهم الحكام بالعودة إلى التفاخر بالقبيلة لعلمهم بأثر الشعر في ذلك. وكان محمد صلى الله عليه وآله وسلم يعرف ما يفعله شعر الشعراء في إضرام التعادي القبلي لذلك قال في بعض ما قاله: (من قال في الإسلام هجاء مقذعاً فلسانه هد). وعماد الهجاء المقذع تفضيل الشاعر إحدى القبائل على القبيلة المهجوة.

وهكذا انفصمت عروة القومية العربية، وعاد (قوم) الفرد لا أمته، بل قبيلته فسمعنا مثلاً الفرزدق يقول:

تميم هم (قومي) فلا تعدلنهم ... بحي إذا اعتزّ الأمور كبيرها

وسمعنا عبد الله بن خليفة الطائي يقول:

فلا يبعدن (قومي) وإن كنت غائباً ... وكنت المضاع فيهم والمكفرا

وسمعنا الفرزدق يكرر القول:

أنا الضامن الراعي عليهم وإنما ... يدافع عن إحسابهم أنا أو مثلي

إذا ما رضوا مني إذا كنت ضامنا ... بإحساب (قومي) في الجبال وفي السهل

وسمعنا جريراً يقول، وهو وإن لم يذكر كلمة (قومي)، فيكفي أنه يعلن أن (الأعداء) في نظره هم أعداء قبيلته لا أعداء العرب:

ألم أك ناراً يصطليها (عدوكم) ... وحرزا لما ألجأتم من ورائيا

كما أعلن الفرزدق في البيتين المتقدمين بأن الأحساب التي يدافع عنها هي أحساب القبيلة لا أحساب العرب.

وإذا كان جرير لم يذكر في البيت المتقدم كلمة (قومي) فقد ذكرها في بيت آخر هو:

وإني لمن (قوم) بهم تتقى العدى ... ورأي الشأى والجانب المتخوف

وهكذا استحالت الرابطة بين العرب من الرابطة القومية التي تعني (بالقوم) العرب جميعهم، إلى الرابطة القبلية التي تعني (بالقوم) القبيلة. وكثر ذلك في الشعر العربي. فقال الطرماح:

لم يفتنا بالوتر (قوم) ... وللضيم رجال يرضون بالإغماض

وقال أيضاً مفتخراً بمحاماة مذحج والأزد عن أهل العراق ومشاركتهم في قتل قتيبة بن مسلم:

(قوم) هم قتلوا قتيبة عنوة ... والخيل جانحة عليها العثير

بالمرج مرج الصين حيث تبينت ... مضر العراق من الأعز الأكبر

وقال عبد الله بن عمر العبلي:

أولئك (قومي) تداعت بهم ... نوائب من زمن متعس

وقال عبد الله بن قيس الرقيات:

حبذا العيش حين (قومي) جميع ... لم تفرق أمورها الأهواء

وهكذا نسي العرب أنهم عرب تربطهم أمة واحدة.

الهوان

وقد أدى تحريش السلطة بين القبائل إلى أن يستهين العرب بعروبتهم وأن يلجأوا إلى الأمم الأخرى ليفاخروا بانتسابهم إليها، فلما فاخرت القحطانية بملوكها القدامى وبما كان لهم من سلطان على القبائل المعدّية، ادعت العدنانية أن الفرس الذين دانت لهم بلاد اليمن قديماً يرجعون في نسبهم إلى جدهم الذي ينتمون إليه إذ هم من ولد إسحاق بن إبراهيم. فقال إسحاق بن سويد العدوي:

إذا افتخرت قحطان يوماً بسؤدد ... أتى فخرنا أعلى عليها وأسودا

ملكناهم بدءاً بإسحاق عمنا ... وكانوا لنا عوناً على الدهر أعبدا

ويجمعنا والغرّ أبناء فارس ... أب لا نبالي بعده من تفردا

وهكذا عاد العرب في ظل دولة (القومية العربية) يفاخرون بأن العرب كانوا عبيداً لغيرهم، ويتباهون لا بالعروبة وأنسابها، بل بصلة النسب التي زعموا بأنها تربطهم بالفرس (الغرّ). والدولة مرتاحة لذلك ما دام فيه شاغل للشعب عن التفكير في تدبر أموره، وما دامت هي المسبب لكل ذلك.

وقد بلغ الهوان العربي أقصاه، إذ تعدى الأمر الافتخار بالفرس (الغرّ) إلى التفاخر باليهود (الغرّ). في ظل دولة (القومية العربية) فسمعنا جريراً يقول:

أبونا أبو إسحاق يجمع بيننا ... أب كان مهدياً نبياً مطهرا

ومنا سليمان النبي الذي دعا ... فأعطي بنياناً وملكاً مسخرا

وموسى وعيسى والذي خر ساجداً ... فأنبت زرعاً دمع عينيه أخضرا

ويعقوب منا زاده الله حكمة ... وكان ابن يعقوب أميناً مصرراً

فيجمعنا و(الغرّ) أبناء سارة ... أب لا نبالي بعده من تعذرا

ثم عاد الأمر مهزلة من المهازل كانت تضحك لها الدولة بملء أشداقها، إن العدنانية أرادوا أن يزيدوا إلى فخارهم بالفرس فخارا بأمم أخرى فجمعوا إلى ارتباط نسبهم بالفرس ارتباطه بالأكراد والهنود والبربر والديلم[١]. ولما رأى القحطانية ذلك جاروهم في التنصل من النسب العربي فادعوا اتصال نسبهم باليونان، واختصوا اليونان، لأن العدنانية انتسبوا إلى الفرس أعداء اليونان، فزعموا أن يونان بن عابر هو أخو قحطان بن عابر[٢]. ولادّعاء النزارية قرابتهم بالديلم ادعى القحطانية قرابتهم بالترك[٣].

وقد أدى هذا الحال إلى أن يصبح العرب في ظل دولة (القومية العربية) مهزأة الأمم ومضحكتها فقال أحد شعراء الأعاجم يخاطب العرب ساخراً منهم:

زعمتم بأن الهند أولاد خندف ... وبينكم قربى وبين البرابر

وديلم من نسل بن ضبة باسل ... وبرجان من أولاد عمرو بن عامر

فقد صار كل الناس أولاد واحد ... وصاروا سواء في أصول العناصر[٤]

لمن السيادة؟

يقول الكاتب فيما يقول: (حيث العرب من كل قبيلة وفخذ ودين هم السادة وغير العرب ولو هم مسلمون من الموالي).

ونقول له: كلا لم يكن الأمر كذلك فالسيادة والسلطة والحكم لفئة نفعية تحسن استعباد

(١) العقد الفريد ٣/ ٤٠٧.

(٢) التنبيه والإشراف ص١٠٠.

(٣) مروج الذهب.

(٤) العقد الفريد ٣/ ٤٠٧.

الناس وسفك دمائهم ونهب أموالهم، أما بقية العرب فللهوان والذل والقتل والنهب ولا تشفع لهم عروبتهم ولا نسبهم العدناني أو القحطاني العريق.

ونعرض له واحداً ممن كانت لهم السيادة. فقد كان سمرة بن جندب والياً على البصرة بالوكالة، فلما جاء الوالي الأصيل كان سمرة قد قتل في غيابه ثمانية آلاف رجل، وكان لا بد له من أن يقدم (تقريراً) شفهياً للوالي الأصيل فذكر له فيما ذكر أنه قتل في هذه المدة القصيرة ثمانية آلاف رجل، فكان كل ما علق به الأصيل ـ وهو زياد بن سميّة ـ أن سأله هل تخاف أن تكون قد قتلت أحداً بريئاً؟ فأجاب سمرة: لو قتلت إليهم مثلهم ما خشيت.... وانتهى التحقيق وأقفل المحضر بهذا الجواب الموجز[١].

ثمانية آلاف عربي يقتلهم هذا الوالي الذي كانت له (السيادة) في دولة (القومية العربية)، يقتلهم بكلمة واحدة يقولها...

فأين (سيادة) هؤلاء الآلاف الثمانية الذين هم من (كل قبيلة وفخذ) على حد تعبير الكاتب؟...

وإذا كان هذا ما فعله وال واحد كان والياً (بالوكالة) لمدة قصيرة فلك أن تقدر ما فعله الولاة الأصلاء في المدد الطويلة. وهذا الوالي بالوكالة خرج يوماً من بيته إلى (مكتبه) بموكبه الرهيب، فلما كان عند دور بني أسد خرج رجل من بعض أزقتهم ففجأ أوائل الخيل فحمل عليه رجل من القوم فأوجره الحربة ثم مضت الخيل، فأتى عليه سمرة بن جندب وهو متشحط بدمه، فقال: ما هذا؟ قيل: أصابته أوائل خيل الأمير، قال: إذا سمعتم بنا قد ركبنا فاتقوا أسنتنا..[٢].

العرب سكان البصرة (من كل قبيلة وفخذ) وفيهم بنو أسد: عليهم إذا سمعوا أن سمرة بن جندب قد ركب وسار بموكبه، عليهم أن يخلوا الشوارع وينخذلوا في بيوتهم حتى يمر الموكب، وإلا أوجرتهم الحراب.

ومن سوء حظ العرب سكان البصرة (من كل قبيلة وفخذ)، أنه لم يكن في البصرة يومذاك (إذاعة) تعلن ساعة الصفر لموكب الأمير ليتقي أهلها الأسنة.

هذه هي (السيادة) التي كانت للعرب (من كل قبيلة وفخذ) في حكم دولة

(١) الطبري.

(٢) ن.م.

(القومية العربية). يتبجح الكاتب بما صار إليه أمر الموالي... ونحن نريد أن نعرض للقراء بعض ما كان عليه أمر الموالي الذي آمنوا بالدعوة العالمية الإسلامية، لنرى إن كان القراء يشاركون الكاتب تبجحه.

كان من خلفاء دولة (القومية العربية) خليفة واحد يستحق بأن يحمل لقب (القومي العربي) بكل ما تحمله هذه القومية من حب وتسامح وعدل وتكفل بالتزام الدعوة الإسلامية العالمية. ذاك هو عمر بن عبد العزيز، ففي أول عهده بالحكم أرسل إليه والي خراسان الجراح بن عبد الله وفداً من قبله تملقاً له، وكان الوفد مؤلفاً من عربيين ومن مولى يصفه الطبري بأنه كان فاضلاً في دينه، فتكلم العربيان عند عمر والمولى ساكت، فقال له عمر: أما أنت من الوفد؟ قال: بلى. قال: فما يمنعك من الكلام؟ قال: يا أمير المؤمنين، عشرون ألفاً من الموالي يغزون بلا عطاء ولا رزق... إلى أن يقول: أميرنا عصبي جاف يقوم على منبرنا فيقول: والله لرجل من قومي أحب إليّ من مائة من غيرهم، وهو بعد سيف من سيوف الحجاج قد عمل بالظلم والعدوان...

هال عمر عبد العزيز ما سمع، وأكبر هذا المولى (عضو الوفد) على صراحته وجرأته وتقريره الحقيقة الفظيعة، فقال له: إذن مثلك فليوفد...

ماذا يعني هذا القول؟ إنه يعني أن عشرين ألف رجل من الموالي يجندون في الجيش ويساقون إلى الغزو دون أن تدفع لهم دولة (القومية العربية) درهماً واحداً، وفوق ذلك فإنها لا تقدم لهم الطعام، بل إن عليهم أن يقاتلوا، وعليهم في الوقت نفسه أن يتكفلوا تدبير أمر طعامهم...

عشرون ألفاً في منطقة وال واحد، فإذا حسبت عدد الولاة فكم من عشرين ألف آخرين ستجد؟....

هذا مثال واحد عن معاملة دولة (القومية العربية) لغير العرب الذين تحكمهم وهذه هي المعاملة التي يتبجح بها الكاتب.

ولن نتعرض إلى ذكر المهانة اليومية التي كان يعيش فيها الموالي، مثل أنهم كانوا ينادونهم بألقابهم لا بأسمائهم كما ينادون الرقيق، وإذا أرادوا الزواج فلم يكن بدّ من الرجوع إلى (السادة) الذين كان لهم حق المعارضة في تلك العقود، وكان مفروضاً عليهم وحدهم ضريبة الرؤوس. ويفهم مما ذكره الطبري أنهم في حال الحرب لم يكن مسموحاً لهم أن يكون منهم أحد في صفوف الفرسان، بل كانوا دائماً في المشاة...

المتعصبون الحرفيون

يسمي الكاتب الذين عارضوا هذه التصرفات وقاوموها ولم يقبلوا بها، يسميهم (رجال الدين المتعصبين والحرفيين والجامدين).

ونحن نسأله وهو (اليساري العتيق) ألم يكن من أهدافه هو نفسه أن يثور على النظام القائم، مع أن هذا النظام له دستوره وقوانينه وأنظمته التي يتساوى فيها الناس جميعاً، ولم يكن فيه (المحافظ بالوكالة) يأمر بقتل ثمانية آلاف رجل بلا محاكمة ولم يكن هذا النظام يسوق إلى الجندية والحرب عشرات الألوف دون أن يدفع لهم ليرة واحدة ودون أن يقدم لهم الطعام، وكل عيوب هذا النظام أنه يختلف مع الكاتب في النظرة الاقتصادية. ومع ذلك كان الكاتب يدعو للثورة على هذا النظام ويعمل لهذه الثورة ولا يرى نفسه (من رجال الدين المتعصبين والحرفيين والجامدين).

وهل من هؤلاء حتى الشعراء المداحون المتملقون الذين لم يستطيعوا مع ذلك أن يسكتوا على ما ينال الشعب من حرمان واهتضام، فنرى مثلاً الراعي النميري - وهو ممن لا يتهمون في ولائهم لدولة (القومية العربية)، نراه يضطر للخروج على التملق، ليشكو ما ينال الرعية من جباة الضرائب الذين ينزلون بها كل صنوف الجور:

قطعوا اليمامة يطردون كأنهم ... قوم أصابوا ظالمين قتيلا

وأتاهم يحيى فشد عليهم ... عقدا يراه المسلمون ثقيلا

كتباً تركن غنيهم ذا عيلة ... بعد الغنى وفقيرهم مهزولا

ثم يكرر وصف ما ينزل بالشعب في قصيدة أخرى:

أما الفقير الذي كانت حلوبته ... رفق العيال فلم يترك له سبد[1]

واختل ذو المال والمثرون قد بقيت ... على التلاتل من أموالهم عقد[2]

فهل هذا الشاعر الذي يعطينا صورة عن حال الشعب الهضيم في ظل دولة (القومية العربية) هو الآخر من (رجال الدين المتعصبين والحرفيين والجامدين).

---

(١) الحلوبة: الناقة. ويقال: ماله سبد ولا لبد. أي: ما له قليل ولا كثير. أو: ماله وبر ولا صوف متلبد، يكنى بهذا عن الإبل والغنم. والسبد في الأصل: القليل من الشعر والبقية من النبت. ورفق العيال: أي بها لبن على قدر حاجتهم لا يفيض عنهم.

(٢) اختل: افتقر. التلاتل: الشدائد. العقد: البقايا القليلة.

وهل بلغت الحال بالشعب في عصر الكاتب إلى حال الشعب في عهد الراعي النميري التي رأينا بعض وصفها في شعره حين كان يدعو الأول إلى الثورة على النظام؟؟.

ونختم هذا البحث بكلمة للدكتور حسين مؤنس قالها في كتابه (تاريخ المغرب) م١ ج١ ص٥٦:

«الواقع أن الدولة الأموية سقطت لأسباب شتى منها سوء سياستها العربية نفسها، ومنها موقفها من بني هاشم وما أنزلته بآل الرسول من مذابح، ومنها أيضاً سوء السياسة المالية، فقد كان الخلفاء والولاة ينفقون من غير حساب، وإذا كانت ثمرات الغنائم ظلت وافرة إلى أواخر أيام عبد الملك بن مروان فقد أخذت تنحسر بعد ذلك، وبدأت الدولة الأموية تواجه العجز المالي، خاصةً أن الجانب الأعظم من جبايات ولايات شرق الدولة كان بيد الدهاقين، فاستمروا في عسف الفلاحين واقتضاء الأموال الضخمة منهم والاستيلاء على الجانب الأعظم منها، دون ان يصنع الخلفاء شيئاً لتدارك هذا العيب الخطير».

الأمويون في تركستان

يقول الطبري في أحداث سنة عشرة ومائة: فيها كان والياً على خراسان الأشرس بن عبد الله المسلمي في عهد هشام بن عبد الملك فقال: ابغوني رجلاً له ورع وفضل أوجهه إلى من وراء النهر فيدعوهم إلى الإسلام فأشاروا عليه بأبي الصيداء صالح بن طريف مولى بني ضبة. فقال: لست بالماهر بالفارسية فضموا معه الربيع بن عمران التميمي. فقال أبو الصيداء: أخرج على شريطة أن من أسلم لم يأخذ منه الجزية. قال الأشرس: نعم. قال أبو الصيداء لأصحابه فإني أخرج فإن لم يف الولاة أعنتموني عليهم، قالوا نعم، فشخص إلى سمرقند وعليها ابن أبي العمرطة الكندي، على حربها وخراجها، فدعا أبو الصيداء أهل سمرقند ومن حولها إلى الإسلام على أن توضع عنهم الجزية فسارع الناس، فكتب «غوزك» إلى أشرس إن الخراج قد انكسر فكتب أشرس إلى ابن أبي العمرطة كتاباً جاء فيه: «فأنظر من اختتن منهم وأقام الفرائض وحسن إسلامه وقرأ سورة من القرآن فارفع عنه خراجه». ثم عزل أشرس ابن أبي العمرطة عن الخراج وصيره إلى هاني بن هاني وضم إليه الأشحيذ فقال ابن أبي العمرطة لأبي الصيداء: لست من الخراج الآن في شيء فدونك هانئاً والإشحيذ. فقام أبو الصيداء يمنعهم من أخذ الجزية ممن أسلم، فكتب هاني إن الناس قد أسلموا وبنوا المساجد. فجاء دهاقين بخارى إلى أشرس فقالوا ممن نأخذ الخراج وقد صار الناس كلهم عرباً، فكتب أشرس إلى هاني وإلى الولاة خذوا الخراج ممن كنتم تأخذونه منهم فأعادوا الجزية على من أسلم، فامتنعوا واعتزل من أهل السغد سبعة آلاف فنزلوا على سبعة فراسخ من سمرقند وخرج

إليهم أبو الصيداء وربيع بن عمران التميمي والقاسم الشيباني وأبو فاطمة الأزدي وبشر بن جرموز الضبي وخالد بن عبد الله النحوي وبشر بن زنبور الأزدي وعامر بن بشير الخجندي وبيان العنبري وإسماعيل بن عقبة لينصروهم. قال فعزل أشرس ابن أبي العمرطة عن الحرب واستعمل مكانه المجشر بن مزاحم السلمي وضم إليه عميرة بن سعد الشيباني. قال فلما قدم المجشر كتب إلى أبي الصيداء يسأله أن يقدم عليه هو وأصحابه، فقدم أبو الصيداء وثابت قطنة فحبسهما، فقال أبو الصيداء: «غدرتم ورجعتم عما قلتم». ثم حمل أبا الصيداء إلى الأشرس وحبس ثابت قطنة عنده، فلما حمل أبو الصيداء اجتمع أصحابه وولوا أمرهم أبا فاطمة ليقاتل هانئاً فقال لهم كفوا حتى أكتب إلى أشرس فيأتينا رأيه فنعمل بأمره فكتبوا إلى أشرس، فكتب أشرس: ضعوا عليهم الخراج، فرجع أصحاب أبي الصيداء فضعف أمرهم، فتتبعوا الرؤساء منهم فأخذوا وحملوا إلى (مرو) وبقي ثابت محبوساً وأشرك أشرس مع هاني، سليمان بن أبي السري مولى بني عوانة في الخراج فألح هاني والولاة في جباية الخراج، وأخذوا الجزية ممن أسلم من الضعفاء فكفرت السغد وبخارى واستجاشوا الترك. «انتهى كلام الطبري».

هذه النصوص التي تقدمت وردت في تاريخ الطبري وإننا نقف الآن عندها لنتحدث عنها ثم ننتقل إلى ما جرته هذه الخطة الأموية في هذه الحادثة بالذات على المسلمين والعرب من فواجع وكوارث وأهوال.

ضمير يتيقظ مؤقتاً

من المؤسف أنه لم يكن القصد من هذا الذي سموه الفتوح والغزوات، الخير للعرب وللإسلام لأن هؤلاء الذين قضت الأقدار بأن يقودوا العرب والمسلمين في هذا الظرف، هم أبعد الناس عن مصلحة العرب والمسلمين، بل هم الشر الأول الذي نكبت بهم العروبة والإسلام حين مثلوهما في تلك البلاد البعيدة فساروا فيها المسيرة الشوهاء التي نفرت الناس وأثارتهم.

هذا والي الأمويين على خراسان الأشرس بن عبد الله، في ساعة من ساعات استيقاظ الضمير يعن له أن يتخلى عما سار عليه هو وأسلافه من استرقاق الناس ونهب أموالهم، ومصادمة مبادىء الإسلام المثلى وأخلاق العرب الفضلى، وأن يعيد نفسه إلى ما كان مفروضاً فيه أن يكون: داعية هداية وإرشاد، ورسول رحمة وعدل، يحمل إلى من يليه من الأمم والشعوب المبادىء التحررية القويمة التي نادى بها محمد بن عبد الله ﷺ، لقلب أوضاع الناس وخلق المجتمعات المثالية فيهم، والتي شاء الله أن يحمل دعوتها العرب حين اختار لرسالته محمداً ﷺ منهم.

هذا الأشرس والي الأمويين في ساعة من ساعات استيقاظ الضمير عن له أن يعود عربياً مؤمناً كالمأمول في العربي المؤمن، فقال ابغوني رجلاً له ورع وفضل أوجهه إلى من وراء النهر فيدعوهم إلى الإسلام.

إذن فلم يكن فيمن يحيط بهذا الوالي من له ورع وفضل، وإذن فإن الأمة محكومة بمن لا ورع فيهم ولا فضل، فالوالي حين يريد رجلاً من هذا الطراز يحتاج للتفتيش عليه.

وإذن فلم يكن من همّ الوالي الأموي من قبل أن يدعو الناس إلى الإسلام، فهو بعد طول المدة يفكر فيمن يرسله إلى ما وراء النهر للدعوة إلى الإسلام.

ثم ها هم الناس يدخلون في الدين أفواجاً حين يرون الدعاة إليه من أمثال أبي الصيداء.

ولكن الضمير الذي استيقظ في ساعة من الساعات أثبت أن استيقاظه إنما كان صحوة الموت.

لقد عاد فأغفى ثم نام نومه الأبدي فلم يستيقظ ولم يعد للحياة أبداً.

حقيقة مهمة الحاكم الأموي

فهذا الأشرس عاد إلى حقيقة مهمته فاستلهمها تصرفاته، وما هي مهمته في الأصل؟ أهي حمل دعوة الهدى إلى الشعوب، وإنقاذ البشرية مما كانت تعانيه من فساد مجتمعاتها؟ إن شيئاً من هذا لم يودع إلى الأشرس فالجالس على العرش في دمشق الذي يمثله الأشرس ويحكم باسمه لم يكن من همه ما يؤول إليه أمر العرب والمسلمين ودعوتهم، إن همه وجود السبيل الذي يملأ به خزائنه لينفق منها على الموبقات وشراء الضمائر، وإن همه أن تكثر الجواري ليحيط مجلسه بالمئات منهن، وإن همه أن يجرد البلاد العربية من كل مفكر حر ومن كل قوة شعبية، وأن يستصفي النخبة فيوردها الموت فإن لم يستطع الحجاج وزملاء الحجاج أن يبيدوا أكثر من مئات الألوف التي أبادوها فإن سهول سجستان وثنايا بخارى وعقاب الصغد وأسوار سمرقند، وماهو أبعد من ذلك وما هو أقرب، كفيلة بأن تبيد من لم تستطع سيوف الطغاة أن تبيده صبراً من أحرار الأمة العربية ومفكريها.

لقد عاد الأشرس إلى حقيقة مهمته فاستلهمها تصرفاته، فإذا دخل الناس في الإسلام أفواجاً وإذا مضوا في الاستعراب، فمن أين يملأ خزائن الملوك في دمشق، ومن أين يوفد لهم الجواري.

لذلك عاد الأشرس يتحيل للتخلص مما ورط نفسه به، فارتأى أن لا يكتفي ببناء المساجد، بل أن يشترط فيمن أسلم منذ أيام شروطاً يعلم هو قبل غيره أن تحقيقها مستحيل. إنه يريد من هؤلاء الذين لم يعرفوا العربية أن يكونوا قد تعلموا هذه اللغة في الحال وأن يدرسوا القرآن في بضعة أيام ويحفظوا سوره، ويريد من هؤلاء الذين تجاوزوا كلهم مراحل الشباب الأولى وتجاوز أكثرهم الشباب نفسه وصاروا في الكهولة والشيخوخة، يريد منهم أن يختتنوا في الحال، فإن لم يفعلوا ذلك كله فيجب أن يعودوا إلى الوثنية والكفر.

ونسي هذا الأشرس أن أسلافه مشركي قريش وعلى رأسهم أبو سفيان الذين قاتلوا محمداً حتى آخر نفس وحاربوه حتى آخر سهم، ثم اضطروا أن يسلموا عند فتح مكة. نسي هذا الأشرس أن محمداً صاحب الرسالة اكتفى منهم بإعلان الإسلام ولم يطلب يوم ذاك من أبي سفيان ومن ابنه معاوية شروطاً مثل هذه الشروط ليصح إسلامهما.

دائماً الاختتان

ومن الطريف أن قضية الاختتان كانت دائماً النقطة التي يقف عندها عمال الحكم الأموي فإذا رأوا أن الناس قد أسلموا وحسن إسلامهم وأن لا سبيل لهم عليهم ليسلبوا أموالهم ويردوهم عن الإسلام عادوا يطالبونهم بالإختتان.

فقد حدث الشيء نفسه في عهد عمر بن عبد العزيز، وهو ما ذكرناه فيما تقدم من القول. ونذكر هنا تمام القصة التي كان فيها عمر بن عبد العزيز الحاكم العربي المسلم الذي يأخذ بشمائل العرب وشرائع الإسلام ويطبق ذلك التطبيق السليم، وهو ما تجافى عن السير في مضماره أسلاف عمر وأخلافه من الحكام الأمويين. فقد كتب عمر إلى الجراح: أنظر من صلى إلى القبلة فضع عنه الجزية. فسارع الناس إلى الإسلام. فقيل للجراح: إن الناس قد أسرعوا إلى الإسلام وإنما ذلك نفوراً من الجزية فامتحنهم بالختان. فكتب الجراح بذلك إلى عمر، فكتب إليه عمر: إن الله بعث محمداً داعياً ولم يبعثه خاتناً.

الخاتمة الفظيعة

وكتب هاني إلى الأشرس إن الناس قد أسلموا وبنوا المساجد، فلم يشأ هاني هذا أن يثقل ضميره فشهد بإسلامهم وإسراعهم إلى بناء المساجد، ولكن الإسلام وبناء المساجد ليسا مما يرضيان والي الأمويين، وما المساجد وما العرب وما المسلمون والإسلام، إذا كان ذلك يحول دون سلب الشعوب واستصفاء أموالها. فأصر الأشرس على أخذ الجزية ممن كانوا يأخذونها ولو حال ذلك دون انتشار الإسلام واستعراب الناس.

ومما يلفت النظر هنا أن الدهاقين وهم مجوس كانوا من رأي الأشرس، وهذا يؤكد أنه قد هالهم انتشار الإسلام وسيادة العنصر العربي، وخافوا المستقبل وطغيان الدعوة الإسلامية وتوغل العروبة في النفوس. فقالوا للوالي الأموي:

ممن نأخذ الخراج وقد صار الناس كلهم عرباً؟![1].

الدهاقين المجوس الذين كان الأمويون يولونهم جباية الخراج ويمنعون العرب والمسلمين من ذلك، الدهاقين يتفق رأيهم كل الاتفاق مع الرأي الأموي في منع انتشار الإسلام وسيطرة العروبة، فيحرضون الأمويين وعمالهم على هؤلاء الذين أسلموا وبدأوا يستعربون فيقولون: ممن نأخذ الخراج وقد أصبح الناس كلهم عرباً.

لقد أحسوا الخطر قبل غيرهم وخافوا على مجوسيتهم أن يجرفها الإسلام والعروبة فتصايحوا مغضبين: لقد أصبح الناس كلهم عرباً. وماذا يسوء الأشرس وسادته الأمويين إذا صار الناس كلهم عرباً ومسلمين؟ نحن نفهم أن يسوء ذلك دهاقين المجوس ولكن أن يسوء ذلك حكام الدولة العربية، فذلك هو العجيب.

إنه عجيب على من لم يعلم أحداث هذه الدولة وموقفها الصحيح من العروبة والإسلام، ولكنه ليس بعجيب عند من يعلم ذلك، ليس بعجيب أبداً أن يتفق رأي الدهاقين المجوس مع رأي الأمويين من سيادة العرب وانتصار الإسلام.

ولا نستطيع إلا أن نحيي (الورع الفاضل) أبا الصيداء وعصبته الخيرة الذين أخرجهم معه ليعينوه إذا لم يف الولاة فإنهم تضامنوا جميعاً مع أهل الصغد وذهبوا إلى السبعة الآلاف الذين اعتزلوا لينصروهم ويتفقوا معهم. ولكن الولاة استدرجوا هؤلاء الأبرار فكان مصيرهم السجن والنفي والتشريد.

نعم، السجن والنفي والتشريد للذين دعوا إلى الإسلام، للذين أسلمت على أيديهم الأفواج، واستعربت بدعوتهم الألوف.

ثم كانت النتيجة الحتمية لكل ذلك، النتيجة التي أرادها الأمويون وولاتهم، كانت النتيجة بنص الطبري: فكفرت الصغد وبخارى واستجاشوا الترك. وقرت عيون الدولة (العربية الإسلامية) فالدعاة إلى الإسلام والعروبة في سجونها ومنافيها، والناس يخرجون من الإسلام ويعودون إلى مجوسيتهم ووثنيتهم، وهل تريد الدولة غير ذلك.

---

(١) المصدر في ذلك كله هو الطبري

ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد، والبلاء كان أقوى مما نتصور، فإن كفر الصغد وبخارى واستجاشتهم الترك لم تمض مضياً سهلاً بل دفع العرب الثمن غالياً، دفعوه أكثر من سبعين ألف قتيل من فتيان العرب المناجيد وشبانهم المغاوير وكهولهم المذاويد.

دفعوه هناك لسيوف الصغد وبخارى وخاقان الترك على السفوح القفراء والسهوب الجرداء والمفاوز المهلكة.

فإن الصغديين والبخاريين قرروا أن يردوا على الأشرس رداً جباراً يتناسب وما نالهم من الخيبة، فلم يروا أفضل من اللجوء إلى السيف فحالفوا خاقان الترك وهددوا الأشرس بقوى عظيمة. ورأى الأشرس الخطر الداهم فزحف يرده. يقول الطبري متحدثاً عن تلك الوقائع: ومضى الأشرس بالناس حتى نزل (بيكند) فقطع العدو عنهم الماء إلى أن يقول: فأصبحوا وقد نفد ماؤهم فاحتفروا فلم يخرج الماء وعطشوا. ثم يقول: فلقيهم العدو فقاتلوهم فجهدوا من العطش فمات منهم سبعمائة (من العطش) وعجز الناس عن القتال.

سبعمائة عربي يموتون من العطش بين يدي الأشرس في متاهات (بيكند) لأن الوالي الأموي الأشرس يرفض إسلام الوثنيين ولا يريد إلا المال.

وما أشجى ذاك الصوت العربي الكريم الذي ارتفع في تلك الساعة منادياً، ما أشجى صوت الحارث بن سريع وهو يهتف بالناس العطاشى الذين يموتون الواحد وراء الآخر: أيها الناس، القتل بالسيف أكرم في الدنيا وأعظم أجراً عند الله من الموت عطشاً.

وما أشد حزن ذاك الشاعر الذي أنشد يومذاك:

غابت سرية مسعود وما غنمت — إلا أنانين من شد وتقريب

حلوا بأرض قفار لا أنيس بها — وهن بالسفح أمثال اليعاسيب

وتتابعت المعارك معركة بعد معركة، وفي كل منها تتساقط ألوف الأبطال صرعى في سبيل لا شيء، وحسبك أن معركة واحدة منها بقيادة سورة بن الحر التميمي كان فيها اثنا عشر ألف شاب عربي، خرج فيهم سورة تنفيذاً للأمر، فقال له الوجف بن خالد العبدي: «إنك لمهلك نفسك والعرب بمسيرك». لقد كان هذا العبدي كما كان غيره من العقلاء يعرفون مصير هذه الحملات، فأراد أن يريح ضميره بهذا التحذير لعله يستطيع إنقاذ هذه النفوس العربية البريئة.

ولكن الأوامر كانت هي الأوامر، ولا من يجرؤ على مخالفتها، فالتقى سورة وجيشه بخاقان الترك، فلم ينج من الجيش العربي الإسلامي سوى ألف وذهب الباقون طعمة للسيوف وللنيران.

نعم للنيران، فكما ماتوا من قبل من العطش ماتوا الآن من الحريق، فإن نيراناً أشعلها الأعداء أمامهم في الحشائش والغابات يقول الطبري: «وثار الغبار فلم يبصروا ومن وراء الترك اللهب فسقطوا فيه» وقتل فيمن قتل سورة قائد الجيش، وقتل كذلك صاحب التحذير: الوجف بن خالد العبدي قتلة شنيعة. واستمرت المعارك وكان من أشدها هولاً معركة «الشعب» التي فني فيها الجيش العربي وقتل منه خمسون ألف قتيل[١].

الشعر في المعركة

وفي تلك المعارك يقول الشاعر ابن السجف:

اذكر يتامى بأرض الترك ضائعة ... هزلى كأنهم في الحائط الحجل

وارحم وإلا فهبها أمة دمرت ... لا أنفس بقيت فيها ولا ثقل

لاقوا كتائب من خاقان معلمة ... عنهم يضيق فضاء السهل والجبل

لما رأوهم قليلاً لا صريخ لهم ... مدوا بأيديهم لله وابتهلوا

ويقول الشرعبي الطائي:

تذكرت هنداً في بلاد غريبة ... فيالك شوقاً هل لشملك مجمع

تذكرتها «والشاش» بيني وبينها ... وشعب عصام والمنايا تطلع[٢]

بلاد بها خاقان جم زحوفه ... ونيلان في سبعين ألفاً مقنع

إذا دب خاقان وسارت جنوده ... أتتنا المنايا عند ذلك مشرع

هنالك هند، مالنا النصف منهم ... وما إن لنا يا هند في القوم مطمع

ألا رب خود خدلة قد رأيتها ... يسوق بها جهم من السغد أصمع

أحامي عليها حين ولى حليلها ... تنادي إليها المسلمين فتسمع

تنادي بأعلى صوتها صف قومها ... ألا رجل منكم يغار فيرجع

(١) الطبري.

(٢) شعب عصام: ينسب إلى عصام بن عبد الله الباهلي، وكان قبل ذلك يعرف باسم (أسفره)

ألا رجل منكم كريم يردني ... يرى الموت في بعض المواطن ينفع
فما جاوبوها غير أن نصيفها ... بكف الفتى بين البرازيق أشنع
إلى الله أشكو نبوة في قلوبها ... ورعباً ملا أجوافها يتوسع
فمن مبلغ عني ألوكا صحيفة ... إلى خالد من قبل ما تتوزع
بأن بقايانا وإن أميرنا ... إذا ما عددناه، الذليل الموقع
هم أطمعوا خاقان فينا وجنده ... ألا ليتنا كنا هشيماً يزعزع

وقال ابن عرس يخاطب الجنيد وهو الذي أصر على سورة بن الحر التميمي بالخروج في حملته التي أبيدت، وحاول سورة أن يقنعه بالعدول عن ذلك فأرسل إليه الجنيد يشتمه ويأمره بتنفيذ الأوامر العليا. قال ابن عرس:

أين حماة العرب من معشر ... كانوا جمال المنسر المارد
بادوا بآجال توافوا لها ... والعاثر الممهل كالبائد
فالعين تجري دمعها مسبلا ... ما لدموع العين من ذائد
كنا قديما يتقى بأسنا ... وندرأ الصادر بالوارد
حتى مضينا بالذي شامنا ... من بعد عز ناصر آبد
فتقت ما لم يلتئم صدعه ... بالجحفل المحتشد الزائد
ترقت الأسياف مسلولة ... تزيل بين العضد والساعد
تساقط الهامات من وقعها ... بين جناحي مبرق راعد
أضحت (سمرقند) وأشياعها ... أحدوثة الغائب والشاهد
وكم ثوى في (الشعب) من حازم ... جلد القوى ذي مرة ماجد[1]
يستنجد الخطب ويغشى الوغى ... لا هايب غس ولا ناكد
ليتك يوم الشعب في حفرة ... مرسومة بالمدر الجامد

(١) معركة الشعب هي إحدى المعارك التي فني فيها العرب يومذاك، وهي المعركة التي قادها سورة فأبيد جيشه وقتل هو مع الجيش. ويبدو من قصيدة هذا الشاعر أن معركة الشعب هذه أسفرت عن قتل خمسين ألف قتيل عربي. ومن نصوص الطبري يفهم أن المعارك بقيت مستمرة واحدة بعد الأخرى حتى كانت معركة الشعب التي يتحدث عنها هذا الشاعر.

لا تحسبن الحرب يوم الضحى ... كشريك المزاء بالبارد
أبغضت من عينك تبريحها ... وصورة في جسد فاسد
خمسون ألفاً قتلوا ضيعة ... وأنت منهم دعوة الناشد

الواقع أن الشعر قد استطاع أن يردد على الأجيال العربية صدى المحن التي حلت بالعرب على أيدي حكامهم، وهذا الشعر الذي نرويه هنا هو بعض ما استطاعت تلك الجماهير العربية المعذبة أن تعبر به عما في نفوسها من أشجان وما في جسمها من آلام!.

لم تنظم هذه القصائد في معركة واحدة، بل نظمت في أوقات متقاربة فعندما كانت تثور المعركة ويرى الشاعر بعينيه فواجع إخوانه وفاجعته هو نفسه وما آل إليه أمر هذا الشعب البائس المنكود وكيف أهدر حكامه دماءه في أقصى الأرض، بلا هدف سوى محاولة إملاء خزائنهم بالمال وقصورهم بالقيان، وسوى التخلص من حيوية الأمة ونظراتها المتطلعة إلى حياة فضلى!.

عندما كان الشاعر يرى ذلك، كان الشعر يتدفق من صدره أنيناً مراً ودموعاً غزيرة، فنرى الشاعر الأول ابن السجف، قد حرك عاطفته مشهد اليتامى الضائعين الذين خلفتهم وراءها تلك الألوف من الشهداء هزلى تائهين لا يدرون أين يذهبون!.

وهذا مشهد إنساني مثير، مشهد الطفولة اليتيمة المشردة الضائعة، مشهد يهز الجماد فكيف لا يهز الشاعر!

وفي أي شيء تشردت تلك الورود العربية النضيرة، وهزلت تلك الجسوم الصغيرة، وفي أي غاية مات الآباء فتيتم الأبناء؟!

لأن (الدولة العربية!) رفضت إسلام المجوس والوثنيين واستعرابهم ولأن الأشرس والي الأمويين بلغت به التقوى إلى الحد الذي لا يقبل في إسلام الأعاجم واستعرابهم إلا إذا حفظوا القرآن في الحال واختتنوا في الحال!!

لأن (الدولة العربية!!) ولأن ممثلها الأشرس يريدون المال ولا شيء غير المال، يريدون الكنوز، يريدون القناطير المقنطرة من الذهب والفضة!

في هذا السبيل وحده تيتم من تيتم وقتل من قتل، ولهذا قال الشاعر:

اذكر يتامى بأرض الترك ضائعة ... هزلى كأنهم في الحائط الحجل

ومن هو الذي يريد منه هذا الشاعر أن يذكر؟! أهو الوالي الأشرس وغير الأشرس ممن لا يقلون عنه شراسة وفظاظة، أم الجالس على العرش في دمشق، أم أي رجل من رجال الحكم الأموي؟!

إن كان يريد واحداً من هؤلاء، فهؤلاء لا يمكن أن يذكروا اليتامى والأيامى!.

إن هؤلاء يذكرون شيئاً واحداً هو هل ستعجز الحملة القادمة عن أن تنقل إليهم خزائن الترك وسباياهم كما عجزت هذه الحملة، أم أنها لن تعجز!. هذا هاجسهم الوحيد! أما اليتامى الضائعة والطفولة المشردة، فهذا ليس من شأنهم!

ويكمل هذا الشاعر شعره، فبعد أن يخاطب المَجهول ويطلب إليه أن يذكر اليتامى يقول: وارحم!. اذكر اليتامى وارحمهم، ارحم هزالهم وارحم ضياعهم وارحم حيرتهم وارحم مستقبلهم!.

أيها الشاعر الكريم: إن الرحمة هي الأخرى يتيمة في عصرك الأموي!.

وارحم، وإلا فهبها أمة دمرت ... لا أنفس بقيت فيها ولا ثقل

بهذا البيت صور الشاعر ضياع الأمة نفسها، لا ضياع يتاماها فحسب!.

وكأنه عز عليه أن تسجل على أمته تلك الهزائم النكراء، أو ينسب إليها الجبن والتخاذل، فقال يعتذر عما لاقاه أولئك الذين حلت بهم الهزائم وأبيدوا:

لاقوا كتائب من خاقان معلمة ... عنهم يضيق فضاء السهل والجبل

ثم يصف محنة قومه وانقطاعهم في تلك البراري الموحشة أمام ذلك العدو الرهيب:

لما رأوهم قليلاً لا صريخ لهم ... مدوا بأيديهم لله وابتهلوا

الحكم الذي عارضه الأحرار

هذه السياسة التي سار عليها الحكم الأموي، وهذه الأحداث التي رأينا مثالاً منها هي التي عارضها من عارضها ودعا إلى الرجوع إلى الصواب في حكم الشعوب ومعاملتها بالعدل وتطبيق رسالة الإسلام عليها التطبيق الذي أراده محمد بن عبد الله ﷺ.

وكانت نقمة الشعب نقمة عامة ولكنه كان محكوماً بالقهر، والسيف مسلط عليه، وعندما كانت تحين له أول فرصة كان يعبر عن نقمته بشتى ألوان التعبير، وعندما كان يجد للثورة المسلحة مجالاً كان لا يتأخر عنها كما رأينا في الثورة التي تقدم ذكرها وشاءت الظروف أن يتزعمها عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث والعوامل التي سببت تلك الثورة خير صورة

عن حالة الشعب وحكامه الأمويين وعن حقيقة الروابط التي كانت تربط ذلك الشعب بأولئك الحكام.

كيف كان الحكام الأمويون يمثلون الإسلام

رأينا فيما تقدم كيف أن الحكام الأمويين كانوا يحولون بين الناس وبين الاستعراب والدخول في الإسلام، وكيف أن همهم كان سلب الأموال، وكيف أن تصرفاتهم هذه أدت لا إلى خروج الناس من الإسلام فقط، بل إلى قتل عشرات الألوف من المسلمين، وكيف كانت نتائجها مذابح رهيبة أريقت فيها دماء المسلمين ودماء الشعوب الأخرى كالأنهار وسنرى فيما يلي كيف كانت معاملة الحكام الأمويين لأهل البلاد المفتوحة، وكيف كانوا يتصرفون حين يقدر لهم أن ينتصروا.

قال الطبري وهو يتحدث عن إحدى الحملات على بلاد الأتراك، وكان يقودها أحد أركان العهد الأموي يزيد بن المهلب: (دخل يزيد بن الملهب دهستان فأخذ ما كان فيها من الأموال والكنوز والسبي شيئاً لا يحصى، ثم قبض على أربعة عشر ألف رجل تركي وقتلهم، وكتب بذلك إلى الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك).

وتحدث الطبري في موضع آخر عن هجوم يزيد هذا على جرجان فقال: (قصد جرجان فأعطى الله عهداً لئن ظفر بأهلها أن لا يتركهم ولا يرفع عنهم السيف حتى يطحن بدمائهم ويخبز من ذلك الطحين ويأكل منه).

ثم يصف الطبري ما جرى بعد انتصار يزيد: (ونزل أهل جرجان على حكم يزيد بن المهلب فسبى نساءهم وأولادهم وقتل رجالهم، وصلبهم فرسخين عن يمين الطريق ويساره، وساق منهم اثني عشر ألف رجل إلى وادي جرجان وقتلهم هناك وأجرى الماء في الوادي على الدم، وكان فيه مطاحن ليطحن بدمائهم، فطحن وخبز وأكل).

يقول الطبري: (قتل يزيد من أهل جرجان أربعين ألفاً).

هذا ما فعله حاكم أموي واحد في بلدتين اثنتين فقط، وإليك ما فعله حاكم أموي آخر هو قتيبة بن مسلم حاكم خراسان. قال الطبري: إنه قتل نيزك بعدما أمنه وقتل معه اثني عشر ألفاً. وقال الطبري أيضاً: (إن قتيبة لما تغلب على ملك (خام جرد) جيء إليه بأربعة آلاف أسير فقتلهم، قتل أمامه ألف وعن يمينه ألف وعن يساره ألف وخلف ظهره ألف).

ويقول الطبري عن حاكم آخر من حكام الأمويين هو قحطبة بن شبيب أنه قتل من أهل جرجان زهاء ثلاثين ألفا.

وقال الطبري أيضاً أن الجراح الحكمي غزا أرض الترك ففتح (بلنجر) وهزم الترك وغرقهم وعامة ذراريهم في الماء وسبوا ما شاؤوا. وقال الطبري أيضاً وهو يروي عن الوالي الأموي ابن العمرطة في إحدى غزواته لبلاد الترك: لقد أتيناهم وغلبناهم على أمرهم واستعبدناهم (لاحظ كلمة استعبدناهم).

هذا الذي أوردناه في ما تقدم هو حوادث عادية كات تقع دائماً، وكل الحكام الأمويين والقواد كانت سيرتهم في البلاد المفتوحة على هذا المنهج من القتل والنهب والسبي. فماذا كانت نتيجة هذه الفتوح على الإسلام والمسلمين؟

ما لنا وللنظريات ولننظر إلى النتائج العملية لتلك الفتوح ونأخذ منها الحملات الشرقية ابتداء من محمد بن القاسم إلى محمود الغزنوي، تلك الحملات التي استهدفت فتح الهند والسيطرة عليها.

إنه في طيلة تلك القرون الطويلة، ومع تلك القوى الرهيبة لم يستطع الإسلام أن ينفذ إلا إلى عدد ضئيل من سكان الهند وظلت الهند بأكثريتها الساحقة غير مسلمة وصار أهلوها من أعدى أعداء الإسلام والمسلمين.

وكيف ينتشر الإسلام في الهند وغير الهند وممثلو الإسلام فيها رجال تخرجوا على يدي الحجاج بن يوسف وأشباهه من السفاحين، وكيف يرغب البوذيون والهندوس والمجوس في الإسلام وأعمال حكامه مثل الأعمال التي رأينا صورة عنها فيما تقدم، وكيف ينتشر الإسلام، ويدخل فيه الناس وأفعال قواده منبثقة عن الوضع الذي قال عنه عمر بن عبد العزيز: (امتلأت والله الأرض ظلماً).

وفي مقابل ذلك فلننظر إلى ما فعلته الدعوة الإسلامية في بلاد أخرى حين تقدمت وشعارها الإسلام، ودعاتها رجال من صميم الشعب لا يطمعون إلا بهداية الناس وإرشادهم ولا يرجون إلا سيادة العدل الحق.

لننظر ما فعلته في جزر متفرقة وأرض متباعدة مثل أندونيسيا، فإن المائة والتسعين المليون المسلم الذين يتألف منهم مجموع الجزر الأندونيسية لم يدخلوا الإسلام لأن سيفاً مثل سيف محمد بن القاسم سلط عليهم، أو أن خيلاً مثل خيل محمود الغزنوي هبطت إليهم، بل

دخلوا الإسلام لأن تجاراً بسطاء مؤمنين، وعلماء أبرياء مخلصين، هدوا الناس بأعمالهم قبل أقوالهم، وحملوا الإسلام على قلوبهم رحمة وعدلاً وحقاً وإنصافاً، ففي الوقت الذي لم يسلم فيه إلا القليل من الهنود، أسلم كل الأندونيسيين.

وإن إسلام من أسلم من الهنود إنما كان على أيدي المؤمنين البسطاء لا على أيدي السفاحين الطغاة، وإنه لولا هؤلاء الطغاة الذين رأينا مثالاً لأعمالهم فيما تقدم لكان للإسلام في الهند مثل ما كان له في أندونيسيا[1].

لقد كان مقدراً للترك أن يسلموا بمجرد وصول المسلمين إليهم، ولكن الحكم الغاشم، والحكام السفاحين، حالوا بجرائرهم دون ذلك. فعادت أرض تركستان ـ كما عاد غيرها ـ مجازر تراق فيها الدماء العربية، ويذبح فيها شبان العرب وتفنى جموعهم أرضاء لشهوات الحكام وإشباعاً لنزواتهم.

ثم رأينا كيف أن الترك عادوا فأسلموا بعد ذلك بحوالي قرنين ونصف القرن حين تقلص ظل أولئك الحكام، وتولى الدعوة إلى الإسلام غير القواد وغير الفاتحين.

(١) قال الرحالة ابن بطوطة وهو يتحدث عن رحلته في الهند ووصوله إلى بعض جبالها: (هي جبال متسعة متصلة بالصين وتتصل أيضاً ببلاد التيبت، وكان قصدي بالمسير إلى هذه الجبال لقاء ولي من أولياء الله بها هو الشيخ جلال (التبريزي).
وبعد أن يصف ابن بطوطة لقاءه لهذا الشيخ يقول: (وعلى يديه أسلم أهل تلك الجبال ولذلك أقام بينهم).
وجاء في كتاب (الإسلام الصراط المستقيم) من بحث لمظهر الدين صديقي أنه قدم إلى الهند في القرن الخامس الهجري اثنان من كبار رجال الصوفية هما سالار مسعود والشيخ إسماعيل وأدخلا في الإسلام آلاف الناس بالرغم من عدم وجود حاكم مسلم في الهند في ذلك الحين.

وقعة الحَرّة[1]

كان وصول يزيد بن معاوية إلى الخلافة موضع نقمة العالم الإسلامي، وقد عبّر هذا العالم عن نقمته بشتى الأساليب، ولم يكن عجيباً أن تكون مدينة الرسول في طليعة الناقمين. وقد كان معاوية طيلة مدة خلافته قد تعمد إذلال (المدينة) وإذلال أهلها لأنه لم ينس لهم أنهم كانوا مادة القوة العسكرية في معركة بدر، وهي المعركة التي شهدها هو بنفسه مع المشركين فنجا من القتل بفراره ركضاً على قدميه.

وإذا كان معاوية قد نجا فإن أخاه حنظلة قتل، وقتل كذلك جده عتبة وخاله الوليد وأخو جده شيبة، وذلت أسرته بيد مسلمي المدينة أنصار محمد ﷺ، الذي ظل اسم (الأنصار) الذي أطلقه عليهم النبي بحق ملازماً لهم، لأنهم أحسنوا نصره لا سيما يوم بدر.

وظل حقد معاوية على الأنصار يتلظى في قلبه حتى ولي الخلافة فانتقم منهم بشتى وسائل الانتقام منها أنه أغرى شاعره الأخطل بهجائهم فقال فيهم فيما قال:

ذهبت قريش بالمفاخر كلها ... واللؤم تحت عمائم الأنصار

وكان قد حاول أن يغري بهم أكثر من شاعر، ولكن الشعراء المسلمين رفضوا التعرض لهم، واستجاب له شاعر غير مسلم.

محمد بن عبد الله ﷺ يقول بعد موقعة حنين: «لولا الهجرة لكنت أمرأ من الأنصار،

(١) الحَرّة (بفتح الحاء وتشديد الراء): أرض ذات حجارة سود وكأنها أحرقت، والحرات في بلاد العرب كثيرة، أكثرها حوالي المدينة إلى الشام. وفي المدينة حَرّتان، إحداهما اسمها حرة واقم وهي التي جرت فيها الوقعة التي نتحدث عنها سنة ٦٣هـ.

لو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار».

محمد بن عبد الله ﷺ يقول هذا القول في الأنصار فيرد عليه شاعر معاوية: اللؤم تحت عمائم الأنصار. لم يكن معاوية يستطيع أن يأمر شاعره بهجاء محمد باسمه الصريح فأمر شاعره أن يهجو أنصاره ملحقاً بهم محمداً دون أن يسميه... ألم يقل محمد ﷺ إنه لولا الهجرة لكان من الأنصار؟ فهو يجعل نفسه واحداً منهم، إذن فليهج شاعر معاوية الأنصار أفظع هجاء!. وهل أفظع من أن يقول إن اللؤم تحت عمائمهم؟! ليهجهم شاعره فإنه بهذا الهجاء يروي غليله من محمد أولاً لأن محمداً أعلن أنه أنصاري، ثم يشفي غليله منهم!...

إن هجاء الأنصار كان في حقيقته هجاء لمحمد... الأنصاري العريق... وأكثر من ذلك: أنه تحد عنيف لمحمد ﷺ الذي قاتلته قريش يوم بدر، تحد له في عداء قريش له بزعامة أبي سفيان. فتمدّح محمد بالأنصار كان يعني في الواقع تعريضاً بقريش، التي ناصبته وناصبتهم العداء، لذلك بدأ الشاعر أولاً بالإشادة بقريش التي ذهبت بالمفاخر كلها، وأعظم مفاخرها عند معاوية وشاعره أنها كانت عدوة محمد وعدوة دعوته، وعندما يشيد شاعر معاوية بها فهو إنما يشيد بهذه العداوة.

فهذا الشعر هو أولاً مدح لقريشٍ بزعامة أبي سفيان التي طاردت محمداً وكفرت بدعوته وعذبت أنصاره، ثم همت بقتله لولا فراره منها إلى (الأنصار) الذين حموه منها وآمنوا بدعوته، ثم هزموا قريشاً يوم بدر بعد أن قتل بعض زعمائها وفي طليعتهم حنظلة أخو معاوية وجده عتبة وخاله الوليد وأخو جده شيبة. ثم هو هجاء لمحمد المعلن انتماءه للأنصار وتحد له ورد عليه...

ومن انتقام معاوية من الأنصار أبطال معركة بدر أنه عندما دخل حاجبه يطلب لوفدهم الإذن بالدخول عليه، وقال له إن وفد الأنصار في الباب، هاج هائج معاوية وذكرته هذه الكلمة (الأنصار) بيوم بدر بمقتل أخيه وجده وخاله، فقال لحاجبه قل لهم: ليدخل أبناء قيلة[1].

---

(١) قيلة التي نسب إليها الأوس والخزرج (الأنصار) هي أم للأخوين: الأوس والخزرج، وقيل إنها قيلة بنت كاهل بن عذرة بن سعد، وقيل هي بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة بن عمرو مزيقياء (عرف بذلك لأنه كان يخرق كل يوم حلة حتى لا يلبسها أحد بعده).

رفض أن يلقبهم بلقبهم الذي أطلقه عليهم النبي ﷺ لأنه إشعار بما ناله وقومه المشركين على أيديهم يوم بدر، فلقبهم بلقبهم الجاهلي، لأنهم كانوا يُدعون قبل الإسلام بأبناء قيلة.

ولما قال حاجبه: ليدخل أبناء قيلة، رفض الأباة منهم هذا اللقب ورفضوا الدخول وقال قائلهم:

يا سعد لا تجب النداء فما لنا ... لقب نجيب به سوى الأنصار

ويطول بنا مجال القول لو أردنا تعداد ما حاول به معاوية إذلال الأنصار من محاولات على أن من أفظع ما فعل بهم أنه أفقرهم كل الإفقار.

يقول ابن قتيبة في كتابه (الإمامة والسياسة)، وهو يتحدث عن معركة (الحرة) وعواملها: «ثم قدم (عثمان بن محمد بن أبي سفيان الذي عينه يزيد بن معاوية والياً على المدينة)، فأقبل ابن ميثاء بسراح له من الحرة يريد الأموال التي كانت لمعاوية[1] فمنع منها وأزاحه أهل المدينة عنها. وكانت أموالاً اكتسبها معاوية ونخيلاً يجد منها مئة ألف وسق وستين ألفاً[2]. ودخل نفر من قريش والأنصار على عثمان فكلموه فيها فقالوا: قد علمت أن هذه الأموال كلها لنا، وأن معاوية آثر علينا في عطائنا، ولم يعطنا قط درهماً فما فوقه حتى مضنا الزمان ونالتنا المجاعة، فاشتراها منا بجزء من مئة من ثمنها.

فأغلظ لهم عثمان في القول وأغلظوا له، فقال لهم: لأكتبن إلى أمير المؤمنين بسوء رأيكم وما أنتم عليه من كمون الأضعان القديمة، والأحقاد التي لم تزل في صدوركم.

فافترقوا على موجدة، ثم اجتمع رأيهم على منع ابن ميثاء القيم عليها، فكفف عثمان بن محمد عنهم وكتب بأمرهم إلى يزيد بن معاوية. (ا.هـ).

وتلخص القضية بأن معاوية الحاقد على أهل المدينة أنصار رسول الله وأصحاب معركة بدر وحماة الإسلام قد ملك القوة للانتقام فبيده السلطة المطلقة التي يستطيع بها قهر الشعب والثأر منه، فعمل على إفقار أهل مدينة الرسول ومنع عنهم العطاء منعاً تاماً، حتى نالتهم المجاعة على حد تعبير وفدهم، فاضطروا لعرض أملاكهم للبيع وكان هو المشتري الوحيد، لذلك تحكم بالثمن فلم يعطهم جزءاً من مئة من ثمنها.

---

(١) ظل معاوية يعمل على إفقار أهل المدينة (الأنصار) حتى اضطروا لبيع أراضيهم ونخلهم بأثمان بخسة تحت وطأة العوز والحاجة فاشتراها هو نفسه.

(٢) **الوسق**: يعادل ستين صاعاً تقريباً، وكل صاع يساوي ٣ كلغ تقريباً.

ومات معاوية وأراد يزيد أن يستمر باستغلال أملاك المدنيين وأرضهم وجاء مندوبه ليحمل نتاجها، فتصدى له أصحابها ومنعوه من ذلك وأرادوا استرداد أموالهم، فذهبوا إلى والي يزيد على المدينة عثمان وطلبوا إليه التوسط في شأنهم، وأوضحوا له كيف اغتصب منهم معاوية أموالهم بإفقارهم.

ولكن الوالي لم يكن في وارد إنصاف الناس والاستماع إلى شكواهم فشتمهم مغلظاً لهم في القول، فلم يبالوا به وردوا عليه بالمثل، فهددهم بالكتابة في أمرهم إلى يزيد وفعل.

والملفت في هذا الموضوع هو قول الوالي لهم ـ وهو حفيد أبي سفيان ـ قوله لهم: «لأكتبن بسوء رأيكم وما أنتم عليه من كمون الأضغان القديمة والأحقاد التي لم تزل في صدوركم».

مع أن وفدهم إليه لم يتحدث عن الأضغان والأحقاد، وكل ما قاله هو المطالبة بحقوقهم واسترداد أموالهم. ولكن والي يزيد الذي يحمل ذهنية يزيد نفسها، وما فيها من الضغن والحقد على أهل المدينة أصحاب معركة بدر، كان أول ما ثار في نفسه ـ وهو يستمع إلى وفد أهل المدينة ـ هو ذلك الضغن وذلك الحقد، فكان رده لا مناقشة مطالبهم، ولا حتى الإعلان برد تلك المطالب، بل كان رده الحديث عن الأضغان والأحقاد.

لقد كتب الوالي عثمان إلى يزيد بأمر أهل المدينة. ويحدثنا عبد الله بن جعفر ـ كما يروي صاحب كتاب الإمامة والسياسة ـ أن يزيد استدعاه إليه بين يديه، فقال: دونك هذا الكتاب فاقرأه، فرأيت كتاباً قبيحاً فيه تعريض لأهل المدينة وتحريش. ثم قال: والله لأطأنهم وطأة آتي منها على أنفسهم.

ثم يقول عبد الله: إنه حاول أن يتوسط لديه، فأجابه يزيد: أقتل وأشفي نفسي. وألح عبد الله في وساطته، ويقول عن نفسه أن يزيد كان له سامعاً مطيعاً.

فكان كل ما حصل عليه من وعد من يزيد: أن قال له: إن ابن الزبير حيث علمت من مكة، وهو زعم أنه قد نصب الحرب، فأنا أبعث إليه الجيوش، وآمر صاحب أول جيش أبعثه أن يتخذ المدينة طريقاً.

ثم يقول يزيد كلاماً طويلاً خلاصته: أن على أهل المدينة أن يقروا بالطاعة وأن ينزعوا عن غيهم وضلالهم فعند ذلك يجوزهم الجيش إلى ابن الزبير. وإن أبوا قاتلهم، فإن ظفر بهم أباح المدينة ثلاثة أيام.

إن مطالبة (الأنصار) بأموالهم المغتصبة من عهد معاوية أثارت يزيد إلى هذا الحد، ولا شك أن ابن عمه عثمان واليه قد ذكّره بالأضغان والأحقاد.

ليس (الأنصار) هم الذين تحدثوا عن الأضغان والأحقاد ـ كما رأينا ـ بل الذي تحدث عنها عثمان والي يزيد وابن عمه، والأنصار كانوا مجرد مطالبين بحقوق مغتصبة، وما علاقة المطالبة بالحقوق بالأضغان والأحقاد؟ . . . ولكن عثمان صاحب الحقد والضغن أثارها في وجوه الأنصار، وذكّر بها يزيد في كتابه إليه وهو لا يحتاج إلى تذكير لذلك كان رد يزيد عليها في مخاطبته لعبد الله بن جعفر: والله لأطأنهم وطأة آتي بها على أنفسهم!.

وهل تكون مطالبة مواطنين للسلطة باسترداد أموالهم المغتصبة مدعاة لأن يهددهم رأس السلطة بأن يطأهم وطأة يأتي بها على أنفسهم.

لقد رأينا فيما تقدم أن لم تكن للأنصار تطلعات ثورية، ولا تفكير تمردي، بل كان كل ما قالوه وفعلوه هو أنهم عرضوا مظلمتهم على والي يزيد بكلام هين لين هادىء، إنهم يريدون أن ينظر الوالي بمطلبهم ويرد عليهم حقوقهم، لأنه هو المرجع الوحيد الصالح لذلك. إنهم لم يحملوا السلاح في وجه (ابن ميثاء) ولا هددوا باسترداد حقوقهم بالقوة، بل منعوه من تسلم نتاج أموالهم إلى أن يراجعوا الوالي، وبالفعل راجعوا الوالي شارحين له حالهم، فكان رد الوالي: الأغلاظ لهم وتذكيرهم بأضغان بدر وأحقادها.

ثم قدم (تقريره) ليزيد فوجد يزيد فرصته للثأر لمعركة بدر من الأنصار أهل المدينة، أبطال معركة بدر، فكان رد فعله على كتاب واليه إليه: لأطأنهم وطأة آتي بها على أنفسهم.

وعندما حاول عبد الله بن جعفر تهدئته كان صريحاً في جوابه كل الصراحة: «أقتل واشفي نفسي! . . .».

وهل في مطالبة الأنصار بحقوقهم المالية ما يدعو إلى القتل؟. وهل في ذلك ما يؤدي إلى علة نفسية تملكت يزيد ليعلن أنه يريد أن يشفي نفسه؟ . . .

لا . . . أبداً . . . إن الذي يدعو إلى القتل هو أن انتصار هؤلاء المدنيين لمحمد يوم بدر وقتالهم بين يديه أدى إلى ما أدى إليه في أسرة يزيد التي كانت تقود الفريق المقابل لمحمد وأنصاره . . .

وإن علة يزيد النفسية هي تذكر عمه وجده وخاله وقد قتلوا يوم بدر في محاربة محمد والإسلام، وتذكر أبيه معاوية وهو يفر هرباً مما أصاب أخاه وأسرته.

هذا ما كان يزيد يروم أن يشفي نفسه منه، وقد جاءته الفرصة المناسبة!.

وقد أدت وساطة عبد الله بن جعفر ـ كما رأينا ـ إلى لا شيء، بل إلى وعيد وتهديد يصر فيه يزيد على احتلال المدينة بالجيش الزاحف إلى ابن الزبير، ويطلب من أهل المدينة أن يقروا بالطاعة وينزعوا عن غيهم وضلالهم، فإن فعلوا كف عنهم وإلاَّ قاتلهم.

ها هي الشروط التي وضعها يزيد للكف عن أهل المدينة: أولاً: احتلال المدينة، ثم الإقرار بالطاعة، والنزوع عن الغي والضلال...

ويهمنا هنا أن نعرف تحديد الطاعة التي يطلبها يزيد من أهل المدينة، وتحديد الغي والضلال، وماذا يعني بهما.

نحن نعرف مما تقدم أنه حتى ذلك الوقت لم يكن لأهل المدينة ما يمكن أن يوصف بعدم الطاعة، سوى مطالبتهم باسترداد حقوقهم التي اغتصبها معاوية، ومما يمكن أن يوصف بالعصيان سوى محاولتهم منع (ابن ميثاء) من استلام نتاج أملاكهم إلا بعد البت بشكواهم التي رفعوها إلى الوالي عثمان بن محمد بن أبي سفيان.

وبهذا يمكننا أن ندرك مفهوم (الطاعة) التي يطلبها يزيد من أهل المدينة، وهي أن يتنازلوا عن حقوقهم ويصرفوا النظر عن المطالبة بأملاكهم المغتصبة، وإلا فهم العصاة الذين يجب تأديبهم!..

وندرك أيضاً ما يعنيه بالغي والضلال، اللذين يطلب من أهل المدينة النزوع عنهما، وهما الإصرار على المطالبة بالحقوق!...

وكم يبدو عبد الله بن جعفر ساذجاً حين يحسب أن في هذا الذي عرضه يزيد حلاً للعقدة، لذلك يقول: فرأيت هذا لهم فرجاً. ثم كتب لهم بما عرضه يزيد وحضهم على الطاعة والتسليم.

يقول عبد الله: فوالله ما أرادوا ذلك ولا قبلوه، وقالوا: والله لا يدخلها عنوة أبداً.

إذ ماذا يبقى في أيديهم بعد أن يحتل جيش يزيد المدينة فيرغمهم على تنفيذ جميع مطالبه، لذلك كان من الطبيعي أن: (لا يريدوا ذلك ولا يقبلوه).

على أن الذي أنهى الأمر وحسمه هو الكتاب الذي كتبه يزيد إلى أهل المدينة وأمر واليه عثمان بن محمد أن يقرأه عليهم. وهو:

أما بعد فإني قد نفستكم حتى أخلفتكم، ورفعتكم حتى أخرقتكم، ورفعتكم على رأسي

ثم وضعتكم، وأيم الله لئن آثرت أن أضعكم تحت قدمي لأطأنكم وطأة أُقل منها عددكم وأتركَكم أحاديث تتناسخ كأحاديث عاد وثمود، وأيم الله لا يأتيكم مني أولى من عقوبتي، فلا أفلح من نَدم[1].

بهذا الكتاب مهّد يزيد عند أهل المدينة لجيشه المقبل عليهم، فهل بقي لهم من خيار إلا الثورة؟

ونحن نتساءل هنا متى حصل هذا الذي يدعيه يزيد عند أهل المدينة؟ ومتى نفسهم؟ ومتى رفعهم؟ ومتى أعلاهم على رأسه؟

إن قوله لهم: لئن آثرت أن أضعكم تحت قدمي... إلى آخر ما قال هو الذي آثره ويؤثره دائماً... إنهم أبطال معركة بدر أنصار محمد فيها، فلا بدع أن يؤثر وضعهم تحت قدميه!...

إن كل كلمة في الكتاب تستفز حتى أجبن الجبناء، وتستثير حتى ألأم اللؤماء، فكيف لا تستفز الأنصار ولا تستثير أهل المدينة، لذلك كان لا بد من الثورة، ولا مناص من التمرد، ومقاومة جيش يزيد الزاحف إليهم.

واختار يزيد لقيادة هذا الجيش مسلم بن عقبة. فلماذا وقع اختياره عليه مع أنه كان مريضاً مشرفاً على الهلاك، أو كما قال صاحب كتاب (الإمامة والسياسة) أنه قال له: «سر إلى المدينة بهذه الجيوش وإن شئت أعفيتك، فإني أراك مدنفاً منهوكاً».

ولكن مسلماً أصر على قبول المهمة رغم ما هو عليه...

لماذا كان ذلك؟ لماذا اختار يزيد لهذه المهمة مسلماً بن عقبة المدنف المنهوك؟ ولما أصر مسلم على قبول المهمة مع ما هو فيه؟...

إن البلاذري صاحب كتاب (أنساب الأشراف) يوضح لنا الأمر على حقيقته: لقد كان اختيار يزيد لمسلم اختياراً يراد به الإمعان في الانتقام من محمد ﷺ ومن الإسلام ومن الأنصار أهل المدينة.

وذلك أن النبي ﷺ كان قد وجّه أسامة بن زيد إلى بني غطفان، فكان مسلم هذا ممن وقع في أسر المسلمين، فعاش في المدينة عبداً إلى أن أعتقته امرأة من الأنصار.

---

(١) ابن قتيبة في الإمامة والسياسة ج١ ص٢٠٧.

إذن فليس أجدر منه للانتقام من أهل المدينة الذين عاش بينهم عبداً، عاش عبداً أسره الأنصار مشركاً مقاتلاً للإسلام والمسلمين.

لذلك اختاره يزيد، وهو (مدنف منهوك)، وأسرع هو في القبول على ما فيه من الدنف والإنهاك!

ولما خرج مسلم بالجيش متوجهاً إلى المدينة خرج يزيد يودعه ويوصيه، فمما قال له: السيف السيف، أجهز على جريحهم، وأقبل على مدبرهم، وإياك أن تبقي عليهم[1] على أنه قال له: وإن لم يتعرضوا لك فامض إلى ابن الزبير...

ونحن نسأل هل ترك لهم الخيار في أن لا يتعرضوا له بعد أن قرأ عليهم واليه كتابه المرسل إليهم، وبعد أن أمر مسلماً باحتلال المدينة؟ ولو لم يغضبوا إلا لكرامتهم حين واجههم في كتابه بأنه سيضعهم تحت قدميه ويطأهم لكان ذلك كافياً لأن يتعرضوا لجيشه المهدد لهم بالاحتلال واستباحة الكرامة قبل الحقوق.

لقد كان كل تصرف ليزيد وكل كلام له هو استفزاز واستثارة، وهو حمل على التمرد ليستطيع قائده ابن عقبة أن ينفذ وصيته فيهم: السيف السيف... إياك أن تبقي عليهم. ووصل مسلم بن عقبة إلى المدينة ودافع أهل المدينة عن مدينتهم وقاتلوا الغزاة المستبيحين، ثم غلبتهم القوى المتكاثرة عليهم ودخل مسلم بن عقبة مدينة الرسول عاصمة الإسلام الأولى، دخلها فاتحاً بعد أن كان الإسلام قد أدخله إليها أسيراً ذليلاً.

ولا شك أنه كان في كل خطوة يخطوها يشعر بالزهو الذي لا حد له أن استطاع أن ينتقم من محمد ومن أنصار محمد ومن عاصمة محمد.

محمد الذي جاء بدين قاومه أهل مسلم بن عقبة وقاومه هو معهم فقاتلهم محمد وانتصر عليهم فأسر مسلم في هذا الانتصار، وها هو اليوم يقول لمحمد: قم وانظر إلى أسيرك يدخل عاصمتك فاتحاً لها.

أنصار محمد الذين كانوا جيش ذلك النصر، وها هو اليوم يقول لهم: لقد كنت أسيراً لكم في الإسلام، وها أنتم اليوم أسراي.

عاصمة محمد التي ضمت محمداً وأنصاره أعزاء وضمته هو ذليلاً، وها هو اليوم يقول لها: إني أبدّل اليوم عزك ذلاً، كما بدلت بالأمس عزي ذلاً.

---

(١) ابن قتيبة في الإمامة والسياسة ج١ ص٢٠٩.

ثم يلتفت إلى يزيد فيقول له: لم يضع دم عمك ودم جدك ودم خالك الذي أراقه عم محمد حمزة وابن عمه وصهره علي وابن عمه عبيدة بن الحارث يوم بدر ـ لم يضع ذاك الدم هدراً، لم تُطلّ دماء قومك التي أراقها (بنو قيلة) في ذلك اليوم.

وفرار أبيك يومذاك ركضاً على قدميه... فراره... ليت عينيك تبصر الذين فر منهم، أبوك يومذاك... ليتك تبصرهم وهم يفرون اليوم جميعاً من قائد ابن أبيك... السيف، السيف... هذا ما أوصيتني به... لبيك... لبيك... هذا هو السيف سيفك يقتل عبد الله بن زيد صاحب محمد المقرب إليه، وها هو رأسه يُفصل عن جسده ليرسل إليك. وها هو معقل بن سنان حامل لواء قومه مع محمدٍ يوم فتح مكة، ها هو بين يدي أسيراً ذليلاً... أيحمل لواء قومه فيشارك في فتح مكة... لنْ يتباهى بذلك بعد اليوم... السيف السيف... وها هو السيف ينتقم منه فيقتله.

يقول ابن قتيبة في (الإمامة والسياسة): (قتل يوم الحرة من أصحاب النبي ﷺ ثمانون رجلاً، ولم يبق بدري بعد ذلك[1]).

لقد قال يزيد لعبد الله بن جعفر ـ كما رأينا فيما تقدم من القول ـ: «أقتل واشفي نفسي».

لقد شفى نفسه بالفعل، فها هم ثمانون من أصحاب محمد يقتلهم جيشه، ثمانون يمكن أن تقوم دماؤهم بدماء جده وعمه وخاله، والأهم من ذلك أنه أباد البدريين جميعاً.

لقد كان لقب (بدري) لقب شرف أطلقه المسلمون على من شهد منهم معركة بدر، معركة النصر الإسلامي الأول، المعركة التي قتل فيها المسلمون في ساحة الحرب جد يزيد وعمه وخاله.

السيف السيف: أبد البدريين يا مسلم بن عقبة ليعود هذا اللقب عليهم شراً ووبالاً بعد أن كان لهم شرفاً وتكريماً...

أبدهم لكي لا نعود نسمع كلمة (بدري). وأبادهم قائد يزيد، وشفى يزيد نفسه...

ونورد هنا بعض قصص ما جرى وفيه الدلالة على كل ما جرى، كما فيه عبر أي عبر:

١ ـ محمد بن مسلمة رفض أن يبايع علي بن أبي طالب بالخلافة عندما بويع بعد مقتل عثمان، وبأمثال محمد هذا وصلت الخلافة إلى يزيد.

(١) البدري: هو من قاتل مع النبي (ص) في معركة بدر.

ومن حسن حظه أنه كان قد مات عندما هاجم جيش يزيد المدينة وفتك فيها فتكته الفظيعة. ولكن إذا كان محمد بن مسلمة قد مات فإنه ترك بعده ولده زيد وترك داره وأسرته.

قال ابن قتيبة وهو يتحدث عن وقعة الحرة: «وأول دور انتهبت والحرب قائمة دور بني عبد الأشهل، فما تركوا في المنازل من أثاث ولا حلي ولا فراش إلا نقض صوفه، حتى الحمام والدجاج كانوا يذبحونها، فدخلوا دار محمد بن مسلمة فصاح النساء فأقبل زيد بن محمد بن مسلمة إلى الصوت فوجد عشرة ينهبون فقاتلهم ومعه رجلان من أهله حتى قتل الشاميون جميعاً وخلصوا منهم ما أخذ منهم، فألقوا متاعهم في بئر لا ماء فيه وألقي عليه التراب، ثم أقبل نفر من أهل الشام فقاتلهم أيضاً حتى قتل زيد بن محمد أربعة عشرة رجلاً».

ولكنه إذا كان قد سلم في المرة الماضية فإنه لم يسلم هذه المرة، فضربوه بالسيف وتعمد أربعة منهم أن يضربوه بالسيف في وجهه. وأنا أعتقد أن الذي بعث القوة في نفس زيد بن محمد بن مسلمة فجعله يستميت هذه الاستماتة لا نهب الأموال، بل الدفاع عن أخواته وبناته وقريباته، فإن تعليمات يزيد لمسلم بن عقبة كانت أن يبيح المدينة لجنوده ثلاثة أيام فكانت الإباحة إباحة عامة شاملة لم تقتصر على النهب والسلب بل وصلت إلى هتك الأعراض، فقد كان الرجل بعد وقعة الحرة إذا أراد أن يزوج ابنته لا يضمن بكارتها يقول لعله أصابها شيء يوم الحرة.

ويقول ياقوت الحموي في (معجم البلدان) عن مسلم بن عقبة: «ودخل جنده المدينة فنهبوا الأموال وسبوا الذرية واستباحوا الفروج، وحملت منهم ثمانمائة حُرة وولدن وكان يقال لأولئك الأولاد: أولاد الحَرة...».

إن استماتة زيد بن محمد بن مسلمة لم تكن لنهب منزله، ولكنه سمع صيحة النساء: أخواته وبناته فاستمات دفاعاً عن شرفهن، والله وحده يعلم ما إذا كن من بين الثمانمائة اللواتي تحدث عنهن ياقوت الحموي، فلم يكن ليتركهن جنود يزيد سالمات بعد أن قتل رجلهم زيد من قتل منهم.

يا محمدُ بن مسملة... رفضت أن تبايع علي بن أبي طالب وخذلته مع الخاذلين... فذق نتيجة ما جنت يداك ذقها في بيتك وفي ابنك وفي بناتك وفي حفيداتك[1]...

---

(١) عبد الرحمن بن عوف الذي رفض أن يبايع علي بن أبي طالب وصرف الخلافة عنه إلى غيره، عبد الرحمن بن عوف هذا: ذبحت سيوف الأمويين ابنه زيد يوم الحرة وذبحت ابنه الآخر مع=

٢ - أبو جهم بن حذيفة العدوي ابن عم عمر بن الخطاب (رض) جيء به إلى مسلم بن عقبة فقال له: من أنت؟ فقال: أنا أبو جهم بن حذيفة العدوي، قال مسلم: أو تتكنّى علي؟ وتقول أبو جهم بن حذيفة؟! بايع الآن يزيد بن معاوية على أنك من عبيده![1] فقال أبو جهم: يا سبحان الله كيف أكون عبداً ليزيد وأنا رجل من قريش معروف الحسب والنسب؟! فقال مسلم بن عقبة: اضربوا عنقه! فقال أبو جهم: أنا أبايع على ما تأمرني به، فقال: لا والله لا أقيلك، ثم قدّم فضربت عنقه[2].

وكان مجموع من قتل من أهل المدينة عشرة آلاف، فاشتفت نفس يزيد كل الاشتفاء... وقال محمد بن بحرة الساعدي مخاطباً جيش يزيد ويزيد نفسه:

فإن تقتلونا يوم حرة واقم ... فنحن على الإسلام أول من قتَل

ونحن تركناكم ببدر أذلة ... وأبنا بأسياف لنا منكم نفل

ويقول الدكتور طه حسين في كتابه عن الأدب الجاهلي: «إن أبا سفيان عند فتح مكة نظر فإذا هو بين اثنتين: أما أن يمضي في المقاومة فتفنى مكة وأما أن يصانع ويصالح ويدخل فيما دخل فيه الناس وينتظر لعل هذا السلطان السياسي الذي انتقل من مكة إلى المدينة ومن قريش إلى الأنصار أن يعود إلى قريش وإلى مكة مرة أخرى وألقى الرماد على هذه النار التي كانت متأججة بين قريش والأنصار وأصبح الناس جميعاً في ظاهر الأمر إخواناً مؤتلفين في الدين وقد طال انتظار أبي سفيان حتى قام حفيده يزيد بن معاوية فانتقم من غزوة بدر في وقعة الحرة. ويزيد صورة صادقة لجده أبي سفيان في السخط على الإسلام وما سنه للناس من سنن».

= ابن الزبير في مكة. وأم المؤمنين السيدة عائشة (رض) التي رفضت خلافة علي بن أبي طالب وقادت الجيوش ثائرة عليه، السيدة عائشة: أذل الأمويون أختها أسماء شر الإذلال، وقتلوا ابن أختها سبط أبي بكر (رض) عبد الله وصلبوا جسده تشفياً. عبد الله بن الزبير وابن أسماء بنت أبي بكر، عبد الله هذا الذي تبنته السيدة عائشة (رض) لحرمانها من الأولاد، فكانت تكنى بأم عبد الله، عبد الله هذا ابن السيدة عائشة بالتبني ذبحته سيوف الأمويين. وليت أباه الزبير الذي جيّش الجيوش لقتال علي بن أبي طالب ليته يرى ما أثمر خذلانه وخذلان أمثاله لعلي، ويكفيه ما لقيت زوجته وما لقي ابنه.

(١) كانت هذه البيعة مفروضة على جميع أهل المدينة: أن يبايع كل واحد منهم على أنه عبد ليزيد، ومن لم يبايع هذه البيعة قتل.

(٢) كتاب الفتوح (ص٤٩٦).



سلاجقة وصليبيون



مع عمر تدمري

يقول الدكتور عمر تدمري في بعض ما يقول: لقد جاءت الحملات الصليبية في وقت كان فيه العالم الإسلامي يعاني - بشكل عام - من الانقسامات السياسية والخلافات المذهبية، وكانت بلاد الشام التي استهدفتها تلك الحملات تعيش في وضع سياسي مفكك حيث توزعت مدنها بين حكام وأمراء يحذر كل منهم الآخر. وكان الخلاف المذهبي بين العبيديين (الفاطميين) الإسماعيليين الشيعة في مصر، والسلاجقة الأتراك والعباسيين السنة في العراق هو أشبه بالخلاف المذهبي بين الكنيستين اليونانية البيزنطية (الشرقية) واللاتينية الرومانية (الغربية)، بل هو خلاف أشد وأدهى لطالما أدى إلى القتال، إذ كانت بلاد الشام مسرحاً للصراع العسكري والسياسي والمذهبي بين السلاجقة والفاطميين مما جعلها منهوكة القوى عندما راحت جيوش الصليبيين تجوس خلال ديارهم (انتهى).

هذا الذي قاله الدكتور عمر تدمري بعيد كل البعد عن الحقيقة، ولا صلة له من قريب أو بعيد بالصدق والتاريخ الصحيح.

وأول ما نقوله: أنه لم يكن هناك احتكاك بين الفاطميين الشيعة في مصر والسلاجقة السنة في العراق، لسبب واضح: هو أنه عندما كان الفاطميون مسيطرين في مصر، كان البويهيون الشيعة هم المسيطرين في العراق لا السلاجقة.

كما أن بلاد الشام لم تكن أبداً مسرحاً للصراع العسكري، والسياسي، والمذهبي بين السلاجقة والفاطميين. وعندما تقدم الفاطميون من مصر إلى بلاد الشام لم يكن السلاجقة هم الذين يحكمونها، كما نرى في النص التالي:

«إن بلاد الشام يومذاك بحكم كونها منطقة نفوذ للأخشيديين آلت نظرياً، وعن طريق الإرث بعد تصفية نظامهم في مصر إلى الفاطميين، في نفس الوقت كانت منطقة هامة في حرب الثغور وأصبحت بعد فتح مصر ملجأ لفلول المنهزمين من الكافورية والأخشيدية الذين ضموا جهودهم إلى عناصر السلطة القديمة في بلاد الشام، وأصبح الخطر من جهتهم متوقعاً فقد بادر جوهر فاتح مصر الفاطمي بضمها إلى مصر، تأميناً للحدود وتوسيعاً للنفوذ الفاطمي، الذي امتدت خطوط دفاعه فأصبحت في بلاد الشام وليست في مصر.

وكان نائبه في قيادة الحملة الكبرى جعفر بن فلاح هو الرجل الأول الذي عهد إليه بتصفية بقايا الأخشيدية والكافورية وضم بلاد الشام فعلياً إلى نفوذ الخلافة الفاطمية».

«وكان يشرف على بلاد الشام كبير الأسرة الأخشيدية، أبو محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج الذي كان مركزه دمشق، وكان على طبرية وحوران والبثنية[1] ولاة من عرب بني عقيل، ومنهم شبيب وظالم وملهم، الذي كان يشرف عن طريق غلامه فاتك على طبرية، وكان على بيت المقدس عامل أخشيدي هو الصباحي، ولما كانت الرملة ودمشق أهم مدن الإقليم التابع للأخشيديين، فقد كان والي بلاد الشام يوصف أحياناً بصاحب دمشق، والرملة التي هي مدينة جنوب فلسطين العظمى، وقد ظفرت بمركز ممتاز فاق أهمية بيت المقدس بسبب موقعها الاستراتيجي وقربها من حدود مصر، وقد تعرضت أكثر من مرة لغارات قرامطة البحرين، وغدت بعد فتح مصر قاعدة حربية لمواجهة الغزو الفاطمي من جهة مصر، إذ استقر فيها الحسن بن عبيد الله بن طغج منذ شهر رمضان ٣٥٨هـ/ يوليه ٩٦٨م. ليخطط للمعركة القادمة مع جعفر بن فلاح، وترك دمشق في عهدة أحد موالي الأخشيديين، وهو شمول، ولأن الأخير، كان يحقد على الحسن مكانته السياسية وسعة سلطانه، وينتظر به فرصة قدوم طلائع الجيش الفاطمي ليخذله، ويظهر ما بيته له، فقد اتصل بجوهر سراً، وكشف له عورات البلاد وأبان عن وجهة نظره في الحسن بن عبيد الله، ثم تقاعد عنه ورفض مساعدته في الرملة، رغم إلحاحه عليه وعلى الصباحي وفاتك في سرعة المجيء، بسبب قرب العسكر الفاطمي، وتركوه مع ثلة من مساعديه يواجهون الهزيمة، ومحنة الأسر على يد جعفر بن فلاح، منذ منتصف رجب ٣٥٩هـ/ ماي ٩٧٠م وقد أرسلوا مقيدين إلى مصر، ومنها واصلوا الرحلة صحبة الهدية التي أنفذها جوهر إلى بلاد المغرب».

«ويبدو أن حزم جعفر بن فلاح وسياسته ودعوته لولاة الأخشيديين لإعلان الولاء

(١) **البَثَنِيَّة**: من نواحي دمشق، معجم البلدان، ج١ ص٤٠٢، دار الكتب العلمية (١٩٩٠م) ط١.

والطاعة للمعز لدين الله، هي التي صرفت كثيراً منهم عن مساعدة ابن طغج وأدته إلى الاستسلام لقوات جعفر دون مقاومة تذكر، إلا في مدينة طبرية، التي يبدو أن واليها فاتكاً غلام ملهم العقيلي، بيت على مقاومة قوات الفاطميين، ولذلك تحصن جعفر في نقطة استراتيجية تسيطر على الجسر وبنى معسكراً اتخذه منطلقاً لحرب فاتك، رغم أن ملهماً مال إلى الموادعة وتظاهر بالولاء والطاعة للفاطميين[1]. وعندما تم قتل فاتك غدراً، تظاهر جعفر بأنه فوجىء بالحدث الذي لم يكن له به علم، وتحفظ على عناصر التآمر من الأعراب، وقدمهم إلى ملهم، ليقتص منهم، فتحاشى الأخير قتلهم، وعفا عنهم، خوفاً من الإيقاع به أما سكان المدينة فقد استاءوا للحادث، والتحموا مع قوات جعفر، وشهدت طبرية فتنة كبرى، لم تقتصر آثارها على عناصر الخلاف، وإنما شملت من جاء إلى المدينة في هذا الظرف الدقيق، وهم ممثلو سكان مدينة دمشق، الذين غادرهم شمول الأخشيدي، وانضم إلى قوات جعفر بن فلاح في طبرية، فارتاع السكان وأرسلوا إلى جعفر، وفداً من شيوخهم لإعلان الولاء، ورغم أن القائد الكتامي استقبلهم بحفاوة وتبسط معهم في الحديث فإنهم رجعوا إلى دمشق «غير شاكرين، ولا راضين» عن قوم - كما زعموا - جفاة قباح المناظر والزي والكلام، ليس لهم عقول يرجعون إليها، «نقلوا إلى سكان المدينة صورة قاتمة وانطباعاً سيئاً آذى مشاعرهم، وأدخل الرعب في نفوسهم، وجعلهم يستعدون للمقاومة الجدية بتوجيه أشراف دمشق وبمساعدة بقايا الأخشيدية والكافورية الذين لم يرافقوا شمولاً، ثم عنصر الأحداث والشطار الذين كانوا بمثابة قوة دفاعية مدنية من بين عامة السكان، وقد استغلوا حالة القلق في المدينة والفراغ السياسي بعد انسحاب شمول، وتفرق جنده، لكي يظهروا عنصراً فعالاً في حماية المدينة من الغزو الخارجي ويبرزوا إلى الحياة السياسية ويمثلوا دوراً هاماً في مدن الشام الأُخرى قبل وبعد الفتح الفاطمي».

ويبدو أن أوضاع دمشق، وحالة الاستعداد للمقاومة، هي التي أملت على ابن فلاح، خطة أساسها الانتقاص من أطراف دمشق، وكسر مقاومة بني عقيل في حوران، والبثنية، وسكان الغوطة، بجهد مشترك بين جزء من قواته، وأعراب مرة، وفزارة، وذلك قبل اقتحام المدينة بقوات الحملة الرئيسية. وعندما شعر بأنه أبعد بني عقيل عن الميدان إلى حمص، ونال رجاله من ضواحي دمشق، بعد خسائر تكبدها، خف بكامل قواته، منذ يوم الخميس

(١) كان رد ملهم على جعفر: هو غلامي وقد وهبته، ويلاحظ أن جعفراً ترك طبرية إلى دمشق لأن ملهماً أقام الدعوة باسم المعز لدين الله دون أن يشير إلى قتل فاتك.

لثمان خلون من ذي الحجة ٣٥٩هـ، وفرض حصاراً على المدينة، واتخذ من يوم السبت ١٠ ذي الحجة معسكره، ومقر قيادته بحي الشماسية، ومن هناك أشرف على المعركة ضد أحداث دمشق وأشرافها وجندها الذين قاوموا ضغط جند كتامة فترة ثم بدأوا يميلون لإنهاء حالة الحرب والحصار في إطار الاعتراف بالسيادة الفاطمية، غير أن جعفراً بن فلاح، لم يستجب لهم بسهولة، قصداً لما عرفه من تقلب أهوائهم وسيطرة الشطار والأحداث والأشراف وسائر عملاء العباسيين على الوضع الداخلي، ولذلك لقي وفد سكان المدينة معاملة غير لينة أثناء محاولتهم الاتصال به في حي الشماسية للحصول على الأمان، كما قوبلوا بالوعيد من جانبه عندما قابلهم بنفسه وكان هدفه فيما يبدو أن يكون هؤلاء أداة تبليغ لسكان المدينة ولعناصر الشغب المتطرفين، ليشتد خوفهم وتزداد حيرتهم، عندما يعرفون مدى تصميم القائد على اللجوء إلى القوة، وربما كان يريد بهذا التشدد أن ينصرف السكان عن المشاغبين، ويتخلصوا منهم، وبذلك تتبلور اتجاهات السلام والصلح على أساس متين. ويبدو أنه نجح في خطته إلى حد بعيد، لأن السكان وقد هالهم هذا التشدد واحتاروا في معالجة الوضع، لم يجدوا غير مشائخ البلد وأشرافها، وكان جعفر بن فلاح يميل إليهم ويقدرهم لأنهم من آل البيت، وقد نجحت وساطتهم لإنهاء حالة الحرب إنما بعد تشدد، وعندما عرف استعدادهم لتنفيذ كل ما يطلبه، بدأ يتراجع عن موقف الشدة الذي اصطنعه حتى هذا الوقت، وتبسط في الحديث مع الوفد، وقرر أن يشرف بنفسه على إقامة الدعوة للمعز لدين الله في الجامع الأموي في يوم الجمعة ويتفقد شؤون المدينة تطييباً لخاطر السكان، ثم يرجع إلى معسكره بالشماسية».

«وكان أعضاء الوفد قد بلغوا ذلك، ورغبوا من عنصر الشطار أن يلازموا بيوتهم، غير أن هؤلاء لم يستجيبوا لهذه الرغبة، واستغلوا فرصة انتشار عسكر كتامة في أحياء المدينة وأسواقها أثر الصلاة، وقتلوا منهم كثيرين بدعوى الدفاع عن النفس وعن الأموال، فتأثر جعفر للحادث، واعتبر ما حصل حركة عدائية مقصودة لنقض عهد الأمان الذي تقرر مع وفد المدينة، وأنكر على المشائخ والأشراف ما حصل من الغدر برجال أمير المؤمنين وتهددهم، ولم تهدأ ثورته إلا عندما اعتذروا عن الحادث، ووافقوا على ما اقترحه من دفع ديات ضخمة، فدية (لمن قتل من عسكره) وتكفلوا بجمع المال من السكان.

وتشير النصوص إلى تحركات شهدتها مدينة دمشق في الجمعة الثانية، أي بعد الاتفاق على مبدأ الصلح، كان مظهرها قطع الدعوة للمعز لدين الله وإزالة شعار الفاطميين، وإرجاع

الدعوة للمطيع العباسي ولبس شعار السواد، فقابل جعفر ذلك بقوة، واجتهد في إخمادها وفي القبض على رؤوس الفتنة ومثيري الشغب، ويبدو أن جهوده أثمرت في النهاية، وفشلت الحركة وفر زعماؤها خارج دمشق.

وعندما بدا لجعفر بن فلاح أنه سيطر على الوضع الداخلي بتحطيم عناصر المقاومة، بدأ يرسي قواعد السيطرة الفاطمية ويطبق مظاهر التحول الجديد، في الدعوة، وفي الأذان والإقامة. وتصرف على نحو يشعر بأنه اطمأن على الوضع فانتقل من معسكره بحي الشماسية إلى الدكة فوق نهر يزيد، بظهر سور دمشق، وأشرف على حركة التعمير والبناء، فاتخذ لنفسه قصراً عجيباً بناه بالحجارة وتفنن في بنائه حتى جعله «شاهقاً في الهواء غريب البناء» وحوله بنى الجند مساكنهم ومعسكراتهم ونشطت حركة البيع والشراء في أسواقهم واتسعت خطتهم وانبثت الحياة بين أظهرهم حتى صارت خططهم «شبه المدينة»، وعني بالجبهة الشمالية، وبمنطقة الثغور، فأرسل بعوثاً عسكرية بقيادة بعض مساعديه على الروم البيزنطيين في الأسكندرونة وأنطاكية التي احتلوها منذ فترة سابقة (محرم ٣٥٩هـ/ نوفمبر ٩٦٩م). وبدأوا يضغطون بشدة على مدن شمال الشام وحلب خاصة، استضعافاً للحمدانيين، بعد وفاة سيف الدولة، وكان قد أرسل من قبل داعياً هو أبو طالب التنوخي إلى أبي تغلب ناصر الدولة بن حمدان في الموصل يعرفه بأنه في طريقه لإعلان الدعوة الفاطمية في بلاده، فرفض بشدة على أساس قرب المنطقة من بغداد، ومن ضغط القوات العباسية، ولخص رأيه في قوله: هذا ما لا يتم، لأننا في دهليز بغداد والعساكر قريبة منا ولكن إذا قربت عساكركم من هذه الديار أمكن ما ذكرتم.[١]» (انتهى).

هكذا وصل الفاطميون إلى بلاد الشام. وصلوا إليها في أواسط القرن الرابع الهجري في حين أن أول ظهور للسلاجقة في العراق، كان في أواسط القرن الخامس، فكيف تكون الشام مسرحاً للصراع العسكري والسياسي والمذهبي، بين السلاجقة والفاطميين، في حين أن السلاجقة لم يكونوا وجدوا بعد؟!!

وبعد ذلك عندما سيطر السلاجقة على العراق، كان حكم الفاطميين قد تضعضع في مصر في أواخر عهد المستنصر، ثم تلاشى هذا الحكم نهائياً في حياة المستنصر باستيلاء الجماليين على الخلافة الفاطمية. فمتى كان هذا الصراع الذي يزعم الدكتور عمر تدمري وجوده بين السلاجقة والفاطميين في بلاد الشام؟!

(١) الدكتور موسى لقبال بنصه الكامل.



السلاجقة

أصول السلاجقة تعود إلى القبائل التركية التي عرفها العرب باسم (الغز) والتي استطاعت في القرن السادس الميلادي أن تقيم امبراطورية ذات طابع بدوي امتدت من الصين إلى البحر الأسود. وحين اصطدمت بالصينيين ضعضعوها.

هاجر (الغز) في القرن الثامن الميلادي (الثاني الهجري) متجهين إلى الغرب في الصحارى الواقعة شرق بحر قزوين دون أن يستطيعوا تحقيق وحدتهم، بل عادوا متقاتلين، وانتشرت فروعهم متمددة إلى البعيد حيث وصلت إلى فارياب على نهر سرداريا (سيحون). ومن هؤلاء تحدر السلاجقة[1].

وسبب تسميتهم بهذا الاسم هو انتسابهم إلى أحد أجدادهم سلجوق بن دقاق، ودقاق هذا ـ أو تقاق ـ كما يلقبه ابن الأثير ـ كان وجه الأتراك الغز، على جانب من الرأي والتدبير فأطاعه قومه واتبعوه، وولد له سلجوق الذي تقدم عند ملوك الترك كأبيه، وشعر يوماً أن ملك الترك يتآمر عليه فاستنفر جماعته ومضى بهم إلى دار الإسلام فصار مسلماً بين المسلمين، واستقر في نواحي جَنْد[2] وراح يؤلب المسلمين على الترك ويغزوهم بهم. وبعد أن كان هؤلاء يأخذون الخراج من المسلمين، طردهم سلجوق وساد المسلمون في تلك الأرض[3]

(١) السلاطين في الشرق العربي ص١٧ ـ ١٨.

(٢) جَنْد: كما يقول في معجم البلدان: بالفتح ثم السكون، اسم مدينة عظيمة في بلاد تركستان، بينها وبين خوارزم عشرة أيام تلقاء بلاد الترك مما وراء النهر، قريب من نهر سيحون.

(٣) الكامل لابن الأثير ج٩ ص٤٧٣ ـ ٤٧٤.

ومات سلجوق بجند بعد أن عمّر مئة سنة وسبع سنين وترك من الأولاد: أرسلان وميكائيل وموسى.

وقتل ميكائيل في غزواته لبلاد الأتراك، وترك من الأولاد: بيغو وطغرل بك محمد وجَفْري بك داود، فسارَ الثلاثة بعشائرهم وتقدموا فنزلوا على بعد عشرين فرسخاً من بخارى، فتوجس الشر منهم أمير بخارى فلم يسالمهم فتركوه إلى بُغراخان ملك تركستان وأقاموا في بلاده ولكنهم ظلوا في ريبة من أمره فتقرر بين طغرل بك وأخيه داود أن لا يلتقيا معاً في مجلس بغراخان، بل ينفرد كل واحد منهما بالمجيء إليه ويبقى الثاني بين قومه خوفاً من أن يغدر بهما مجتمعين.

ولما فشل بغراخان في الجمع بينهما في مجلس واحد قبض على طغرل بك، فاستنفر داود قومه ومشى إلى مقاتلة بغراخان لاستنقاذ أخيه، فاصطدم بقوى بغراخان الزاحفة إليه فهزمها واستطاع تخليص أخيه. فرأيا أن يعودا بقومهما إلى قاعدتهما الأولى جند غير البعيدة عن بخارى فيقيما فيها.

وبانقراض الدولة السامانية وتملك إيلك خان بخارى استفحل أمر أرسلان بن سلجوق عم داود وطغرل بك فيما وراء النهر[1] وكان علي تكين أخو إيلك خان، في سجن أرسلان خان فهرب واستطاع الاستيلاء على بخارى وتحالف مع أرسلان بن سلجوق حيث سادا قويين، فمشى إليهما إيلك خان أخو أرسلان خان فهزماه وظلا في بخارى.

وكان علي تكين يقلق محمود بن سبكتكين فيما تجاورا به من بلاد، ولا يبالي أن يقطع الطريق على رسله المترددين إلى ملوك الترك[2].

وكان محمود بن سبكتكين قد أوقع بجماعة أرسلان بن سلجوق في مفازة بخارى، فلما عبر محمود النهر إلى بخارى، هرب علي تكين صاحبها منها، وحضر أرسلان بن سلجوق عند محمود فقبض عليه وأرسله سجيناً إلى الهند. وهاجم جماعته فأكثر القتل فيهم، ومن سلم منهم فر إلى خراسان فعاثوا فيها فساداً، فطاردهم فيها وأجلاهم عنها، فحل قسم بأصبهان فأمر محمود نائبه فيها أن يحتال في قتلهم أو إرسالهم إليه، فاصطدم بهم يعاونه أهل أصبهان فهزمهم فانطلقوا ينهبون القرى في طريقهم حتى بلغوا أذربيجان.

---

(١) **ما وراء النهر**: هو الاسم الذي أطلقه العرب على المنطقة الواقعة في حوض نهري أمودريا (جيحون) وسيردريا (سيحون).

(٢) الكامل ج٩، ص٤٧٣ ـ ٤٧٥.

على أنه كان بقي أكثرهم في خراسان فراحوا ينهبون ويخربون ويقتلون، فأرسل محمود من يطاردهم، فلبثوا في ذلك نحو سنتين إلى أن اضطر محمود إلى أن يقصد خراسان بنفسه وراح يطلبهم من نيسابور إلى دهستان فساروا إلى جرجان، ثم عاد عنهم مستخلفاً ابنه مسعود بالري فاستخدم بعضهم. فلما مات محمود سار ابنه مسعود وهم معه إلى خراسان.

ثم إن مسعوداً مضى إلى الهند لإخماد عصيان فيها، فعاودوا العيث في البلاد، وكان قد أرسل أحد قواده إلى الري فلما بلغ نيسابور ورأى ما هم عليه من العيث، قتل منهم من قتل، ولما بلغت أخبارهم مسعوداً عاقبهم أسوأ عقاب من قطع الأيدي والأرجل والقتل واستصفاء الأموال(١).

هذا ما يتعلق بأرسلان بن سلجوق وعشيرته، وأما أولاد إخوته فإن علي تكين صاحب بخارى راح يحاول الظفر بهم فقرب إليه يوسف بن موسى بن سلجوق، وهو ابن عم طغرل بك محمد، وجفري بك داود وقدمه على جميع الأتراك الذين في ولايته وأقطعه أقطاعاً كثيرة، ولقبه بلقب الأمير.

وكان يهدف من وراء ذلك إلى أن يضرب به ابنا عمه طغرل بك وداود، ولكن يوسف تأبى عليه ولم يماشه في هذا فأمر بقتله.

فعظم قتله على طغرل بك وأخيه داود وعلى عشائرهما، فلبسوا عليه الحداد وجمعوا من استطاعوا جمعه من الأتراك للثأر له. وجمع علي تكين جيوشه وبعث بها لقتالهم فهزموها. وفي سنة ٤٢١هـ سار طغرل بك وداود إلى (ألب قدا) الذي تولى قتل ابن عمهما يوسف فقتلاه.

فأثار ذلك علي تكين فقصدهم مع من تبعه من جموع أهل البلاد وناوشوهم من كل جانب، فأوقعوا بهم موقعة عظيمة قتل فيها منهم العدد الكثير وسبوا نساءهم وذراريهم، فاضطروا إلى العبور إلى خراسان. فلما عبروا جيحون كتب إليهم خوارزم شاه هارون بن التونتاش يدعوهم إليه ليتحالفوا معاً.

فلبى طغرل بك وأخواه داود وبَيْغو دعوته، وخيموا بظاهر خوارزم سنة ٤٢٦ فغدر بهم ووجه إليهم أحد أمرائه ففاجأهم وأكثر فيهم القتل والنهب والسبي، فتركوا خوارزم بجموعهم إلى مفازة (نسا)، وقصدوا مروا دون أن يتعرضوا لأحد بشر، مخلفين أولادهم وذراريهم في الأسر.

---

(١) الكامل ج٩، ص٣٧٧ ـ ٣٧٩.

وكان مسعود بن محمود بن سبكتكين قد سيطر على طبرستان وأقام فيها، فكاتبوه مستأمنين، واعدين إياه بأن يكونوا أعواناً له يتوجهون لقتال من يفسد في بلاده.

ولكن مسعوداً قبض على رسلهم وبعث عليهم جيشاً جراراً التقى بهم عند (نسا) فانهزموا بعد قتال عنيف وغنمت أموالهم، فاختلف المنتصرون على اقتسام الغنائم اختلافاً أدى إلى التقال بينهم.

وكان داود قد قال لقومه: إن القوم قد اطمأنوا لهزيمتنا وليس في ذهنهم أننا نعود إليهم، فأرى أن نباغتهم وهم قارون مطمئنون. فعادوا إليهم وهم يتقاتلون فأوقعوا بهم وقتلوا منهم وأسروا واستردوا أموالهم ورجالهم.

وعاد المنهزمون إلى الملك مسعود في نيسابور يقصون عليه ما جرى، فندم على ما كان منه من رفض استئمانهم وصداقتهم، ورأى أن هيبتهم قد ملأت قلوب رجاله، وأنهم بعد هزيمتهم لجيشه قد طمعوا به بعد خوفهم منه، وخشي من معاودتهم قتاله، فأرسل إليهم يتهددهم ويتوعدهم.

فطلب طغرل بك من إمام صلاته أن يكتب إلى مسعود هذه الآية ولا يزيد عليها شيئاً:
﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فكتب ما أمره به، وتلقى مسعود الرسالة فكان صداها في نفسه أن كتب إليهم كتاباً يمنيهم فيه الأماني الطيبة، وأرسل لهم مع الكتاب خلعاً نفيسة، وطلب إليهم الرحيل إلى آمل الشط، - وهي مدينة على نهر جيحون -، كما نصحهم بترك الشرك والفساد، وأقطع (دهستان) لداود، و(نسا) لطغرل بك، و(فراوة) لبيغو، ومنح كل واحد منهم لقب (الدهقان).

ولكنهم استخفوا بالرسول وبالخلع، وأظهروا عدم ثقتهم بالسلطان، وقالوا للرسول: لو علمنا أن السلطان يبقي علينا إذا قدر لأطعناه، ولكنا نعلم أنه متى ظفر بنا أهلكنا لما عملناه وأسلفناه، فنحن لا نطيعه ولا نثق به.

ثم راحوا يفسدون في الأرض، وبعد فترة تركوا ذلك وقالوا: إذا لم نستطع الانتصاف من مسعود فلا داعي للإساءة إلى الناس ونهب أموالهم.

ثم فكروا بمخادعة مسعود والتظاهر بالخضوع له، وأن يطلبوا منه أن يطلق عمهم أرسلان بن سلجوق من الحبس.

فاستجاب لطلبهم هذا، وأطلق أرسلان، وأحضره إليه في بلخ، وأمره أن يكتب إلى بني أخيه طغرل بك وبيغو وداود بأن يكفوا عن الشر ويستقيموا في حياتهم.

فأرسل إليهم رسولاً يأمرهم بذلك.

يقول ابن الأثير[1] وأرسل معه (إشفى) وأمره بتسليمه إليهم. فلما وصل الرسول وأدى الرسالة وسلم إليهم (الإشفى) نفروا واستوحشوا وعادوا إلى أمرهم الأول في الغارة والشر، فأعاده مسعود إلى محبسه وسار إلى غزنة.

وبرجوعي إلى معجم لسان العرب رأيته يفسر (الإشفى) بهذه التفاسير:

الإشفى: المثقب.

الإشفى: ما كان للأساقي والمزاود والقرب وأشباهها.

الإشفى: المخصف للنعال.

الإشفى: السِّراد الذي يخرز به.

أما السلاجقة فقصدوا بلخ ونيسابور وطوس والجوزجان، فأفسدوا ونهبوا وخربوا البلاد وسبوا[2] فتصدى لهم الملك مسعود بن محمود، وأرسل جيشاً في ثلاثين ألفاً بقيادة حاجبه (سباشي) من غزنة. فلما وصل خراسان خرّب ما سلم من تخريب السلاجقة، وظل طيلة سنة يدافع ويطاول حذراً من الاصطدام بهم، فإذا ابتعدوا تتبعهم، وإذا أقبلوا رجع عنهم.

وفي سنة ٤٢٩هـ كان هو في قرية بظاهر سرخس، والسلاجقة بظاهر مرو مع طغرل بك ـ وقد بلغهم خبره ـ فساروا إليه وباشروا قتاله، فلما جاء الليل أخذ سباشي ما خف من مال وهرب في خواصه وترك خيامه ونيرانه على حالها، وقيل إنه فعل ذلك بالاتفاق معهم وفي الصباح عرف من بقي من عسكره خبره فانهزموا[3].

وتقدم داود أخو طغرل بك وهو والد السلطان ألب أرسلان إلى نيسابور فدخلها بغير قتال، ووصل بعدهم طغرل بك. ثم وصلت رسل الخليفة حاملة رسالته في وعظهم ونهيهم عن النهب والقتل والتخريب، فأكرموا رسل الخليفة وعظّموهم وخدموهم.

ومال داود إلى نهب المدينة فنهاه طغرل بك فتجاهله داود وبعد جدال طويل تحول عن

---

(١) ابن الأثير، ج٩، ص٤٧٩.
(٢) ابن الأثير، ج٩، ص٤٥٧.
(٣) م. ن./٤٥٨.

النهب الصريح إلى النهب المغلف ففرض على أهل نيسابور ثلاثين ألف دينار.

ومضى طغرل بك إلى دار الإمارة وجلس على سرير الملك مسعود وسيّر أخاه داود إلى سرخس فملكها، ثم استولوا على خراسان كلها عدا بلخ.

وكانوا ثلاثة أخوة: طغرل بك، وداود، وبَيْغُو. أما يَنّال واسمه إبراهيم فهو أخو طغرل بك وداود لأمهما.

أما الملك مسعود فقد خرج من غزنة إلى بلخ أول سنة ٤٢٨هـ وسبب خروجه منها ما كان يبلغه من أخبار السلاجقة وما ارتكبوه من الاستيلاء على البلاد والقتل والسبي والتخريب.

وأقام فترة في بلخ يتهيأ لمطاردة السلاجقة ثم قصد سرخس فتجنب السلاجقة الاصطدام به وتظاهروا بأنهم سيدخلون المفازة التي بين مرو وخوارزم، وكان جيش مسعود يتعقبهم، فما لبثوا أن اصطدموا بإحدى قطعه العسكرية فظفرت بهم. ثم واجههم بنفسه فانتصر عليهم ما أدى إلى ابتعادهم عنه، ثم رجعوا إلى نواحي مرو، قريباً منه، فقابلهم وقتل منهم عدداً كبيراً وهرب الآخرون لاجئين إلى البرية التي اعتادوا الاحتماء بها.

أما في نيسابور فقد ثار الناس بهم فقتلوا من قتلوا منهم وانهزم من بقي إلى البرية ملتحقين بجماعتهم. ومضى مسعود إلى هرات ليعد عدته مطارداً لهم. فابتعد طغرل بك ما قدر على الابتعاد عن طريق مسعود، ناهباً كل ما يمر به من بلاد مثخناً فيها.

وراح مسعود يطارده فلما صار قريباً منه مضى طغرل بك ممعناً في السير إلى (أُستُوا)(١) واستقر بها، فمضى إليه مسعود، فرحل إلى طوس محتمياً بجبالها المنيعة ومضايقها العسيرة العبور، فسيّر إليه مسعود أحد قواده في عساكر كثيرة، فلما قرب منه ارتحل طغرل بك إلى نواحي ابيورد. وكان مسعود قد سار بنفسه إليه فاصطدم طغرل بك بمقدمة جيشه فهزمته واستسلم عدد كبير من جنوده، فلما رأى ذلك وعلم أنه مطارد من كل جانب دخل المفازة إلى خوارزم وأوغل فيها. ومضى مسعود إلى نيسابور منتظراً حلول الربيع ليعاود مطاردة السلاجقة.

وأقام داود في مدينة مرو، وتعددت انهزامات عساكر السلطان مسعود في لقاءاتها مع السلاجقة وتضعضعت معنويات جنوده رهبة منهم، لا سيما بعد ابتعاده هو إلى (غزنة)، فراح

---

(١) استوا: كما في معجم البلدان: كورة من نواحي نيسابور تشتمل على ثلاث وتسعين قرية وقصبتها خبوشان، وحدودها متصلة بحدود نسا.

نوابه وولاته يستغيثون به ويذكرون له عيث السلاجقة في البلاد. ولكنه كان لا يجيب، ولا يبالي مشغولاً بقضايا الهند ومشاكلها، صارفاً النظر عن السلاجقة وعن خراسان.

وباشتداد أمر السلاجقة في خراسان، صمم وزراء مسعود وأصحاب الرأي في دولته، على استنهاضه لملافاة خطر السلاجقة وبينوا له أن السلاجقة إذا تمت لهم السيطرة على خراسان فهم سائرون إلى غزنة حتماً.

فتنبه للخطر وأعد جيشاً كثير العدد بقيادة حاجبه (سباشي) وأرفقه بأحد كبراء أمرائه (مرداويج بن بشو). ولم يكن في سباشي من الشجاعة ما تقتضيه هذه القيادة، بل كان جباناً، فأقام بهرات ونيسابور، ثم باغت (مرو) وبها داود، فانهزم داود ولحقته العساكر، فأدركه أحد الأمراء فقاتله داود فقتل الأمير وانهزم جنوده وتضعضعوا وارتفعت معنويات السلاجقة.

وعاد داود إلى مرو وأحسن السيرة في أهلها، وفي أول جمعة من شهر رجب سنة ٤٢٨هـ خطب باسمه ولقب بملك الملوك.

ثم التقى داود وسباشي في شعبان سنة ٤٢٨ على باب سرخس، فانهزم سباشي وسار ومن معه إلى هرات، فتبعهم داود إلى طوس وغنم أموالهم، فكانت نتيجة هذه المعركة أن ملك السلاجقة خراسان ودخل طغرل بك نيسابور وخطب له فيها في شعبان باسم السلطان الأعظم، وأرسل الحكام إلى النواحي.

وسار داود إلى هرات، واضطر مسعود إلى الذهاب بنفسه إلى خراسان بجيش كبير فيه عدد كثير من الفيلة ووصل إلى بلخ فزحف إليه داود ونزل قريباً منها.

ثم سار مسعود من بلخ يقود مئة ألف فارس فوصل الجوزجان وقبض على واليها السلجوقي فصلبه، ثم واصل سيره إلى مرو الشاهجان. ومشى داود إلى سرخس والتقى بأخويه طغرل بك وبَيْغُو، فأرسل إليهم مسعود عارضاً الصلح، فذهب إليه بيغو بالجواب فتلقاه مسعود بحفاوة بالغة، ولكن الجواب كان بأننا لا نثق بمصالحتك بعد الذي كان بيننا.

وبهذا الجواب انقطع أمل مسعود بالصلح فسار من مرو إلى هرات، فقصد داود مرو فقاومته وحاصرها سبعة أشهر مواصلاً قتالها حتى سلمت.

وكان لتسليم مرو وقع الصاعقة على مسعود، فترك هرات إلى نيسابور ثم إلى سرخس، وكلما تبع السلاجقة إلى مكان تركوه إلى غيره، حتى كان الشتاء فأقاموا بنيسابور ينتظرون الربيع. فلما جاء الربيع كان مسعود مشغولاً بلهوه وشربه، وانقضى الربيع والأمر كذلك، فلما

جاء الصيف نبهه خواصه إلى ما هو فيه مستفزين له على التصدي لأعدائه السلاجقة، فاستجاب لهم وسار من نيسابور إلى مرو لمطاردة السلاجقة، فدخلوا البرية فدخلها وراءهم في مرحلتين، وكان جنوده قد ضجروا من طول السفر وسئموا الترحل طيلة ثلاث سنين، بعضها مع سباشي وبعضها معه.

فلما دخل البرية اضطر لنزول منزل قليل الماء في حر شديد.. وكان داود ومعه جل السلاجقة بإزائه، والآخرون مقابل ساقة عساكره يتخطفون من تخلف منهم.

وزاد أمر مسعود بلاء أن حواشيه اختصموا مع جمع من عسكره على الماء وازدحموا وقامت الفتنة بينهم وأدى الحال إلى الاقتتال والتناهب، مما أدى إلى تخلخل معنويات الجند وراحوا يتذاكرون في التخلي عن مسعود.

ووصلت أخبار ما هم فيه إلى داود فباغتهم وهم في هذه الحال فولوا منهزمين وكثر القتل فيهم وتمت الهزيمة...

ومضى مسعود في نحو مئة فارس حتى أتى غَرْشِستان[١].

وكانت غنائم السلاجقة لا حصر لها، ونزل داود في سرادق مسعود وقعد على كرسيه. وسار طغرل بك إلى نيسابور فدخلها آخر سنة ٤٣١ ونهب أصحابه الناس.

وانتهى الأمر باستيلاء السلاجقة على جميع البلاد، فسار بيغو إلى هرات فدخلها، وسار داود إلى بلخ فثبت فيها والي مسعود وقاوم وأرسل إلى مسعود في غزنة يستمده، فأرسل إليه مسعود مدداً قوياً، فقصد قسم منهم الرُّخَّج[٢] وفيها جمع من السلاجقة فقاتلوهم فانهزم السلاجقة وخلت تلك الأماكن منهم.

ومضى الآخرون إلى هرات، وفيها بيغو فقاتلوه ودفعوه عنها. ثم أرسل مسعود ولده مودوداً في جيش كبير مدداً لمقاتليه هناك. ولكن الأقدار كانت لمسعود بالمرصاد.

الانقلاب على مسعود وقتله

سار مودود إلى بلخ مدداً لواليها لرد داود السلجوقي عنها، وكان مع مودود وزير أبيه أبو نصر أحمد بن محمد بنّ عبد الصمد يدبر له الأمور ويساعده في مهمته.

---

(١) غرشستان: يقول في معجم البلدان: هي ولاية برأسها، هرات في غربيها، والغور في شرقيها، ومرو الروذ عن شماليها، وغزنة عن جنوبيها. وهي ناحية واسعة كثيرة القرى.

(٢) الرخج: يقول في معجم البلدان: هي كورة ومدينة من نواحي كابل.

أما مسعود فبعد اطمئنانه إلى مسير الجيش السائر لإنقاذ بلخ، توجه بعد سبعة أيام من مسير الجيش، قاصداً الهند ومعه أخوه محمد.

وكان سفره إلى الهند بقصد إعداد حملة يستعين بها على حرب السلاجقة الذين كان قد أيقن باستفحال أمرهم وعجزه بما لديه من قوى عن قمعهم، فلما عبر نهر سيحون معبّراً معه بعض الخزائن، استغل أنوشتكين البلخي فرصة انفراده فضم إليه جماعة من الغلمان الدارية، ونهبوا ما كان قد تخلف من الخزائن، وأعلنوا إقامة محمد في الإمارة بدل أخيه مسعود، وجاءوا محمداً فسلموا عليه بالإمارة، فرفض ذلك وأباه عليهم، فهددوه، وأرغموه، فأجاب، ومضوا لحرب مسعود، والتقى الفريقان في حرب ضارية، أدت إلى انهزام مسعود، وتحصنه فيما يسميه ابن الأثير[1] رباط ماريكلة فحصروه فيه، ثم خرج إليهم مستسلماً فقال له أخوه محمد: أنظر أين تريد أن تقيم، حتى أبعثك إليه، ومعك أولادك وحُرَمك، فاختار قلعة كيكي فأنفذه إليها محفوظاً وأمر بإكرامه وصيانته.

وفوض محمد أمر الدولة إلى ولده أحمد، وكان أهوج متخبطاً فاتفق مع ابن عمه يوسف بن سبكتكين على قتل مسعود ليصفوا الملك له ولوالده فقتلاه.

ووصل خبر قتل مسعود إلى ولده مودود وهو بخراسان فعاد بعساكره إلى غزنة فالتقى بجيشه جيش عمه محمد فانهزم محمد وجيشه، وقبض مودود على محمد وولده أحمد وأنوشتكين البلخي وغيرهم فقتلهم، وعاد إلى غزنة.

فلما بلغ أهل هرات انتصار مودود ثاروا على من عندهم من السلاجقة وأخرجوهم منها. وكان مودود قد استقر أمره في غزنة، كما استقر في الهند.

وفي سنة ٤٣٣هـ وكان طغرل بك يملك جرجان وطبرستان ويولّي عليها ويعود إلى نيسابور. وفي سنة ٤٣٤ سار إلى خوارزم واستولى عليها. وفي السنة نفسها خرج من خراسان إلى الري فتسلمها وتسلم غيرها من بلد الجبال.

وأرسل إلى ملك الديلم يدعوه إلى الطاعة ويطلب منه مالاً فاستجاب له وحمل إليه مالاً وعروضاً. وسار إلى همذان فملكها.

وفي سنة ٤٣٥ سيّر مودود بن مسعود جيشاً إلى نواحي خراسان فأرسل داود أخو طغرل بك ـ وهو صاحب خراسان ـ ولده ألب أرسلان في جيش فاقتتلوا فكان النصر لألب أرسلان.

---

(١) ج٩، ص٨٥.

وفي سنة ٤٣٦ كان (السلطان) طغرل بك يستكمل أدوات (السلطنة) فيتخذ له وزيراً هو أبو القاسم علي بن عبد الله الجويني، ثم وزر له بعده رئيس الرؤساء أبو عبد الله الحسين بن علي بن ميكائيل، ثم وزر له بعده نظام الملك أبو محمد الحسن بن محمد الدهستاني، وهو أول من لقب نظام الملك، ثم وزر له بعده عميد الملك الكندري، وهو أشهر وزرائه، وسبب شهرته أن طغرل بك في أيامه عظمت دولته ووصل إلى العراق وخطب له بالسلطنة.

وفي سنة ٤٣٧ أرسل طغرل بك أخاه إبراهيم ينّال إلى بلد الجبل فملكها، ثم سار إلى همذان والدينور وقرميسين فملكها بعد أن أسرف في القتل والسبي والنهب في الثالثة لأنه لقي فيها مقاومة. ثم سار إلى الصيمرة وحلوان فأحرق هذه ونهبها.

واتجهت جماعة من السلاجقة إلى خانقين مطاردين أهل حلوان وانتشروا في تلك النواحي وبلغوا (مايدشت) وما يليها فنهبوها وأغاروا عليها.

وفي سنة ٤٣٨ كان طغرل بك يحاصر أصفهان فلا يظفر بها، وانتهى الأمر بحمل مال إليه، وأن يخطب له فيها وفي أعمالها.

وفي سنة ٤٣٩ كان السلاجقة يمتدون إلى البندنيجين فينهبونها ويفعلون الأفاعيل القبيحة، من القتل، والنهب، وافتراش النساء، والعقوبة على تخليص الأموال، فمات منهم جماعة لشدة الضرب ـ كما نص ابن الأثير في الكامل[١].

ووصلوا إلى ضواحي (باجِسْرى) فقتلوا الرجال، وغنموا الأموال، ونهبوا الأعمال، وعمّ ذلك باجسرى والهارونية وقصر سابور، وجميع تلك الأعمال، وهلك من أهل تلك النواحي المنهوبة خلق كثير، فمنهم من قتل ومنهم من غرق، ومنهم من قتله البرد[٢].

ووصل الخبر إلى بغداد بأنهم عازمون على قصد بغداد فدب الذعر في الناس.

ثم اتجهوا إلى السيروان فحصروا القلعة وأرسلوا سرية نهبت البلاد وانتهت إلى مكان بينه وبين تكريت عشرة فراسخ. والتجأ إلى بغداد من أهل طريق خراسان خلق كثير، وذكروا من حالهم ما أبكى العيون[٣].

(١) ج٩، ص٥٣٨.
(٢) ج٩، ص٥٣٩.
(٣) م. ن.

وفي سنة ٤٤٠ استولوا على شهرزور وحاصروا تيرانشاه ولكن وقوع الوباء دفعهم عنها واستردت منهم شهرزور.

ولما وصلت أخبار تنامي قوة السلاجقة وبسط سلطتهم ـ لما وصلت إلى جماعاتهم فيما وراء النهر أقبل منهم خلق كثير إلى حيث يقيم إبراهيم ينال، فقال إبراهيم: بلادي تضيق عن مقامكم والقيام بما تحتاجون إليه، والرأي أن تمضوا إلى غزو الروم، وأنا سائر على أثركم.

فسبقوه وتبعهم، فوصلوا إلى (ملازكرد)، و(ارزن الروم) و(قاليقلا) وبلغوا طرابزون وكل تلك النواحي. فزحف إليهم الروم والأبخاز بما يبلغ خمسين ألف مقاتل، فدارت الحرب سجالاً، ثم انتصر السلاجقة فكانت غنائمهم كثيرة. وراحوا ينهبون ويتقدمون حتى لم يبق بينهم وبين القسطنطينية إلا خمسة عشر يوماً.

يقول ابن الأثير(١): واستولوا على تلك النواحي فنهبوها وغنموا ما فيها، وسبوا أكثر من مئة ألف رأس، وأخذوا من الدواب والبغال والغنائم والأموال ما لا يقع عليه الإحصاء.

وفي سنة ٤٤١ وقع الخلاف بين طغرل بك وأخيه إبراهيم ينال حتى وصل الأمر إلى اقتتال جيشيهما وانهزام ينال والقبض عليه ثم إحسان أخيه إليه.

وتوطد أمر طغرل بك وعلت سلطته فأرسل إلى حاكم مقاطعة دياربكر أن يقيم له الخطبة في بلاده ففعل، وأحس البيزنطيون أنه أصبح في جوارهم حكم قوي فراسل ملكهم طغرل بك وهاداه وطلب إليه أن يتعاهدا فاستجاب له، وأعيد تعمير مسجد القسطنطينية وخطب فيه لطغرل بك.

يقول ابن الأثير(٢): ودان حينئذ الناس كلهم له، وعظم شأنه وتمكّن ملكه وثبت.

ونستطيع القول: إن هذه المرحلة هي مرحلة قيام الدولة السلجوقية وابتداء أمرها ابتداء لا ينقصه شيء من حقائق الدول ومظاهرها.

كان أبو منصور بن علاء الدولة صاحب أصفهان على تجاذب مع طغرل بك تارة يطيعه، وتارة يتمرد عليه، فلما انتهى طغرل بك من عصيان أخيه إبراهيم ينال، مضى إلى أصفهان عازماً على احتلالها فاستعصت عليه، وظل على حصارها نحو سنة، وأخيراً

---

(١) ج٩، ص٥٤٦.

(٢) ج٩، ص٥٥٧.

استسلمت ودخلها في المحرم من سنة ٤٤٣ فأحسن فيها السيرة، واستطابها فنقل ما كان له في الري من مال وذخائر وسلاح إليها وجعلها عاصمته.

على أن بعض الشرائح السلجوقية لم تفهم حقيقة قيام الدولة بسلطتها المركزية، فظلت تتصرف تصرفاً قبائلياً، فألب أرسلان بن داود أخي طغرل بك سارَ من مدينة مرو بخراسان إلى بلاد فارس دون أن يعلم عمه طغرل بك، فوصل إلى مدين (فسا) واحتلها وأحدث فيها مذبحة ونهبها وأسر الآلاف من رجالها. يقول ابن الأثير[1]: وكان الأمر عظيماً. ثم عادوا إلى خراسان.

وراح طغرل بك يمد في ملكه فاستولى على آذربيجان وسار إلى أرمينية وقصد إلى ملازكرد وكانت للبيزنطيين فحصرها وضيق على أهلها ونهب ما جاورها من البلاد وأخربها وأسر من رجالها، وبلغ حتى أرزن الروم، وعند حلول الشتاء عاد إلى آذربيجان دون أن يملك ملازكرد. ثم توجه إلى الري فأقام بها حتى دخلت سنة ٤٤٧.

(١) ج٩، ص٥٦٤ ـ ٥٦٥.

السلاجقة في العراق

سنة ٤٤٧ بدت نية الملك السلجوقي طغرل بك في الاستيلاء على العراق، فأعلن أول ما أعلن أنه يريد الحج وإصلاح طريق مكة[١]، وقد مهد بهذا الشعار ليبرر زحفه إلى العراق. ولم يكتف بهذا الإعلان، بل أضاف إليه أنه يريد المسير إلى الشام ومصر وإزالة المستنصر الفاطمي صاحبها.

وراح يعد لأمر الفتح عدته فاتصل بأنصاره بالدِّينَور وقَرْميسين وحلوان خاصة لقرب هذه المناطق من العراق، كما اتصل بغيرها مما هو أبعد منها، وأوصاهم بإعداد الميرة وجمع الأقوات والعلوفات والتهيؤ للتقدم عندما يطلب إليهم ذلك.

ثم لم يلبث أن مشى إلى حلوان وانتشرت جماعته في طريق خراسان، وأرسل إلى خليفة بغداد يعلن فيه تابعيته له وطاعته لأوامره، بل وعبوديته.

وكان في بغداد جماعات كثيرة من الأتراك فكتب إليهم يمنيهم ويعدهم بالخير العميم.

أمّا الخليفة فقد كان هواه مع طغرل بك فأمر الخطباء في جوامع بغداد بأن يخطبوا لطغرل بك، وأما الأتراك فقد أنكروا أمر طغرل بك وبعثوا إلى الخليفة برأيهم.

وأما الملك البويهي (الرحيم)[٢] فقد سلم أمره إلى الخليفة ليقرر ما يشاء، وكذلك فعل من كان مع الرحيم من الأمراء، فكان رأي الخليفة أن يرسلوا رسولاً إلى طغرل بك بإعلان الطاعة، ففعلوا.

---

(١) ابن الأثير: ج٩، ص٦٠٩.

(٢) هو أبو نصر خُرّه فيروز بن أبي كاليجار المرزبان بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه. تولى بعد وفاة أبيه أبي كاليجار سنة ٤٤٠هـ.

ثم أرسل إلى الخليفة يستأذنه في دخول بغداد فأذن له، وخرج لاستقباله موكب حاشد فيه الوزير رئيس الرؤساء والقضاة والنقباء والأشراف وأعيان الدولة مع وجوه الأمراء من عسكر الرحيم. فلما علم طغرل بك بتوجه المستقبلين إليه أرسل وفداً من قبله لملاقاتهم وزيره أبا نصر الكندري مع بعض الأمراء ودخل بغداد.

إذا كان طغرل بك قد استُقبل ـ حكومياً ـ بهذا الاستقبال الحافل، فإن عواطف الشعب لم تكن متوافقة مع هذا الاستقبال الحكومي.

ومن الغريب ـ كما سنرى ـ أن دخول طغرل بك إلى بغداد وإعلان اسمه في الخطبة، كان يعني نهاية الحكم البويهي الشيعي وحلول الحكم السلجوقي السني مكانه، ومع ذلك فإن البغداديين السنيين هم الذين بادروه بالمقاومة والثورة، في حين قابله الشيعة بالهدوء والسكينة وحماية جنوده من الاعتداءات السنية عليهم!!.

إن المؤرخ لا يستطيع أن يمر بهذا الأمر دون أن يقف عليه وقوفاً طويلاً، ودون أن يتساءل لماذا قابل سنيو بغداد طغرل بك وحكمه السلجوقي، بهذ الغضبة الدموية، ولماذا كان هدوء الشيعة وسكينتهم؟!.

الحقيقة في ذلك تشرِّف البويهيين وحكمهم، وتدل على أن البويهيين لم يكونوا يؤثرون فريقاً على فريق، فالسنيون لم يروا في زوال حكمهم زوال عهد كان لا ينصفهم ويتعصب عليهم، والشيعة لم يروا في ذلك خسراناً، لأن الحكم الزائل لم يكن يميزهم بشيء، فهم لا يخسرون شيئاً بزواله وحلول حكم آخر محله، وقد فضلوا أن يبادروه بالإحسان إليه ـ كما سنرى ـ والسكوت عنه اتقاء لشر يمكن أن يحل بهم منه.

وثورة السنيين إنما جاءت لما كان يبلغهم من أخبار مظالم السلاجقة فيما كان بأيديهم من بلاد.

بدأت الاضطرابات ابتداء غريباً، فابن الأثير يقول[1]: لما وصل السلطان طغرل بك بغداد دخل عسكره البلد للامتيار وشراء ما يريدونه من أهلها، وأحسنوا معاملتهم. ثم يقول: فلما كان الغد جاء بعض العسكر إلى باب الأزج وأخذ واحداً من أهله ليطلب منه تبناً، وهو لا يفهم ما يريدون، فاستغاث عليهم وصاح العامة بهم ورجموهم وهاجوا عليهم.

وسمع الناس الصياح فظنوا أن الملك الرحيم وعسكره قد عزموا على قتال طغرل بك،

(١) ج٩، ص٦١١.

فارتج البلد من أقطاره، وأقبلوا من كل حدب ينسلون، يقتلون من الغز من وجد في محال بغداد إلا أهل الكرخ (الشيعة) فإنهم لم يتعرضوا إلى الغز، بل جمعوهم وحفظوهم (انتهى).

في اليوم الأول كان التعامل حسناً بين الجنود (الغز) جنود طغرل بك وبين البغداديين، فالجنود امتاروا من تجار بغداد وأحسنوا التعامل معهم، وفي اليوم الثاني جاء جماعة منهم يريدون شراء التبن لدوابهم، ويبدو جلياً أنهم لم يكونوا يعرفون كلمة (التبن) العربية، فحاولوا إفهام أحد المارة ما يريدون فأخذوه جانباً ليتفاهموا معه، فظن أنهم يريدون به شراً، فاستنصر بالناس فنصروه وتألب عليهم الجمهور وصاحوا بهم ورجموهم وتكاثروا عليهم!.

لو كان البغداديون مبتهجين بزوال الحكم البويهي الشيعي لأغضوا عن استنجاد ذاك الفرد المستنجد ولأقبلوا إليه وإلى من استنجد عليهم محاولين الاستفهام عما يجري ولفضوا المشكل بين الفريقين بأهون سبيل...

ولو كانوا مستبشرين بقدوم من أراحهم من حكم البويهيين لطيبوا خاطر الجنود الغز وتعرفوا إلى حاجتهم وبادروا بإرشادهم إلى باعة التبن واعتذروا إليهم عن سوء ظن ذاك الفرد بهم، ولتصافوا جميعاً وانتهى الأمر بالتوادد والتحابب.

ولكن البغداديين كانوا آسفين لانقضاء العهد البويهي غاضبين على من أنهاه، فلم يكادوا يسمعون صرخة الاستنجاد حتى هاجموا جنود طغرل بك ورجموهم دون أن يحاولوا الاستفسار عن سبب الخلاف، والاستعلام من الجنود عما يريدون.

على أن الأخطر من ذلك هو أن الأمر لم يقتصر على من شهدوا التجاذب بين البغدادي وجنود طغرل بك فهاجوا على الجنود ورجموهم، بل تعدى إلى الجمهور البغدادي السني كله، هذا الجمهور الذي وصفه ابن الأثر بقوله:

«وسمع الناس الصياح، فظنوا أن الملك الرحيم وعسكره قد عزموا على قتال طغرل بك فارتج البلد من أقطاره، وأقبلوا من كل حدب ينسلون، يقتلون من الغز من وجد في محال بغداد، إلا أهل الكرخ (الشيعة) فإنهم لم يتعرضوا إلى الغز وحفظوهم» اهـ.

ومعنى ذلك أن البغداديين حين علموا بتسليم الملك البويهي بالأمر الواقع وعدم مقاومته للاحتلال السلجوقي سكتوا وسلموا مثله بالأمر بالواقع. ولكنهم حينما سمعوا الصياح ورأوا اشتباك مواطنيهم مع الغز جنود طغرل بك، ظنوا بأن الملك البويهي (الرحيم) غيّر رأيه وعزم على المقاومة، لذلك ارتج البلد بهم وأقبلوا من كل حدب ينسلون، وراحوا يقتلون كل من يصادفونه من الجنود، وأعلنوها ثورة عامة على طغرل بك واحتلاله.

أما أهل الكرخ (الشيعة) فقد كان موقفهم مغايراً، ويبدو واضحاً أنهم لم يشاركوا في هذه الثورة، بل راحوا يجمعون الجنود الغز ويحفظونهم.

وهذا ما يدعو إلى التفكير الطويل: السنيون يثورون على المحتل السني القادم إليهم، وينتصرون للحاكم الشيعي ويثورون معه حين توهموا أنه ثائر على المحتلين، ولا يبالون أن يقتلوا الجنود السنيين حيث وجدوهم.

والشيعة يقفون على الحياد فلا ينتصرون للحاكم الشيعي، ولا يثورون على الحاكم السني، ويزيدون على ذلك بأن يجمعوا الجنود السنيين ويحموهم ويصونوا دماءهم!!

التفسير الصحيح لذلك ـ كما أشرنا من قبل ـ هو أن الحكم البويهي كان حكماً عادلاً غير متحيز لفريق على فريق، وأن السنيين كانوا راضين كل الرضا عن هذا الحكم الذي لم يسيء لا إلى حياتهم العامة ولا إلى مذهبيتهم، ولم يتدخل في طقوسهم وعقائدهم، بل تركهم أحراراً في كل شيء، والحرية هي مطمح الإنسان، فإذا حصل عليها فكل شيء بعدها يهون.

وكل ما فعله الحكم البويهي هو أنه كما ترك السنيين أحراراً، رفع الحيف عن الآخرين وأعاد إليهم حريتهم المغتصبة، وتركهم يمارسون هذه الحرية في طقوسهم وعقائدهم..

وبذلك تساوى الجميع، بعد أن كانت الحرية لفريق دون فريق...

وسمعة الحكم السلجوقي كانت سيئة لدى البغداديين السنيين، وأخبار مظالمه كانت تصل إليهم.

لذلك رأيناهم يقفون منه ذاك الموقف الحاد حين رأوه يصل إليهم. والإنسان لا تهمه حريته العقائدية فقط، بل تهمه حريته الكاملة، فماذا يجديه إذا كانت تُترك له حريته العقائدية في حين تُسلب منه حرية الحياة في كرامته وماله وعيشه واجتنائه العدل الاجتماعي.

ونحن هنا لا نريد أن نستعرض الحكم البويهي الذي قابل البغداديون انتهاءه بالثورة على من أنهاه، وحسبنا في أن نورد نماذج مما شهد به المؤرخون من نصاعة الحكم البويهي، فابن الأثير[1] يقول مثلاً وهو يتحدث عن ظفر معز الدولة أبي الحسين أحمد بن بويه بياقوت ملك شيراز بعد معركة شرسة. يقول: كان معز الدولة في ذلك من أحسن الناس أثراً، ثم يقول إن معز الدولة وجد فيما غنمه بعد النصر: برانس لبود عليها أذناب الثعالب ووجد قيوداً وأغلالاً،

(١) ج٨، ص٢٧٦.

فسأل عنها، فقال أصحاب ياقوت: إن هذه أعدت لكم لتجعل عليكم ويطاف بكم في البلاد.

فأشار أصحاب معز الدولة أن يفعل بهم مثل ذلك، فامتنع وقال: إنه بغي ولؤم ظفر، وقد لقي ياقوت بغيه.

ثم أحسن إلى الأسارى، وأطلقهم وقال: هذه نعمة والشكر عليها واجب يقتضي المزيد، وخيّر الأسارى بين المقام عنده واللحوق بياقوت، فاختاروا المقام عنده، فخلع عليهم وأحسن إليهم.

وسار من موضع الوقعة حتى نزل بشيراز، ونادى في الناس بالأمان وبث العدل، وأقام لهم شحنة يمنع من ظلمهم...

ويصفه عند ذكر موته (ص٥٧٥) بقوله: كان حليماً كريماً عاقلاً.

وعندما يتحدث ابن الأثير (ص٦٧٠) عن ركن الدولة البويهي يقول:

كان حليماً، كريماً، واسع الكرم، كثير البذل، حسن السياسة لرعاياه، وجنده رؤوفاً بهم، عادلاً في الحكم بينهم، وكان بعيد الهمة، عظيم الجد والسعادة، متحرجاً من الظلم، مانعاً لأصحابه منه، عفيفاً عن الدماء، يرى حقنها واجباً إلا فيما لا بد منه. وكان يحامي على أهل البيوتات وكان يجرى عليهم الأرزاق ويصونهم عن التبذل، وكان يقصد المساجد الجامعة في أشهر الصيام، للصلاة، وينتصب لرد المظالم، ويتعهد العلويين بالأموال الكثيرة، ويتصدق بالأموال الجليلة على ذوي الحاجات، ويلين جانبه للخاص والعام.

ثم يختم ابن الأثير الحديث عنه قائلاً: رضي الله عنه وأرضاه.

ومثل هذا القول لا يقال إلا للخلفاء الراشدين.

ويقول ابن الأثير عن عضد الدولة: كان عاقلاً فاضلاً حسن السياسة كثير الإصابة شديد الهيبة بعيد الهمة ثاقب الرأي محباً للفضائل وأهلها باذلاً في مواضع العطاء مانعاً في أماكن الحزم ناظراً في عواقب الأمور[١]. وبنى على مدينة النبي ﷺ سوراً[٢] وكان لا يعول في الأمور إلا على الكفاة، ولا يجعل للشفاعات طريقاً إلى معارضة من ليس من جنس الشافع ولا فيما يتعلق به.

---

(١) ابن الأثير: ج٩، ص١٩.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٠.

حكي عنه أن مقدم جيشه أسفار بن كردويه شفع في بعض أبناء العدول ليتقدم إلى القاضي ليسمع تزكيته ويعدله، فقال: ليس هذا من أشغالك، إنما الذي يتعلّق بك الخطاب في زيادة قائد، ونقل مرتبة جندي وما يتعلق بهم. وأما الشهادة وقبولها، فهو إلى القاضي، وليس لنا، ولا لك الكلام فيه، ومتى عرف القضاة من إنسان ما يجوز معه قبول شهادته، فعلوا ذلك بغير شفاعة.

وكان يخرج من ابتداء كل سنة شيئاً كثيراً من الأموال للصدقة والبر في سائر بلاده، ويأمر بتسليم ذلك إلى القضاة ووجوه الناس ليصرفوه إلى مستحقيه.

وكان يوصل إلى العمال المتعطلين ما يقوم بهم ويحاسبهم به إذا عملوا. وكان محباً للعلوم وأهلها مقرباً لهم محسناً إليهم، وكان يجلس معهم يعارضهم في المسائل، فقصده العلماء من كل بلد وصنفوا له الكتب منها: الإيضاح في النحو، والحجة في القراءات، والملكي في الطب، والتاجي في التاريخ إلى غير ذلك، وعمل المصالح في سائر البلاد كالبيمارستانات (المستشفيات) والقناطر (الجسور) وغير ذلك من المصالح العامة.

هذه نماذج مما تحدث به المؤرخون عن رجال الحكم البويهي، لذلك لا نعجب إذا رأينا البغداديين الذين لم يكونوا على مذهبهم يغضبون لزوال حكمهم ويثورون على من أزال هذا الحكم.

أما الشيعة فلم يشاءوا أن يورطوا أنفسهم في ثورة اعتقدوا أنها فاشلة، فيجعلوا للحاكم الجديد سبيلاً للإيغال في اضطهادهم، ورأوا أن يكون لهم يد بيضاء عنده في حمايتهم لجنوده وعدم التعرض لهم بالأذى وصون دمائهم. لعل هذه اليد تردعه عما يتوقعون من شره!..

وبالفعل فقد بدا أن موقفهم هذا قد أثمر، ولكن المؤسف أن هذا الأثمار كان إلى حين.

لقد بلغ طغرل بك ما فعله الشيعة من حماية جنوده، فأمر بإحسان معاملتهم وأرسل وزيره إلى نقيب العلويين عدنان بن الشريف الرضي الذي كان يتولى نقابة العلويين بعد وفاة عمه الشريف المرتضى، وقد كان عدنان هذا أبرز شخصية شيعية في بغداد، بل كان رأس الشيعة فيها.

أرسل الوزير إلى النقيب يطلب إليه الحضور لمقابلته، فجاء إليه فشكره باسم طغرل بك، وترك عنده خيلاً بأمر طغرل بك تحرسه وتحرس المحلة كلها.

ومعنى ذلك أنهم كانوا يتوجسون من اعتداءات ربما تقع على النقيب وعلى المحلة بسبب الموقف الحيادي الذي وقفته.

لقد كانت الثورة على الحكم الجديد ثورة هوجاء بدون قيادة وبدون تخطيط، فالعامة حين رأوا أنهم نجحوا في قتل من قتلوا من الجنود، خرجوا إلى ظاهر بغداد حيث يعسكر الجيش السلجوقي، وخرج معهم جماعة من العسكر، بقصد الاشتباك بالجيش.

وفي تقديرات ابن الأثير[1] أنه لو خرج معهم الملك الرحيم ومن لديه من جنود لانتصرت الثورة.

وهذا غير بعيد، لأن في ذلك ـ على الأقل ـ وجود قيادة، ووجود جنود محترفين.

ولكن يبدو أن (الرحيم) لم يكن من رجال مثل هذا الموقف الذي يقتضي شجاعة وحزماً وحسن تدبير، لذلك تخلف عن الالتحاق بالثائرين وتخلف معه جنوده.

أما أعيان أصحابه فقد أسرعوا ـ دفعاً للتهمة عنهم ـ إلى دار الخلافة وأقاموا فيها.

ووقع الصدام خارج بغداد بين الجماعات الثائرة وبين الجيش السلجوقي وكثرت القتلى من الفريقين.

وكان من الطبيعي أن تكون نهاية تلك الجماعات: الهزيمة، لأنه كان يعوز ثورتها شيئان: التخطيط، والقيادة.

وكان هذان الشيئان الأساسيان مفقودين لدى الثوار المقاتلين، إذ أن ثورتهم انبعثت من انفعال جماهيري طارىء فانتهت إلى الهزيمة، وإحكام سيطرة طغرل بك على بغداد.

تحققت هواجس البغداديين فافتتح الحكم السلجوقي أمره بالنهب، ويصف ابن الأثير ما كان يجري قائلاً: ونهب الغُزّ درب يحيى ودرب سليم، وبه دور رئيس الرؤساء ودور أهله فنهب الجميع. اهـ. ورئيس الرؤساء هذا هو وزير الخليفة وهو الذي ذكرنا من قبل أنه خرج على رأس موكب حافل لاستقبال طغرل بك.

فلم يشفع له منصبه واستقباله وحفاوته، بل نهبت دوره ودور أهله.

ويسترسل ابن الأثير في وصف ما افتتح به السلاجقة حكمهم في العراق قائلاً: ونهبت الرصافة وتُرَب الخلفاء وأخذ منها من الأموال ما لا يحصى، لأن أهل تلك الأصقاع نقلوا إليها أموالهم اعتقاداً منهم أنها محترمة.

---

(١) ج٩، ص٦١١.

ووصل النهب إلى أطراف نهر المعلّى، واشتد البلاء على الناس وعظم الخوف اهـ.

وتجاهل طغرل بك ذلك كله، وكل ما فعله أنه أراد التخلص من ارتباطات وعوده للملك الرحيم التي كانت بتوسط الخليفة، فأرسل إلى الخليفة يعتب، وينسب ما جرى إلى الملك الرحيم وأجناده، ويقول إذا حضروا برئت ساحتهم، وإن تأخروا عن الحضور أيقنت أن ما جرى إنما كان بوضع منهم. وأرسل للملك الرحيم وأعيان أصحابه أماناً لهم، فطلب إليهم الخليفة أن يذهبوا إلى طغرل بك وأرسل معهم رسولاً من قبله يبرئهم مما يتهمهم به طغرل بك.

فلما وصلوا إلى خيامه نهبهم الجنود ونهبوا رسل الخليفة وأخذوا دوابهم وثيابهم[١].

ومع أن احتلال السلاجقة للعراق ودخول طغرل بك بغداد كان في حقيقة الأمر نتيجة تواطؤ بين السلاجقة والخليفة تخلصاً من سيطرة البويهيين على الخلافة، فإن هيبة الخلافة انتهكت من السلاجقة في أول يوم وصلوا فيه إلى بغداد، وذلك بإهانة رسل الخليفة ونهبهم وتجريدهم حتى من ثيابهم.

وزيد في الأمر أن الملك الرحيم ومن معه إنما ذهبوا إلى طغرل بك بضمان الخليفة ورسالة بتبرئتهم، ولكن طغرل بك لم يبال بذلك، فبمجرد دخولهم عليه، أمر بالقبض عليهم وسجنهم، ثم أرسل الملك الرحيم معتقلاً إلى قلعة السيروان.

وهال الخليفة ما لحقه من الإهانة بالقبض على الرحيم وأصحابه، وما كان قد جرى على رسله، ونهب بغداد على مرأى ومسمع منه، فأرسل إلى طغرل بك ينكر ما جرى من القبض على الرحيم وجماعته، والاعتداء على قاعدة الخلافة بغداد ونهبها وترويع أهلها. ويقول في رسالته:

«إنهم (الرحيم وصحبه) إنما خرجوا إليك بأمري وأماني، فإن أطلقتهم، وإلا فأنا أفارق بغداد، فإني إنما اخترتك واستدعيتك اعتقاداً مني أن تعظيم الأوامر الشريفة يزداد، وحرمة الحريم تعظم، وأرى الأمر بالضد».

وإزاء هذه الغضبة الخليفية أطلق طغرل بك بعض المقبوض عليهم، أما الرحيم - وهو المقصود الأول بكلام الخليفة - فقد احتفظ به مقبوضاً عليه وأرسله معتقلاً سجيناً إلى قلعة السيروان، كما مر.

---

(١) الكامل ج٩، ص٦١٢.

وهكذا ظلت غضبة الخليفة بلا نتيجة عملية، فكان هذا بداية الاستهتار بمقام الخلافة، وبداية إذلالها وإحكام السيطرة عليها.

وأما ما يتعلق باحتجاج الخليفة على ما جرى على أهل بغداد، فقد قوبل بمد النهب والترويع إلى ما يتجاوز بغداد ويصل إلى سوادها وأريافها، وظل المد يتعاظم حتى صار مداه من الجانب الغربي من تكريت إلى النيل(١) ومن الشرقي إلى النهروان(٢) وأسافل الأعمال، كما ذكر ابن الأثير(٣). أي أن النهب شمل معظم العراق.

ويضيف ابن الأثير إلى ذلك قائلاً: وخرب السواد وأجلي أهله عنه(٤).

هذه هي فاتحة أعمال السلاجقة في العراق التي عموا بها العراقيين جميعاً السنيين منهم والشيعة.

على أنهم لم ينسوا أن يخصوا الشيعة الذين لم يشاركوا في الثورة عليهم، وحموا جنودهم من القتل وآووهم في دورهم ـ لم ينسوا أن يخصوهم بنوع من الجور لا يطال غيرهم. فالشيعة لا يقولون في إذان السحر: (الصلاة خير من النوم)، بل يقولون بدلاً عن ذلك (حي على خير العمل).

---

(١) **النيل**: بلدة على نهر الفرات. والأصل في اسمها هو نهر حفرهُ الحجاج من الفرات وسماه باسم نيل مصر، وبه تسمت البلدة، وهي اليوم قرية عامرة قرب بابل على بعد حوالي خمسة أميال من مدينة الحلة.

(٢) **النهروان**: بلدة اندرست وكانت على صدر نهر النهروان جنوبي بغداد.

(٣) ج٩، ص٦١٣.

(٤) **السواد**: يعني العراق. قال الخطيب البغدادي، وإنما سمي السواد سواداً لأن المسلمين قدموا يفتحون الكوفة، فلما أبصروا النخل قالوا: ما هذا السواد، فكلمة السواد أصبحت مدلولاً على الأراضي الزراعية الخصبة المكونة من ترسبات دجلة والفرات. أما حدود السواد فإنها تكاد تكون منطبقة على حدود العراق مع اختلاف الجغرافيين المسلمين في تحديد الحد الشمالي له، فمنهم من يرى أن حدود العراق هي: في الطول من حد تكريت إلى حد عبادان على خليج فارس. وفي العرض عند بغداد في قادسية الكوفة إلى حلوان، وعرضه بواسط ـ من واسط إلى قرب الطيب، وعرضه بالبصرة ـ من البصرة إلى حدود جبى. هذا ما قاله الإصطخري أما الخطيب البغدادي فإنه يحدد العراق: من بلد إلى عبادان، وعرضه من العذيب إلى جبل حلوان. ومدينة بلد التي يقصدها الخطيب هي الموضع المعروف اليوم: بأسكي موصل، وتعرف باسم (بلط) أيضاً، وتقع على بعد ٤٠ كلم شمالي غربي الموصل على ضفة دجلة اليمنى.

وقد تطلق كلمة (السواد) مضافة إلى إحدى المدن، فيقال: سواد الكوفة وسواد البصرة وسواد بغداد.

فإذا بأوامر طغرل بك من أول يوم تتدخل في شؤونهم المذهبية وتفرض عليهم أن يتركوا حي على خير العمل، ويبدلوها بالصلاة خير من النوم.

في حين أن البويهيين الذين طال حكمهم في بغداد والعراق لم يتدخلوا في مثل هذه الشؤون، وتركوا الناس أحراراً في طقوسهم المذهبية.

وسينال الشيعة ما هو أشد من هذا وأفظع.

طغرل بك في العراق

استقر طغرل بك في بغداد وأمضى فيها ثلاثة عشر شهراً وأياماً دون أن يلقى الخليفة[1]. وقد كان في هذا تجاهل لمقام الخلافة واستهانة بالخليفة.

وهذا الخليفة الذي تآمر مع السلاجقة على البويهيين، عامله السلاجقة بالمهانة منذ اليوم الذي دخلوا فيه بغداد، كما رأينا فيما تقدم من الأحداث. وتوالت هذه المهانة إلى الحد الذي لم ير فيه الملك السلجوقي أن عليه أن يزور الخليفة!..

وإذا كان ما لقيه الخليفة هو المهانة، فإن ما لقيه الشعب هو الإذلال والإفقار. يقول ابن الأثير[2] «طال مقام السلطان طغرل بك ببغداد وعم الخلق ضرر عسكره، وضاقت عليهم مساكنهم ـ فإن العسكر نزلوا فيها ـ وغلبوهم على أقواتهم وارتكبوا منهم كل محظور».

هذه الصورة الموجزة ترينا واقع الحال التي كان عليها أهالي بغداد في حكم السلاجقة: الجنود يشاطرونهم السكنى في دورهم.

ونستطيع أن نتصور بضعة جنود يساكنون أسرة في منزلها، الأسرة المكونة من رجال ونساء وأطفال. وعلى هذه الأسرة أن تتكفل بإطعام هؤلاء الجنود، وفوق ذلك يرتكب هؤلاء الجنود في الأسرة كل محظور!! والمحظورات التي لم يشأ ابن الأثير أن يعددها نستطيع أن نتخيلها ونحسها!.

هال الخليفة القائم بأمر الله ما يلقاه الشعب البغدادي ـ لا سيما وأنه المسؤول الأول عن احتلال السلاجقة لبغداد ـ وما دام السلطان السلجوقي يتجاهله، فقد رأى أن لا يخاطبه، ولا يتصل به مباشرة، فكلف وزيره الملقب رئيس الرؤساء: أن يكتب إلى عميد الملك الكندري وزير السلطان أن يحضر لمقابلة الوزير فإذا حضر بيّن له عن الخليفة ما الناس فيه من البلاء،

---

(١) ابن الأثير: ج٩، ص٦٢٧.

(٢) ابن الأثير: ج٩، ص٦٢٦.

فإن أزال ذلك، وإلا يساعد الخليفة على الانتزاح عن بغداد ليبعد عن المنكرات[1].

ولا شك أن الخليفة قد تصرف تصرفاً فيه كل الدقة (الدبلوماسية)، فهو لم يخاطب السلطان بنفسه، فدلّل بذلك على أنه لا يعترف به. ثم هو لم يطلب من وزيره أن يذهب لمخاطبة وزير السلطان، بل طلب إليه استدعاءه إليه، فدلّل بذلك على أنه هو ووزيره أصحاب السلطة الشرعية. . .

وجاء الكندري وتبلّغ أمر الخليفة، ومضى إلى السلطان يبلغه ذلك. فاعتذر السلطان بكثرة العساكر وعجزه عن تهذيبهم وضبطهم، وأمر الكندري أن يبلغ عذره هذا إلى وزير الخليفة. .

وبذلك أبدى إصراره على استدامة الحال على ما كانت عليه، ورفض تعليمات الخليفة برفع البلاء، وعدم اكتراثه بتهديد الخليفة بالرحيل عن بغداد. . .

وهنا حدث ما لم يكن بالحسبان: فقد حصلت عند سنجار معركة حربية بين (البساسيري) ـ سيأتي الحديث عنه ـ ومعه نور الدولة بن دُبَيس بن مزيد[2] وبين قريش بن بدران صاحب الموصل ومعه (قتلمش)[3] فاقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم قريش وقتلمش وقتل العدد الكثير من أصحابهما.

أما قتلمش المنهزم بأصحابه فقد لقي هو وأصحابه من أهل سنجار الأذى البالغ.

وأما قريش بن بدران فقد جرح في المعركة، فجاء إلى نور الدولة دبيس بن مزيد، فرحب به دبيس وأعطاه خلعة كانت قد وصلت من مصر فلبسها.

وانضم إليهم وساروا جميعاً إلى الموصل وأعلنوا انضمامها إلى الخلافة الفاطمية وخطبوا للخليفة الفاطمي المستنصر بالله.

وصلت أنباء ما جرى إلى طغرل بك في بغداد وهو في عنفوان تجبره واستعلائه على الخليفة وإصراره على اضطهاد الشعب العراقي.

ويبدو جلياً أنها وصلته في نفس اليوم الذي رد فيه على رسالة وزير الخليفة بما رد، وبعد أن حمل وزيره الكندري رده إلى وزير الخليفة.

---

(١) ابن الأثير: ج٩، ص٦٢٦.

(٢) أمير الحلة.

(٣) **قتلمش**: هو ابن عم طغرل بك، وهو جد الملوك أولاد قلج أرسلان أصحاب قونية وقيصرية وأقصر وملطية.

فأمام الخطر الداهم الذي فاجأته أخباره عما جرى في الموصل، والخشية من تفاقم الأمور وامتداد العصيان باتجاه بغداد، وقد بدت طلائعه بما جرى على ابن عمه وممثله (قتلمش) في سنجار. أمام ذلك لم يجد بداً من التراجع عن طغيانه، واسترضاء الخليفة والبغداديين، وإيجاد مخرج لذلك، لا يبدو فيه ضعيفاً متخاذلاً، متراجعاً عما عزم عليه، خائفاً من الآتي.

كان المخرج هو ادعاؤه أنه رأى في تلك الليلة في منامه النبي ﷺ عند الكعبة وكأنه يسلم على النبي وهو معرض عنه لم يلتفت إليه، وقال له: يحكّمك الله في بلاده وعباده، فلا تراقبه فيهم ولا تستحي من جلاله عز وجل في سوء معاملتهم وتغتر بإهماله عند الجور عليهم.

وتظاهر بأن استيقظ فزعاً، وأحضر وزيره الكندري وحدثه بما ادعى أنه رآه وأرسله إلى الخليفة يعرّفه أنه يقابل ما رسم به بالسمع والطاعة.

وأخرج الجند من دور العامة، وأمر أن يظهر من كان مخفياً. إلى غير ذلك. . .

ثم تجهز طغرل بك وترك بغداد لإخماد تمرد الموصل، فلما بلغ بجيشه (أوانا)[1] نسي النبي ﷺ ونسي المنام فاعمل جيشه النهب فيها وفي عكبرا[2] وفي كل ما كان يمر به في طريقه. ووصل تكريت فسلمت البلدة بمال قدمه صاحبها لطغرل بك.

ولما وصل (البوازيج)[3] أقام فيها حتى دخلت سنة ٤٤٩ هـ فأتاه أخوه (ياقوتي) بالعساكر فسار بهم إلى الموصل واستخلصها.

ولما بدت لدبيس بن مزيد وقريش بن بدران مظاهر قوة طغرل بك أسرعا يوسطان من يشفع لهما عنده ويعفو عنهما ففعل.

ولكن إبراهيم ينّال أخوه قال للوزير الكندري: من هؤلاء العرب حتى تجعلهم نظراء السلطان وتصلح بينهم؟[4]. هذا هو احترام السلاجقة للعرب! . .[5].

---

(١) بليدة كثيرة البساتين والشجر نزهة بينها وبين بغداد عشرة فراسخ من جهة تكريت.

(٢) بليدة قرب أوانا.

(٣) بلد قرب تكريت على فم الزاب الأسفل حيث يصب في دجلة.

(٤) الكامل ج٩، ص٦٣٠.

(٥) حين تقارن بين احتقار هذا السلجوقي للعرب وتمجيد الصاحب بن عباد وزير البويهيين لهم حين أنشده بعض الشعوبيين قصيدة في مدحه يعرّض فيها بالعرب فغضب الصاحب وطلب إلى ☜

ثم سار طغرل بك إلى ديار بكر وجزيرة ابن عمر، ولما كان يحاصرها سار جماعة من الجيش إلى (عُمْر أكمُن)[١] وفيه أربع مئة راهب فذبحوا منهم مئة وعشرين راهباً، وافتدى الباقون أنفسهم بستة مكايك ذهباً. . .

أرسلان البساسيري

البساسيري هو في الأصل مملوك تركي من مماليك بهاء الدولة بن عضد الدولة البويهي ثم صار من جملة الأمراء عند البويهيين يرسلونه في مهماتهم، ثم ترقت به الحال وتقدم عند الخليفة القائم وقلده الأمور بأسرها وخطب له على المنابر وهابته الملوك ثم جرت بينه وبين وزير الخليفة الملقب رئيس الرؤساء منافرات فخرج البساسيري من بغداد وجمع واستولى على بغداد، وأخرج الخليفة منها، وخطب للمستنصر الفاطمي وقتل رئيس الرؤساء شر قتلة، واستولى على بغداد سنة كاملة. ـ في تفاصيل سنعرض لبعضها بقدر ما له ارتباط بموضوعنا ـ.

ومما يدل على كفاءة البساسيري، ما يذكره ابن الأثير في إحداث سنة ٤٢٥[٢] من أنه فيها استخلف البساسيري في حماية الجانب الغربي ببغداد لأن العيارين اشتد أمرهم وعظم فسادهم وعجز عنهم نواب السلطان فاستعملوا البساسيري لكفايته ونهضته.

= أحد الشعراء العرب أن يرد عليه في مجلسه، وقال للشاعر الشعوبي: جائزتك جوازك، إن رأيتك بعدها في مملكتي ضربت عنقك.

حين نقارن بين الاثنين نعرف من هم البويهيون ومن هم السلاجقة.

(١) قال في معجم البلدان وهو يتحدث عن (عُمْر كسكر): العمر: هو الدير للنصارى، ذكر أبو حنيفة الدينوري في كتاب النبات إن العمر الذي للنصارى إنما سمي بذلك لأن العمر في لغة العرب نوع من النخل، وكان النصارى بالعراق يبنون ديرتهم عنده فسمي الدير به. وهذا قول لا أرتضيه لأن العمر قد يكون في مواضع لا نخل به البتة كنحو نصيبين والجزيرة وغيرهما، والذي عندي فيه أنه من قولهم: عمرت ربي أي عبدته، وفلان عامر لربه أي عابد، وتركت فلاناً يعمر ربه أي يعبده، فيجوز أن يكون الموضع الذي يُتعبد فيه يسمى العُمْر، ويجوز أن يكون مأخوذاً من الاعتمار والعمرة وهي الزيارة، وأن يراد أنه الموضع الذي يزار، ويقال جاءنا فلان معتمراً أي زائراً. ويقال عمرت ربي وحججته أي خدمته، فيجوز أن يكون العمر الموضع الذي يخدم فيه الرب، وقد يغلب الفرع على الأصل بالكلية. ويجوز أن يكون من العمر الذي هو الحياة كأنهم سموه بما يؤول إليه لأن النصراني يفني عمره فيه. فهذا هو الحق في اشتقاقه (انتهى).

فالعُمْر إذاً هو الدير، أما أكمن: فلم أجد لها ذكراً في معجم البلدان، مع أنه تحدث عن: عمر كسكر، وعمر الحبيس، وعمر نصر، وعمر واسط.

(٢) ج٩ ص٤٣٧.

فهو يبدو هنا إدارياً حازماً معداً لمواجهة صعاب الأمور.

وفي أخبار سنة ٤٣٢ نقرأ أن خلافاً قام بين جلال الدولة البويهي وبين قرواش بن المقلد العقيلي صاحب الموصل وأن جلال الدولة أرسل أبا الحارث البساسيري في مهمة عسكرية ناتجة من هذا الخلاف. وفي أحداث سنة ٤٤١ نقرأ أن جمعاً من بني عقيل ساروا إلى بلاد العجم من أعمال العراق وباذوريا فنهبوهما وأخذوا من الأموال الكثير، وكانا في إقطاع البساسيري فسار من بغداد بعد عوده من فارس إليهم، فالتقوا هم وزعيم الدولة أبو كامل بن المقلد، واقتتلوا قتالاً شديداً أبلى الفريقان فيه بلاء حسناً، وصبراً جميلاً وقتل جماعة من الفريقين.

وابن الأثير راوي هذا الخبر لم يحدثنا من قبل عن سفر البساسيري إلى فارس، ولا هو حدثنا هنا عما آلت إليه تلك الحرب!.

وإن نكن عرفنا أنه قد أصبح للبساسيري إقطاعات عديدة واسعة وأن له مقاتلين ينفرون معه لقتال أعدائه قتالاً شديداً.

ثم لا نلبث أن نقرأ أن حرباً شديدة قامت بين نور الدولة دبيس بن مزيد وبين الأتراك الواسطيين، وأنه بعد وقوع الهزيمة على الواسطيين أرسلوا إلى بغداد يستنجدون جندها، وأنهم بذلوا للبساسيري أن يدفع عنهم نور الدولة، ويأخذ نهر الصلة ونهر الفصل لنفسه.

ثم نقرأ أن قرواشاً أساء السيرة في أهل الأنبار ومد يده إلى أموالهم، فسار جماعة من أهلها إلى البساسيري في بغداد وسألوه أن ينفذ معهم عسكراً يسلمون إليه الأنبار فأجابهم إلى ذلك، وسير معهم جيشاً، فتسلموا الأنبار، ولحقهم البساسيري وأحسن إلى أهلها، وعدل فيهم، ولم يمكن أحداً من أصحابه أن يأخذ رطل خبز بدون ثمنه، وأقام فيها إلى أن أصلح حالها وقرر قواعدها وعاد إلى بغداد.

فها هنا يبدو البساسيري صاحب عسكر مستقل بأمره يُستنجد به فينجد...

ثم نراه بعد ذلك يسير من بغداد إلى طريق خراسان ويقصد ناحية الدزدار ويملكها ويغنم ما فيها، وكان سعدي بن أبي الشوك قد ملكها وقد عمل لها سوراً وحصنها وجعلها معقلاً يتحصن به ويدخر بها كل ما يغنمه فأخذه البساسيري جميعه.

وفي سنة ٤٤٣ نرى البساسيري إلى جانب الملك البويهي الرحيم مع دبيس بن مريد وغيره يشرفون على ما تحقق من نصر للملك الرحيم في التمرد الذي قام به جمع كثير من العرب والأكراد في خوزستان.

وفي أحداث سنة ٤٤٤ نرى أن الملك الرحيم يسلم البصرة إلى البساسيري، وفي السنة نفسها يزوج نور الدولة دبيس بن مزيد ابنه بهاء الدولة منصوراً بابنة أبي البركات بن البساسيري.

وفي سنة ٤٤٥ يصل الخبر إلى بغداد بأن جمعاً من الأكراد وجمعاً من الأعراب قد أفسدوا في البلاد وقطعوا الطريق ونهبوا القرى، فيسير إليهم البساسيري ويتبعهم إلى البوازيج فيوقع بطوائف كثيرة منهم ويقتل فيهم ويغنم أموالهم وينهزم بعضهم فيعبرون الزاب عند البوازيج فلا يدركهم ولا يتمكن من العبور إليهم لزيادة الماء وبذلك نجوا وفي سنة ٤٤٦ يرد اسم البساسيري خلال ذكر فتنة في بغداد هكذا: «وركب جماعة من الأتراك إلى دار الروم فنهبوها وأحرقوا البيع والقلايات ونهبوا دار أبي الحسن بن عبيد وزير البساسيري».

إذن فقد صار للبساسيري وزير، ولكن ما هو المنصب الذي يشغله ليكون له وزير؟ إننا حتى الآن وفي جميع الأحداث التي تقدم ذكرها، لم نعثر فيما كتب عنه على اسم المنصب الذي يشغله أو المناصب التي تدرج فيها إلى أن بلغ المنصب الذي يصح أن يكون له فيه وزير.

على أنه في كل ما مر ذكره من تصرفاته يبدو مستقلاً في هذه التصرفات لا يتلقى أوامره من أحد، مع أنه مقيم في عاصمة الحكم بغداد، وفيها الخليفة العباسي والملك البويهي!.

ويبدو استقلاله الطاغي فيما حدث هذه السنة نفسها من هجوم بني خفاجة على الجامعين[1] وأعمال نور الدولة دبيس ونهبهم وفتكهم في تلك النواحي، فأرسل نور الدولة إلى البساسيري يستنجده فسار إليه منجداً وعبر الفرات فانهزم الخفاجيون وأوقع البساسيري بهم ونهب أموالهم وشردهم كل مشرد، وعاد إلى بغداد ومعه منهم خمسة وعشرون رجلاً فقتل جماعة وصلب جماعة.

وهذا كله يدل على تفرد في السلطة لا يرجع فيه لا إلى الخليفة ولا إلى الملك ولا إلى

(١) **الجامعين**: هكذا تلفظ بلفظ المثنى المجرور هي مدينة الحلة نفسها الواقعة بين بغداد والكوفة، وعرفت بحلة بني مزيد. وكان أول من عمرها ونزلها سيف الدولة صدقة بن منصور بن دبيس الأسدي، وكانت منازل آبائه الدور من النيل، فلما قوي أمره وكثرت أمواله انتقل إلى الجامعين موضع غربي الفرات وذلك في شهر المحرم سنة ٤٩٥ وكانت أجمة تأوي إليها السباع فنزل بها بأهله وعساكره وبنى بها المساكن والدور، وصارت أفخر بلاد العراق وأحسنها مدة حياة سيف الدولة.

الوزير. ولما حصر قريش بن بدران صاحب الموصل مدينة الأنبار وفتحها وخطب لطغرل بك فيها وفي سائر أعماله ونهب ما كان فيها للبساسيري وغيره، جمع البساسيري جموعاً كثيرة وقصد الأنبار وحربى فاستعادهما.

ليس في النصوص التي هي في أيدينا ما يدل على أن البساسيري كان يرجع إلى أحد في تنفيذ ما يريد تنفيذه، ولا أن أحداً ممن أنجدهم كان يطلب الاستنجاد من سلطة أعلى من البساسيري فتنتدب هي البساسيري لإنفاذ النجدة، فيما عدا ما رأيناه في أول عهده بالبروز من انتدابه لحماية الجانب الغربي ببغداد من تسلط العيارين عليه.

ولا أنه كان يستأذن أحداً في استعمال القوة في حماية ما يعتقد أنه من حقه. ثم رأينا أنه كان له وزير.

هذا يدل على انحلال سلطة الملك الرحيم المفروض فيه أنه هو صاحب السلطة الفعلية في الدولة، ويدل على عدم جدارته لتولي المنصب الذي وصل إليه، مما كان الأثر الأكبر في تسهيل سيطرة السلاجقة على الخلافة، ودخول طغرل بغداد دون أن يلقى مقاومة بويهية كان سبب فقدانها، فقدان الكفاءة القيادية عند الملك الرحيم.

السلطة المطلقة التي صارت للبساسيري كان من الطبيعي أن لا تكون موضع رضاً لا من الخليفة ولا من وزيره الملقب (رئيس الرؤساء) لا سيما من الأخير، فكانا يكبتان غضبهما لعجزهما عن الوقوف في وجه تنامي نفوذ البساسيري.

وكان اثنان مخاصمان للبساسيري يسميهما ابن الأثير: أبا الغنائم، وأبا سعيد ابني المحلبان صاحبي قريش بن بدران وصلا سراً إلى بغداد، ما ساء البساسيري وقال: هؤلاء وصاحبهم كبسوا حلل أصحابي ونهبوا وفتحوا البثوق وأسرفوا في إهلاك الناس، وأراد القبض عليهم فحيل بينه وبين ذلك.

ونسب إلى رئيس الرؤساء: واجتازت به سفينة لبعض أقارب رئيس الرؤساء فمنعها، وطالب بالضريبة التي عليها، وأسقط ما كان يدفع للخليفة شهرياً من دار الضرب، وكذلك ما كان يدفع لرئيس الرؤساء وبعض الحواشي، وأراد هدم دور بني المحلبان فمنع من ذلك. وقال: ما أشكو إلا من رئيس الرؤساء الذي خرب البلاد وأطمع السلاجقة وكاتبهم.

ثم مضى إلى الأنبار وأحرق ناحيتي (دُمّا) و(الفلوجة)، وكان أبو الغنائم بن المحلبان بالأنبار قد أتاها من بغداد. وجاء نور الدولة دبيس إلى البساسيري معاوناً له على حصر الأنبار.

ونصب البساسيري عليها المجانيق، ورماهم بالنفط، ودخلها قهراً، فأسر مئة نفس من بني خفاجة وأسر أبا الغنائم بن المحلبان بعد أن كان قد ألقى نفسه في الفرات فأخذ، ونهب الأنبار وأسر من أهلها خمس مئة رجل.

وعاد إلى بغداد، وأمامه أبو الغنائم على جمل، وعليه قميص أحمر، وعلى رأسه برنس، وفي رجليه قيد. وصلب جماعة من الأسرى.

وبالرغم من شدة هذا التحدي لرئيس الرؤساء وللخليفة نفسه، فقد قوبل بالصمت والهدوء، ما دل على عجزهما عن كبح البساسيري.

ولكن صدف بعد حين أن صديقاً نصرانياً للبساسيري كان ينقل في سفينة جرار خمر فاستُغل هذا الأمر وحُرضت العامة بزعم أن هذا الخمر مرسل إلى البساسيري فتجمهر خلق كثير.

ومما يدل على أن هناك تحريضاً من رئيس الرؤساء أنه كان بين المتجمهرين موظف كبير من موظفي الدولة يصفه ابن الأثير بأنه (حاجب باب المراتب)، وهجم الجميع على السفينة وكسروا جرار الخمر وأراقوها.

وبلغ ذلك البساسيري، وبلغه ما أشيع باطلاً بأن جرار الخمر مرسلة إليه فعظم الأمر عليه، ونسب ما جرى إلى رئيس الرؤساء.

فكان أن استصدر فتاوى من فقهاء الحنفية بأن الذي فُعل، من كسر الجرار، وإراقة الخمر تعد غير واجب، وهي ملك رجل نصراني لا يجوز.

وحرض رئيس الرؤساء الأتراك البغداديين على الطعن في البساسيري وذمه والتشنيع عليه، ونسب إليه كل ما ينالهم من أذى.

فلم يلبثوا أن جاءوا إلى الخليفة، يستأذنونه في التعدي على دور البساسيري، ونهبها فأذن لهم فساروا إليها ونهبوها وأحرقوها ونكلوا بنسائه وأهله ونوابه، ونهبوا دوابه وجميع ما يملكه في بغداد.

وراح رئيس الرؤساء يتناول في مجالسه البساسيري ذاماً له، ناسباً إليه التآمر مع الخلافة الفاطمية في مصر ومراسلة الخليفة المستنصر.

وفسدت الأمور بين الخليفة والبساسيري إلى الحد الذي لا يمكن معه إصلاحها. وأرسل إلى الملك الرحيم يأمره بإبعاد البساسيري فأبعده.

ويقرر ابن الأثير: أن هذه الحالة كانت من أعظم الأسباب في ملك السلطان طغرل بك العراق والقبض على الملك الرحيم[1].

ثم حدثت معركة سنجار، والاستيلاء على الموصل التي أشرنا إليها فيما تقدم، وبذلك جاهر البساسيري بالثورة ومارسها عملياً وأعلن الانتماء إلى الخلافة الفاطمية.

وفي سنة ٤٥٠ قام البساسيري بمحاولة ثانية للاستيلاء على الموصل، بالتعاون مع قريش بن بدران، فاستوليا على المدينة، ولم يستوليا على القلعة إلا بعد حصار أربعة أشهر.

وهنا كانت ثورة البساسيري قد أصبحت ثورة على الحكم السلجوقي الذي صار هو المسيطر على العراق، فلما بلغ طغرل بك ما جرى في الموصل سارع إليها فلم يجد أحداً لأن البساسيري وقريش كانا قد غادراها، فمضى وراءهما إلى نصيبين.

على أن طغرل بك واجه هنا انشقاقاً عائلياً هو انفصال أخيه إبراهيم ينال عنه وتوجهه إلى همذان.

وكان إبراهيم هذا قد انشق عن أخيه قبل اليوم، وكان أخوه طغرل يصفح عنه عندما يظفر به، ولكن بدا أن الانشقاق هذه المرة كان أبعد اتجاهاً، وأكثر خطراً من كل انشقاق سابق إذ قيل أنه كان نتيجة اتصال الفاطميين به، وتحالف بينه وبين البساسيري.

وسنعرض في مكان آخر لهذا الانشقاق في تفاصيل أوسع.

وكان البساسيري يواصل ثورته وتقدّم فاحتل بغداد ومعه قريش بن بدران، ويفهم من نص ابن الأثير: أن قوته لم تكن تتجاوز أربع مئة غلام على غاية الضر والفقر، وقوة قريش بن بدران تبلغ مئتي فارس. كذلك يفهم منه أنه كان يقابله العسكر والعوام، ومع ذلك فإنه بهذه القوة القليلة واجه العسكر والعوام.

والعوام الذين يذكرهم ابن الأثير هنا ربما كانوا بعض المرتزقة، أو بعض مع ينعقون مع كل ناعق. والدليل على ذلك أن ابن الأثير نفسه يقول بعد بضعة سطور من قوله هذا، وهو يذكر أن هناك من كان لا يرى الاصطدام عسكرياً بالبساسيري بسبب ميل العامة إلى البساسيري - يقول: أما الشيعة فللمذهب، وأما السنة فلما فعل بهم الأتراك (السلاجقة)[2].

هذا القول الذي سجله ابن الأثير في تاريخه يرينا حقيقة النقمة الشعبية على السلاجقة،

(١) ج٩، ص٦٠٨.

(٢) ج٩، ص٦٤١.

فهو قبل أن يقول هذا القول، يذكر أن البساسيري أعلن الانضمام إلى الخلافة الفاطمية، وخطب في جامع المنصور للخليفة الفاطمي المستنصر، وأمر بالأذان بحي على خير العمل.

والخلافة الفاطمية خلافة شيعية إسماعيلية تعتمد أحد المذاهب الشيعية، والمستنصر خليفة شيعي يمثل ذاك المذهب. والأذان بحي على خير العمل كان يعتبر تحدّياً للسنيين الذين لا يأخذون به، كما كان استبداله في أذان الصبح بالصلاة خير من النوم يعتبر تحدياً للشيعة.

وفي تلك العصور كانت إذا نشبت الحرب بين حكم شيعي وحكم سني، فإن انتصر الأول كان أول ما يفعله هو الأذان بحي على خير العلم وإلغاء: الصلاة خير من النوم في أذان الصبح، وإذا انتصر الثاني كان يفعل العكس.

فنور الدين محمود، مثلاً، عندما افتتح مدينة حلب ـ وكانت شيعية ـ كان أول أمر يصدره هو إبطال حي على خير العمل من الأذان، والإعلان بالصلاة خير من النوم في أذان الصبح، وهدّد كل من لا ينفذ هذا الأمر بالعقوبة الشديدة.

وأرسل مراقبين إلى مآذن المدينة كلها يرصدون له ما يجري، فجاء الجواب بأن أوامره نفذت في جميع المآذن ما عدا واحدة منها، رفض مؤذنها في أذان الصبح أن يؤذن بالصلاة خير من النوم. فأمر بأن يرمى من أعلى المأذنة إلى الأرض، ففعل به ذلك ومات تلك الميتة المروعة!..

وفي المقابل: عندما نجح إسماعيل الصفوي في إقامة الدولة الشيعية في إيران، كان إذا فتح مدينة، فأول شيء يفعله: الأمر بالأذان: حي على خير العمل، وإلغاء: الصلاة خير من النوم من أذان الصبح.

وكان في ذهنه ما فعله نور الدين محمود في حلب، فأرسل مراقبين إلى جميع المآذن، فجاءه الخبر بأن مؤذناً واحداً أذّن صباحاً بالصلاة خير من النوم، فأمر بإلقائه من أعلى المئذنة إلى الأرض!..

بهذه الفظائع الوحشية كان التعامل نصرة للمذاهب، وتأييداً ـ في زعمهم ـ للدين!!

أما السنيون في بغداد فلم يبالوا أن يؤذن في جامع المنصور بحي على خير العمل، وأن يُعلن انضمامهم إلى خلافة شيعية ما دام في ذلك تخلصهم من حكم السلاجقة.

إن في هذه الأحداث البغدادية من العبر ما علينا أن ننظر إليه بعمق وتفكر، وما يدل على أن العصبيات المذهبية التي طالما أدت إلى الفتن والتقاتل والتذابح ليست من أصالة

الشعوب، بل إن الذين يحركونها إما أن يكونوا عمي البصيرة أو من المستغلين المستفيدين.

فهذا الشعب البغدادي الذي طالما قرأنا في كتاب (الكامل) لابن الأثير نفسه ما كان يثور فيه من الفتن المذهبية، نراه هنا صفاً واحداً في مقاومة الظلم.

هذا الشعب وغيره من الشعوب ممن كانوا يهيجونه لمجرد كلمة تزاد في الأذان، أو تبدل بكلمة أخرى، أو لغير ذلك من الأسباب، ها هو عندما يواجه الحقائق، يرى أن لا ضير على هذا الفريق أن لا يرى الفريق الآخر عين ما يراه هو في الشؤون المذهبية.

ولكن فقهاء السوء وحكام الجور هم الذين يؤججون العصبيات المذهبية والنعرات الدينية.

الأولون ليستغلّوا براءة الشعب لمنافعهم، والآخرون ليشغلوه عن التصدي لجورهم والتمرد على ظلمهم.

فهذا البساسيري لما عدل بين الناس، ولم يتعصب لمذهب، كان السنيون والشيعة في مناصرته على السواء، ومضى السنيون على أصالتهم الفطرية يؤيدونه على الظالمين وإن كانوا من أتباع مذاهبهم، ولم ينظروا إليه على أنه على غير مذهبهم.

وبالرغم من الرأي القائل بتفادي الصدام العسكري بالبساسيري لأن جماهير الشعب سنية وشيعية تؤيده، وأن لا قوى سلجوقية في بغداد تقاتله لأن طغرل بك كان بجنوده في الري منشغلاً بتمرد أخيه إبراهيم ينّال عليه.

بالرغم من ذلك فإن رئيس الرؤساء استجاب للقائلين بالحرب، وكان بذلك يستجيب لأحقاده على البساسيري. فعندما جاءه القاضي الهمذاني واستأذنه في الحرب، وضمن له قتل البساسيري أذن له، فخرج ومعه الخدم وجماعات مختلفة، وأبعدوا والبساسيري يستجرهم، فلما أبعدوا حمل عليهم فانهزموا، وقتل منهم جماعة، ومات في الزحمة جماعة من الأعيان، ونهب باب الأزج، وكان رئيس الرؤساء واقفاً دون الباب فدخل الدار، وهرب كل من في الحريم[1].

وبعد هذا النصر رجع البساسيري إلى معسكره مترقباً ما يحدث، وإذا بالخليفة يأمر بدوام القتال على سور الحريم، ولكنهم فوجئوا بالزعيق ونهب الحريم، وهنا رأى الخليفة أن يلجأ إلى هيبة الخلافة ومظاهر قوتها، فركب جواده لابساً السواد شعار الخلافة، وعلى كتفه

(١) الكامل: ص٦٤٢.

البردة شاهراً سيفه، وعلى رأسه اللواء، وحوله زمرة من العباسيين والخدم بالسيوف المسلولة، فإذا به يعلم أن النهب قد وصل إلى أبواب داره، وأن كل هذه التهويلات لم تجد شيئاً، فتراجع إلى الوراء، ومضى نحو أحد كبار رجاله صاحب لقب (عميد العراق) فوجده قد استأمن إلى قريش، فعاد وصعد المنظرة يائساً.

وبرز هنا وزير الخليفة رئيس الرؤساء الذي كان بحقده وقصر نظره سبب هذه المحنة ـ برز محاولاً حماية الخليفة الذي ورطه بهذا كله ـ محاولاً ذلك باستنهاض مروءة قريش، فصاح: يا علم الدين، يعني قريشاً: أمير المؤمنين يستدنيك. فدنا منه قريش، فقال رئيس الرؤساء: قد أنالك الله منزلة لم يُنلها أمثالك. وأمير المؤمنين يستذم منك على نفسه وأهله وأصحابه بذمام الله تعالى وذمام رسوله ﷺ وذمام العربية.

ومعنى هذا: أن الخليفة يضع نفسه وأهله وأصحابه في حماية قريش، مستسلماً لقضاء الله!..

وكان قريش عند أمل الخليفة، فأجاب: قد أذم الله تعالى له، قال: ولي؟ ولمن معه؟ قال: نعم. وتوكيداً لذلك خلع قريش قلنسوته وأعطاها الخليفة، وأعطى مخصرته رئيس الرؤساء ذماماً.

فنزل إليه الخليفة ورئيس الرؤساء وصارا معه.

وبلغ البساسيري خبر ما جرى، فأرسل إلى قريش: أتخالف ما استقر بيننا، وتنقض ما تعاهدنا عليه؟!.

وكانا قد تعاهدا على المشاركة في الذي يحصل لهما وأن لا يستبد أحدهما دون الآخر بشيء.

وحلاً للإشكال، وحذراً من وقوع الخلاف بينهما: اتفقا على أن يسلم قريش رئيس الرؤساء إلى البساسيري لأنه عدوه وأن يحتفظ بالخليفة.

وهكذا انتهى الأمر به إلى أن يحفظ الذمام نصف حفظ فوفى للخليفة ولم يف لرئيس الرؤساء...

ومضي برئيس الرؤساء ـ يا لضخامة اللقب!! ـ مضي به إلى البساسيري، فلما وقعت عينه عليه قال له: مرحباً بمهلك الدول ومخرب البلاد..

فتذلل رئيس الرؤساء قائلاً: العفو عند المقدرة.

فقال البساسيري: لقد قدرت فما عفوتَ وأنت صاحب طيلسان، وركبت الأفعال الشنيعة مع حُرَمي وأطفالي، فكيف أعفو أنا، وأنا صاحب سيف.

يشير بذلك إلى أن رئيس الرؤساء لم يكن صاحب سلطة فعلية في ظل أصحاب السلطة الحقيقيين، ومع ذلك فقد فعل ما فعل.

وأما الخليفة، فإن قريشاً نقله راكباً إلى معسكره، محتفظاً له بكل مظاهر الكرامة: عليه السواد والبردة وبيده السيف وعلى رأسه اللواء. وأنزله في خيمة بالمعسكر، وأخذ زوجته (أرسلان خاتون) وهي ابنة أخي السلطان طغرل بك، فسلمها إلى أحد أخصائه ليقوم بخدمتها.

أما دار الخلافة فقد ظل النهب فيها أياماً.

وقد اختار قريش أحد بني عمه ممن فيهم مروءة ودين، فسلمه الخليفة ليوصله إلى مأمن خارج بغداد، فحمله في هودج وسار به إلى بلدة (حديثة عانة) وتركه بها.

جرى هذا كله والسلطان طغرل بك غائب بجنوده عن بغداد، فأسرع أصحاب الخليفة وخدمه إليه مستنفرين[1].

سيطر البساسيري على بغداد، وجاء عيد الأضحى، فسار إلى المصلى تخفق عليه الألوية الفاطميّة، معلناً بذلك التحاق بغداد بخلافة الفاطميين.

وأحسن السيرة في الناس، وبشهادة ابن الأثير: لم يتعصب لمذهب، وأجرى الجرايات على المتفقهة.

وكانت والدة الخليفة ـ وقد بلغت التسعين ـ لا تزال في بغداد، فأفرد لها داراً وأعطاها جاريتين من جواريها لخدمتها، وعين راتباً تعطاه لنفقاتها.

أما العدو اللدود رئيس الرؤساء، فقد كان رهين السجن فلما تفرغ له أخرجه من السجن مقيداً وعليه جبة صوف وطُرطور من لبد أحمر، وفي رقبته مخنقة جلود بعير، وهو يقرأ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ الآية.

ولما مروا به في الكرخ ـ وهو في حي الشيعة ـ وكان شديد العصبية عليهم مؤذياً لهم، بصقوا في وجهه.

---

(١) ابن الأثير: ج٩، ص٦٤١ ـ ٦٤٣.

وبعد هذا التشهير به على ظهر جمل في شوارع بغداد، أعيد إلى معسكر البساسيري، وقد نصبت له خشبة وأنزل عن الجمل وألبس جلد ثور، وجعلت قرونه على رأسه، وجعل في فكيه كلابان من حديد، وصلب. . [1].

ومد البساسيري سلطته إلى واسط والبصرة. وأرسل إلى المستنصر الفاطمي في القاهرة يعرفه ما فعل، على أمل أن يمده المستنصر بما يقوى به للسيطرة على العراق كله، والحؤول دون سيطرة السلاجقة.

وقد كان يمكن أن يتم ذلك فتسود الخلافة الفاطمية العراق ويتغير مجرى التاريخ. . ولكن الأقدار كانت بالمرصاد، فقد كان وزير المستنصر أبا الفرج ابن أخي أبي القاسم المغربي، وهو ممن هرب من البساسيري، وفي نفسه عليه ما فيها، فلم يشأ له أن يفوز بهذه الأمجاد، وفضّل أهدافه الشخصية على أهداف الدولة التي جعلته وزيرها، فوقع في البساسيري وخفف من شأنه وهوّن فعله وحذّر من عاقبته.

فأهمل الجواب على رسائله مدة، ولما أجيب كانت الأجوبة بغير ما أمّل ورجا، وهكذا تُرك يواجه مصيره بنفسه.

كان طغرل بك خلال هذه الأحداث يعالج تمرد أخيه إبراهيم ينّال، وأخيراً وقع الصدام بينهما بالقرب من الري، فانتهت المعركة بانهزام إبراهيم وأسره، وكان من قبل قد ثار على طغرل بك أكثر من مرة وظفر به وعفا عنه. أما هذه المرة فقد أمر بخنقه بوتر قوس. وكان ذلك في تاسع جمادى الآخرة سنة ٤٥١، وقال: إنَّ من عوامل قتله أن تمرده كان السبب في عدم استطاعته حماية الخليفة.

وبانتهاء طغرل بك من أمر إبراهيم تفرغ لأمر البساسيري، ويبدو أنه وازن بين قواه وقوى البساسيري فرأى أن يحل الأمر سلماً مع البساسيري، فأرسل إليه وإلى قريش أنه يكتفي بأن تكون الخطبة له في بغداد وأن تكون السكة باسمه وأن يعاد الخليفة إلى بغداد على أن لا يعود هو إلى العراق.

فرفض البساسيري هذه المقترحات، فعند ذلك تقدم طغرل بك بقواته إلى العراق، وبوصول طلائعه إلى قصر شيرين غير البعيدة عن حدود العراق، كان البساسيري يبعد حرمه وأولاده عن الخطر، ثم يتبعهم خارجاً من بغداد، بعد سيطرته عليها سنة، إذ كان دخوله بغداد في شهر ذي القعدة سنة ٤٥٠ وخروجه منها في ذي القعدة سنة ٤٥١.

---

(١) مهما كان ذنبه عند البساسيري فإن من الوحشية استعمال هذه الأساليب في الانتقام.

وبرحيل البساسيري دبت الفوضى في بغداد، وحرك المحركون النعرات المذهبية فثار أهل باب البصرة إلى الكرخ فنهبوه وأحرقوا درب الزعفران، وهو - على ما يقول ابن الأثير - من أحسن الدروب وأعمرها.

ووصل طغرل بك إلى بغداد، وكان قبل وصوله قد أرسل من الطريق إلى قريش بن بدران يشكره على ما فعله للخليفة ولابنة أخيه زوجة الخليفة.

وكان الخليفة قد اتجه - هو الآخر إلى بغداد - فأرسل طغرل بك وزيره الكندري، وبعض الأمراء، والحجاب ومعهم الخيام العظيمة والسرادقات والخيل فلاقوا الخليفة وخدموه.

وبوصول الخليفة إلى النهروان خرج طغرل بك لاستقباله، فقبل الأرض بين يديه وهنأه بالسلامة واعتذر عن تأخره بانشغاله بإخماد تمرد إبراهيم.

وسبق طغرل بك الخليفة في الوصول إلى بغداد، ثم وصل الخليفة بعده.

والذي يثير العجب هذا الانهيار السريع لموقف البساسيري، لا سيما أنه قد رفض مقترحات طغرل بك وكلها في مصلحته وتأمين سلطته، فعلى أي شيء كان يستند في هذا الرفض؟

هل كان لا يزال يأمل بتأييد القاهرة؟

الذي يلوح أنه كان في انسحابه من بغداد يريد التوجه إلى الشام، فطغرل بك يقول للخليفة في أول لقاء له معه في النهروان: أنا أمضي خلف هذا الكلب (يعني البساسيري) وأقصد إلى الشام، وافعل في حق صاحب مصر ما أجازي به فعله.

وبعد استقرار طغرل بك في بغداد أرسل أحد قواده في ألفي فارس نحو الكوفة لمطاردة البساسيري، وكان قد قال لطغرل بك: أرسل معي هذه العدة حتى أمضي إلى الكوفة وأمنع البساسيري من الإصعاد إلى الشام.

وهذا كله يدل على أنه كان في نية البساسيري التوجه نحو الشام، وإن هذه النية كانت معروفة عند طغرل بك ورجاله. وربما كان قصده من الوصول إلى الشام أن يكون أقرب إلى مصر حيث يسهل عليه الاتصال بمن فيها، وإقناعهم بتجهيز حملة يستطيع بها السيطرة على العراق.

ومهما يكن من أمر، فقد تقدم من أرسلهم طغرل بك لمطاردة البساسيري، وسار هو في أثرهم، ووقع الصدام فسقط البساسيري جريحاً، فأخذه عميد الملك الكندري وقتله، وحمل رأسه إلى طغرل بك، فأمر بنقله إلى دار الخلافة وطيف به وصلب.

ويقول الابن الأثير: وأُخذت أموال أهل بغداد وأموال البساسيري مع نسائه وأولاده، وهلك من الناس الخلق العظيم[1].

أوجز ابن الأثير الحال في بغداد أثر سيطرة طغرل بك عليها من جديد: أخذت أموال أهل بغداد، وهلك من الناس الخلق العظيم.

وكان قد قال قبل ذلك: ثار أهل باب البصرة إلى الكرخ فنهبوه وأحرقوا درب الزعفران.

كانت الخطة المرسومة هكذا: إن التآلف الذي بدا بين السنيين والشيعة يجب إبطاله، ويجب إعادة الفتن المذهبية من جديد، وتأريث الأحقاد بينهما، لذلك جرى تحريض أهل باب البصرة السنيين على نهب الكرخ الشيعي، وجرى إحراق درب الزعفران الذي كان من أحسن الدروب وأعمرها.

ونحن إذا كنا نعرف من مطالعاتنا لابن الأثير إن باب البصرة سني والكرخ شيعي، فإننا لا نعرف مذهب درب الزعفران. إننا نرجح أنه سني، وذلك استنتاجاً منا أن الذين أغروا السنيين بنهب الكرخ أغروا الشيعة بإحراق درب الزعفران. وبعد أن تم لهم تأجيج النفوس بالأحقاد المذهبية عطفوا على الفريقين معاً فأعملوا فيهما النهب والقتل: «أخذت أموال أهل بغداد وهلك من الناس الخلق العظيم» هكذا قال ابن الأثير، وحسبه هذا القول لنرى الصورة الرهيبة لبغداد يومذاك في ظل السلاجقة.

وبعد فراغ طغرل بك من أمر بغداد انحدر إلى واسط، وعبر إلى الجانب الشرقي من دجلة. يقول ابن الأثير: وسار إلى قرب البطائح فنهب العسكر ما بين واسط والبصرة والأهواز[2]..

طغرل بك يريد مصاهرة الخليفة

طمع السلطان طغرل بك بمصاهرة الخليفة القائم بأمر الله على ابنته، ففي سنة ٤٥٣ أرسل أبا سعيد قاضي الري خاطباً ابنة الخليفة فانزعج الخليفة من ذلك، وأرسل في الجواب أبا محمد التميمي وأمره أن يبلغ طغرل بك رفض طلبه، فإن أصر طغرل بك على الطلب فإن عليه أن يبعث ثلاث مئة ألف دينار ويسلّم واسطاً وأعمالها.

(١) ج٩، ص٦٤٩.

(٢) ج١٠ ص٨.

فاتصل التميمي أول ما اتصل بالوزير عميد الملك وأبلغه رسالة الخليفة، فرد الوزير: بأنه لا يصح أن يُرد السلطان ولا يستجاب طلبه بعد أن سأل وتضرع، ولا يجوز مقابلته بطلب الأموال والبلاد، فهو يفعل أضعاف ما طلب منه.

فقال التميمي: كما ترى، وما تقره يكون فيه الصواب، فاعتقد الوزير أن الموافقة قد حصلت. فأسرع وأخبر السلطان بذلك فسر كل السرور.

وقد كان مثل هذه الموافقة وقبول مصاهرة الخليفة لسلجوقي أمراً مستهجناً فمهما سما هؤلاء وأمثالهم فإنهم لا يعتبرون أكفاء لمصاهرة الأسرة العباسية لا سيما الخليفة، ويعتبر طلبهم إهانة...

لذلك أسرع السلطان وجمع الناس وعرّفهم أنه قد حصل على ما لم يسبق أن حصل عليه غيره من الملوك من مصاهرة الجهة النبوية. وطلب إلى الوزير عميد الملك أن يذهب ومعه أرسلان خاتون وأن يصحبها مئة ألف دينار وما شاكلها من الجواهر وغيرها، وأرفقه بعدد من وجوه الأمراء وأعيان الري.

ووصل الوزير إلى القائم بأمر الله وأوصل زوجة الخليفة إلى دارها، ثم ذكر للخليفة المهمة القادم بها وهي إتمام عقد الزواج. فاستنكر الخليفة ذلك وامتنع عن الإجابة إليها، وقال ما معناه: إنه يصر على الرفض فإن روعي رفضه وإلا فإنه يترك بغداد ويرحل إلى مكان آخر.

فقال عميد الملك ما مؤداه إن الامتناع لم يحصل من أول الأمر، وإذا حصل الآن فهو سعي على دمه، ثم ترك بغداد ونصب خيامه في النهروان.

وهكذا عاد التأزم من جديد بين السلطان والخليفة، فتوسط في الأمر قاضي القضاة وغيره وحذروا الخليفة مما يمكن أن يؤدي إليه رجوع الوزير عميد الملك إلى السلطان بهذه النتيجة.

فكتب الخليفة إلى عميد الملك: نحن نرد الأمر إلى رأيك ونعول على أمانتك ودينك. ويبدو أنه فهم من هذا الكلام موافقة الخليفة فجاء يوماً إلى الخليفة ومعه جماعة من الأمراء والحجاب والقضاة والشهود وقال للخليفة: اسأل مولانا أمير المؤمنين التطول بذكر ما شرّف به العبد المخلص شاهنشاه ركن الدين فيما رغب فيه ليعرفه الجماعة.

ولكن رد الخليفة كان حاسماً فقال: قد سُطّر في المعنى ما فيه الكفاية. فانصرف عميد

الملك مغضباً وترك بغداد. ولما بلغ السلطان ما جرى كتب إلى قاضي القضاة والشيخ أبي منصور بن يوسف قائلاً؛ هذا جزائي من الخليفة الذي قتلت أخي في خدمته وأنفقت أموالي في نصرته وأهلكت خواصي في محبته... وأطال العتاب ـ على حد تعبير ابن الأثير[1] ـ وكمقابلة بالمثل فقد طلب السلطان طغرل بك ابنة أخيه زوجة الخليفة أن تعاد إليه.

ولما بلغ الأمر إلى هذا الحد وخيف حصول مضاعفات تؤدي إلى التقاطع التام، ورأى الخليفة شدة الأمر، اضطر إلى الاستسلام للواقع وأذن في إجراء عقد الزواج، فجرى العقد في شعبان سنة ٤٥٠ بظاهر تبريز.

وقد كان فيما جرى وهن معنوي خطير للخلافة العباسية، إذ مهما علا شأن أمثال هؤلاء فإنه لا يمكن أن يكون أحد منهم كفؤاً للزواج من سليلات البيت العباسي الهاشمي.

ويقول ابن الأثير مشيراً إلى ذلك: «وهذا لم يُجر للخلفاء مثله فإن بني بويه مع تحكمهم ومخالفتهم لعقائد الخلفاء لم يطمعوا في مثل هذا ولا ساموهم فعله»[2].

وأرسل السلطان أموالاً كثيرة وجواهر نفيسة للخليفة ولولي العهد ولابنة الخليفة ولأمها ولآخرين. وكان لزوجة السلطان المتوفاة إقطاعات كثيرة في العراق منها (بعقوبا) وغيرها، فجعل ذلك كله لزوجته الجديدة ابنة الخليفة.

وفي شهر المحرم من سنة ٤٥٥ جاء السلطان إلى بغداد، وأتى الوزير عميد الملك يطالب الخليفة بانتقال زوجة السلطان إليه، فقوبل طلبه بالرفض وقيل له: إن المقصود بهذه الوصلة الشرف لا الاجتماع!. كما قيل له إن خطك موجود في الشرط.

وقد كان هذا الزواج من أعجب الزواجات في الدنيا!.. ويبدو جلياً أن ما ذكره الخليفة كان قد سجل في الورق ووقعه فيمن وقعه شاهد الوزير عميد الملك نفسه.

ثم قال الخليفة: إنه إن كانت مشاهدة فتكون في دار الخلافة.

ومعنى ذلك: أن أقصى ما يوافق عليه الخليفة هو أن يتقابل العروسان مجرد مقابلة وأن تكون هذه المقابلة في دار الخلافة.. فقال السلطان: نفعل هذا.

ولكن يفهم من النص الذي ذكره ابن الأثير[3] أن السلطان رأى أن تكون المقابلة في

---

(١) ج١٠ ص٢٢.
(٢) ابن الأثير، ج١٠، ص٢٢.
(٣) م. ن. ج١٠، ص٢٢.

مكان مخصص لها يليق بها، فأردف كلامه المتقدم بقوله: ولكن نفرد له من الدور والمساكن ما يكفيه، ومعه خواصه وحجابه ومماليكه فإنه لا يمكنه مفارقتهم.

وعلى ذلك نقلت العروس إلى دار المملكة.

ومضت مشاهد الرواية على هذا الشكل:

جلست العروس على سرير ملبّس بالذهب، ودخل السلطان إليها وقبّل الأرض وخدمها. ولم تكشف الخمار عن وجهها ولا قامت له.

وحمل معه لها شيئاً كثيراً من الجواهر وغيرها.

واستمر الحال على هذا المنوال: يحضر كل يوم يخدم وينصرف.

ومع ذلك فقد ظهر عليه سرور عظيم[1] وخلع على الوزير عميد الملك لأن كل الذي جرى إنما جرى على يديه وبتوسطه. وأقام الموائد عدة أيام...

يقول ابن الأثير: إن السلطان ترك بغداد في شهر ربيع الأول ذاهباً إلى الري. وإذا كان قد جرى ما ذكرناه في المحرم فمعنى ذلك أن الأمر استمر على الصورة التي ذكرناها شهرين!..

إذ لم يذكر ابن الأثير ما يدل على أن شيئاً قد تبدل خلال الشهرين.

لم يترك السلطان بغداد وحده، بل اصطحب معه ابنة أخيه أرسلان خاتون زوجة الخليفة لأنها شكت اطّراح الخليفة لها فأخذها معه.

الخليفة الذي رفض إلا أن يكون زواج ابنته من السلطان السلجوقي زواجاً شكلياً، كل ما ينال السلطان منه مقابلة زوجته من وراء خمارها المسدول على وجهها. وأن في هذا من الشرف للسلطان ما يغنيه عن كل شيء.

الخليفة الذي رفض إلا أن يكون الأمر كذلك، رأى في مقابل هذا أن يطّرح زوجته ابنة أخي السلطان، فلاذت بعمها فأخذها معه.

وقد كان لنا أن ننتظر اكتمال هذه الرواية العجيبة فصولاً، لولا أن الموت أنهاها بسرعة إذ مرض السلطان طغرل بك في سفره هذا ومات في رمضان من السنة نفسها...

ويذكر ابن الأثير أن عمره كان حين مات سبعين سنة تقريباً، وأنه كان عقيماً لم يلد ولداً.

---

(١) م.ن.

إذاً فقد خطب ابنة الخليفة وعقد عليها وهو في السبعين من عمره. فلا بدع أن يقنع من عروسه بالنظر إليها من خلف الخمار. . . وأن يكون هدفه من هذا الزواج امتهان شموخ بيت الخلافة، والإدلال على منافسيه، بأنه وصل إلى ما لم يصل إليه أحد.

وإذا كنا قد حرصنا على ذكر هذا العرس ـ العباسي السلجوقي ـ ببعض تفاصيله، فلأن فيه نماذج من علاقات السلاطين السلاجقة بالخلفاء العباسيين.

ونلاحظ هنا أن ما ربط سلطنة طغرل بك بخلافة القائم بأمر الله كان سبع سنين وأحد عشر شهراً واثني عشر يوماً.

يرثي ابن الأثير السلطان طغرل بك قائلاً: «كان عاقلاً حليماً من أشد الناس احتمالاً، وأكثرهم كتماناً لسره، وكان لباسه الثياب البيض، وكان ظلوماً غشوماً، قاسياً، وكان عسكره يغصبون الناس أموالهم، وأيديهم مطلقة في ذلك نهاراً وليلاً. وكان كريماً. . ».

وحين نعود إلى ما رثى به ابن الأثير الملوك البويهيين ـ وهو ما مرّ بعضه ـ ونقارنه برثائه لهذا الملك السلجوقي ندرك البون الشاسع بين الحكام البويهيين والحكام السلاجقة، فابن الأثير لم يقل عن أحد من البويهيين إنه كان ظلوماً، غشوماً، قاسياً، ولا قال: كان عسكره يغصبون الناس أموالهم وأيديهم مطلقة نهاراً وليلاً.

بل قال عن معز الدولة ـ وهو يتحدث عن انتصاره ـ: ونادى في الناس بالأمان وبث العدل وأقام لهم شحنة يمنع الظلم.

ويقول عنه: كان حليماً، كريماً، عاقلاً.

ويقول عن ركن الدولة: كان حليماً، كريماً، واسع الكرم، كثير البذل، حسن السياسة لرعاياه، وجنده، رؤوفاً بهم، عادلاً في الحكم بينهم، وكان متحرجاً من الظلم مانعاً لأصحابه منه عفيفاً عن الدماء، يتصدق بالأموال الجليلة على ذوي الحاجات.

إلى غير ذلك من الأقوال التي قالها عن غير هذين الحاكمين والتي مر ذكر بعضها.

بعد طغرل بك

أسرع الوزير عميد الملك الكُندري بعد موت طغرل بك إلى إعلان حلول سليمان بن داود جفري بك، أخي طغرل بك، مكان طغرل بك في السلطنة، لأن طغرل بك، الذي لم يكن له ولد، قد عهد له بالملك بعده.

على أن الأمر لم يمض بسلام فإن (باغي سيان) و(أردم) لم يقبلا بذلك وأسرعا إلى قزوين وخطبا فيها لألب أرسلان محمد بن داود جفري بك.

وكان هذا يتولى في عهد طغرل بك خراسان ومعه وزيره نظام الملك، ويبدو أن ميل الناس كان إليه، فاستسلم عميد الملك الكندري لهذا الواقع فأمر بالخطبة في الري للسلطان ألب أرسلان، وبعده لأخيه سليمان.

على أن ذلك لم يُنجه من انتقام ألب أرسلان، فإن عميد الملك زار نظام الملك وزير ألب أرسلان ودفع له مالاً، واعتذر وغادر منصرفاً، فانصرف بانصرافه أكثر الناس، فراب ذلك ألب أرسلان مع ما كان من إعلان عميد الملك تسلطن سليمان فأمر بالقبض عليه واعتقله في مرو الروذ سنة، ثم أرسل إليه من قتله.

ويبدو أنه كان يتهم نظام الملك بالسعي به عند ألب أرسلان، إذ أنه لما قُرِّب للقتل قال للجلاد: قل لنظام الملك: بئس ما عودت الأتراك قتل الوزراء وأصحاب الديوان، ومن حفر قليباً (بئراً) وقع فيه.

والوزير عميد الملك هذا كان على طريقة سادته السلاجقة من التعصب المذهبي الذميم.

وهو لم يكتف بالتعصب على الشيعة الذين سماهم الروافض، بأن طلب من السلطان أن يُلعنوا على منابر خراسان فلبي طلبه، بل كان كذلك شديد التعصب على الشافعية وإمامهم الشافعي.

قوبل عهد ألب أرسلان بثورات عليه استطاع إخمادها واحدة بعد الأخرى، فكان أول الثائرين عليه أمير ختلان، ثم أمير الصاغانيان.

وكان عمه (بيغو بن ميكائيل) في هرات فثار طالباً الأمر لنفسه.

أما الثائران الأولان فقد قتل الأول منهما في المعركة، وأما الثاني فقد أسر وقتل. وأما عمه فقد استسلم بعد الحصار والتضييق فأبقى عليه وأكرمه وأحسن صحبته.

وكان مما فعله أن أعاد ابنة الخليفة التي عقد زواجها طغرل بك ـ أعادها إلى بغداد، وقال إنه إنما قتل عميد الملك لأنه نقلها من بغداد إلى الري بغير رضاء الخليفة.

كما أرسل إلى الخليفة طالباً إقامة الخطبة له في بغداد، فجلس الخليفة جلوساً عاماً وأعلن أمام رسل ألب أرسلان تقليد ألب أرسلان للسلطنة، وسُلّمت الخلع بمشهد من الناس. كما أن الخليفة أرسل إليه بطلب البيعة.

وعادت رسل ألب أرسلان إليه يصحبها رسول الخليفة، وهو في أذربايجان، فلبس الخلع وبايع للخليفة.

ثم قامت عليه ثورة سلجوقية أخرى قادها قُتلمش[1] وقد بلغ ألب أرسلان خبر الثورة وهو في نيسابور، وأن قتلمش قصد الري ليستولي عليها، فسار إليه ألب أرسلان والتقيا في معركة هزمت فيها جموع قتلمش، ووجد قتلمش ميتاً على الأرض لا يُدرى كيف كان موته، قيل إنه مات من الخوف!...

عودة إلى التدمري

ونقول هنا رداً على قول الدكتور عمر تدمري المتقدم: «وكان الخلاف المذهبي بين العبيديين (الفاطميين) الإسماعيليين الشيعة في مصر، والسلاجقة الأتراك والعباسيين السنة في العراق هو أشبه بالخلاف المذهبي بين الكنيستين اليونانية البيزنطية (الشرقية)، واللاتينية الرومانية (الغربية)، بل هو خلاف أشد وأدهى لطالما أدى إلى القتال إذ كانت بلاد الشام مسرحاً للصراع العسكري والسياسي والمذهبي بين السلاجقة والفاطميين، مما جعلها منهوكة القوى عندما راحت جيوش الصليبيين تجوس خلال ديارهم».

نقول رداً على ذلك: إن هذا الكلام هراء في هراء، فعندما كان الفاطميون الشيعة الإسماعيليون يسيطرون على مصر، كان البويهيون الشيعة يسيطرون على العراق، ولم يكن هناك سلاجقة. وعندما زال حكم البويهيين عن العراق، وسيطر عليه السلاجقة كان حكم الفاطميين قد تضعضع في مصر، أواخر عهد المستنصر، ثم تلاشى هذا الحكم نهائياً في حياة المستنصر، باستيلاء الجماليين على الخلافة الفاطمية وإنشائهم الدولة الجمالية وحجرهم على الخلفاء الفاطميين، ومنعهم من التصرف في شؤون الحكم، وتحكمهم في تعيين الخلفاء وأولياء عهودهم الذين أصبحوا أسرى في أيديهم.

وفي هذا الوقت ـ وقت احتلال السلاجقة للعراق ـ كان السلاجقة هم الذين أثاروا الخلاف لا بينهم.وبين الفاطميين؛ لأنه لم يكن هناك فاطميون، بل بينهم وبين شيعة العراق بأن تدخلوا في شؤونهم المذهبية، ثم أحرقوا مكتبتهم الكبرى في بغداد، وهاجموا بيت عالمهم الكبير أبي جعفر الطوسي، وأحرقوا كرسيه الذي كان يجلس عليه للتدريس، مما اضطره للهجرة من بغداد وإغلاق مدرسته فيها... إلى غير ذلك.

على أن طغرل بك بعد أن فعل ما فعل في العراق، كان هو البادىء بالتحرش بالخليفة الفاطمي المستنصر في مصر.

---

(١) هو ابن عمر طغرل بك جد الملوك السلاجقة أولاد قلج أرسلان أصحاب قونية وقيصرية وأقصرا وملطية.

فإنه وهو في عنفوان طغيانه في بغداد، كاتب المستنصر طالباً إليه الدخول في طاعته[1].

إن الدكتور عمر تمدري من أجل أن يسيء إلى الفاطميين ظلماً وعدواناً حشرهم مع السلاجقة عملاً بقول من قال: اقتلوني ومالكاً.

ورأى أنه لا بأس بأن يذكر السلاجقة بالشر ما دام هذا الذكر يوصل إلى ذكر الفاطميين بالشر.

قلنا إن طغرل بك هو الذي بدأ بالتحرش بالفاطميين الذين كانوا في أيامهم الأخيرة، بأن كاتب المستنصر في القاهرة طالباً إليه الدخول في طاعته.

إن الدور الفاطمي كان قد انتهى قبل الزحف الصليبي بما يقارب ربع القرن، وإنه لم تكن هناك خلافة فاطمية حاكمة عند ابتداء الغزو الصليبي، وإن سلطة هذه الخلافة كانت قد انتهت بفعل التسلط الجمالي، وقيام الدولة الجمالية، وأصبح الخلفاء سجناء قصورهم، لا يملكون من الأمر شيئاً، كما سنفصله في الآتي من القول.

ونحن نريد هنا أن نكرر حقيقة أخرى، وهي أنه لم يقم صراع بين الفاطميين والسلاجقة، لسبب واحد؛ لأنه لم يكن هناك حكم فاطمي يصارع السلاجقة ويزاحمهم على امتلاك البلاد لأن الحكم الفاطمي عند بدء الهجمات السلجوقية على بلاد الشام، كان قد بدأ بالانهيار، ثم انهار فعلاً بالتسلط الجمالي.

وإنّ الموقف الفاطمي الوحيد في مواجهة السلاجقة كان في أواخر عهد المستنصر، عندما بدا تضعضع حكم المستنصر واضحاً في سنة ٤٤٦هـ بسيطرة المجاعة على البلاد ومحاولة المستنصر استيراد القمح من بلاد البيزنطيين، واشتراط الأمبراطورة البيزنطية (تيودورا) عليه أن يمدها بالجنود إذا ما اعتدى على بلادها أي معتد، وكان المفهوم أن هذا المعتدي المفترض وجوده هو السلاجقة، فبالرغم من حراجة موقف المستنصر في بلاده وما تهدد به المجاعة فقد رفض هذا الشرط لأنه يأبى أن يعين البيزنطيين على المسلمين..

ولما اشتد الأمر عليه حاول أن يحقق طلبه القمح بقوة السلاح ففشل.

والسلاجقة الذين رفض الخليفة الفاطمي المستنصر أن يعد الأمبراطورة البيزنطية بمعاونتها عليهم، لم يأبوا أن يتحالفوا مع الأمبراطورة عليه وأن يستغلوا الموقف فيتقربوا منها!.. وإليك التفاصيل:

(١) ابن الأثير، ج٩، ص٦١٣.

بعد صراع طويل بين الفاطميين والبيزنطيين عقدت هدنة بين المستنصر والأمبراطور ميخائيل الرابع سنة ٤٢٩هـ (١٠٢٧م) فسمح المستنصر للأمبراطور بإتمام إصلاح كنيسة القيامة على أن يطلق سراح خمسة آلاف أسير مسلم، فأخلى الأمبراطور سبيل الأسرى وأرسل المعماريين إلى بيت المقدس وأنفق كثيراً من الأموال على تجديد الكنيسة.

ولما ولي قسطنطين التاسع الحكم حافظ على استمرار العلاقات الودية مع المستنصر وبعث إليه سنة ٤٣٧هـ هدية عظيمة «اشتملت على ثلاثين قنطاراً من الذهب الأحمر، قيمة كل قنطار منها عشرة آلاف دينار عربية».

استغل المستنصر فرصة صفاء العلاقات بينه وبين الدولة البيزنطية للعمل على إنعاش الحالة الاقتصادية في دولته، فأرسل إلى الأمبراطور قسطنطين التاسع على أثر المجاعة التي حلت بمصر سنة ٤٤٦هـ يطلب منه أن يمده بأربع مئة ألف أردب من القمح فأبدى الأمبراطور استعداده لمعونة مصر.

ولكنه لم يلبث أن توفي وخلفته الأمبراطورة (تيودورا) فاشترطت لتقديم هذه المساعدة أن يمدها المستنصر بالجنود إذا ما اعتدى على بلادها معتد. وكان المقصود بهذا المعتدي (السلاجقة). فرفض المستنصر الموافقة على هذا الشرط. فأجابت تيودورا على ذلك بأن حالت دون إرسال القمح إلى مصر.

أثارت سياسة هذه الأمبراطورة، غضب الخليفة المستنصر وعول على محاربتها، فجهز جيشاً بقيادة مكين الدولة الحسن بن ملهم، وما لبث هذا القائد، أن نزل بالقرب من أفامية، ثم تجول في أعمال أنطاكية. فأرسلت الأمبراطورة حملة بحرية أوقعت به الهزيمة، وأسر هو وكثير من جنده سنة ٤٤٧هـ، وكان ذلك مما حمل المستنصر على أن يعهد للقاضي عبد الله القضاعي بالذهاب إلى القسطنطينية لتسوية الخلاف بين الدولتين، فلم تحفل الأمبراطورة بوجوده.

فاستغل طغرل بك ذلك وعمل على التقرب من البيزنطيين والتحالف معهم، فأرسل من العراق رسولاً إلى القسطنطينية حاملاً رسالة ودية منه إلى الأمبراطورة تيودورا، ملتمساً فيها أن يصلي رسوله في جامع القسطنطينية، فأذنت له بذلك، فدخله وصلى فيه صلاة الجمعة وأقام الخطبة للخليفة القائم بأمر الله العباسي[(١)].

(١) المقريزي، ج١، ص٣٣٥.

ولما وقف المستنصر على سياسة الأمبراطورة تيودورا العدائية إزاءه والإساءة التي لحقت بسفيره بعث يطلب كنوز كنيسة القيامة ونفائسها فأرسلت إليه.

وازداد بذلك التوتر في العلاقات بين الفاطميين والبيزنطيين. واستمر العداء مستمراً بين الدولتين حتى حل الجماليون محل الفاطميين في حكم مصر فظل على استمراره إلى أن وجه الصليبيون حملاتهم إلى بلاد الشام.

هنا يكمن الفارق بين الفاطميين والسلاجقة: يرفض الخليفة الفاطمي الوعد ـ مجرد الوعد ـ بإنجاد البيزنطيين على السلاجقة الذين جاهره ملكهم طغرل بك بالعداء، بإرساله إليه رسالته من بغداد طالباً إليه الدخول في طاعته ـ كما تقدم ذكره ـ.

يرفض المستنصر ذلك مع ما فيه بلاده من خطر المجاعة ويضطر للدخول في حرب مع البيزنطيين، فيسارع ملك السلاجقة طغرل بك عارضاً خدماته على البيزنطيين، فيتناصر السلاجقة والبيزنطيون على الفاطميين...

ومن هذه الحقائق يتبين أن كل ما ذكره التدمري عن الخلاف المذهبي بين الفاطميين الإسماعيليين الشيعة في مصر، والسلاجقة الأتراك والعباسيين السنة في العراق، وتشبيهه له بالخلاف بين الكنائس، وقوله إنه أدى إلى القتال وإن بلاد الشام كانت بذلك مسرحاً للصراع العسكري والسياسي والمذهبي بين السلاجقة والفاطميين، مما جعلها منهوكة القوى عندما راحت جيوش الصليبيين تجوس خلال ديارهم.. إلى غير ذلك من أمثال هذه الأقوال ـ يتبيّن من الحقائق التي ذكرناها أن كل ما ذكره التدمري إنما هو تهويش في تهويش وأباطيل في أباطيل!.

فالصراع كان قائماً بين الفاطميين والبيزنطيين، تعاون فيه السلاجقة مع البيزنطيين.

وفي خلال ذلك انتهى أمر المستنصر، وسيطر بدر الجمالي على مصر، وأنهى الحكم الفاطمي، وحل محله الحكم الجمالي، وأصبح الصراع سلجوقياً جمالياً.

وكان البادئون بالصراع هم السلاجقة، مستغلين تعاطف البيزنطيين معهم، وتأييدهم لهم، ففي سنة ٤٦٣ قصد (أتسز بن أوق) الخوارزمي وهو من أمراء ملك شاه السلجوقي ـ قصد الشام فجمع الأتراك وسار إلى فلسطين ففتح الرملة، وسار منها إلى القدس، وحاصرها، وكان ذلك في أواخر عهد المستنصر، وبدء انهيار الدولة الفاطمية فاستطاع الاستيلاء على القدس وما جاورها عدا عسقلان[1].

(١) ابن الأثير، ج١٠، ص٦٨.

كان هذا فاتحة الصدام الذي بدأه السلاجقة منصرفين عن قتال البيزنطيين إلى قتال المسلمين، ومن التزاحم مع الروم على امتلاك البلاد، إلى التزاحم مع العرب شاهرين السيوف عليهم مقتحمين ديارهم، مقاتلين جنودهم!..

وبعد ثلاث سنوات من هذه الوقائع، أي في سنة ٤٦٦ كانت السيطرة الجمالية قد تمت على الخلافة الفاطمية، وكان بدر الجمالي قد أحكم قبضته على مصر، وأقصي المستنصر محجوراً عليه. وهنا أصبحت المواجهة سلجوقية جمالية بحتة بعد أن كانت في بدئها مواجهة سلجوقية بدأها السلاجقة مع بقايا فاطمية ماشية إلى التلاشي، ولذلك رأيناها لا تلبث أن تنحطم أمام أول هجمة سلجوقية فتفقد القدس وجل فلسطين.

وهنا لم يكن للصليبيين وجود، ليقال إن الفاطميين استغلوا وجودهم للاستعانة بهم على السلاجقة، بل كان الوجود للبيزنطيين الذين استعان السلاجقة بهم على الفاطميين.

وظل جهد السلاجقة متجهاً لقتال المسلمين والعرب، منصرفين عن البيزنطيين؛ حتى كانت السنة ٤٦٩، أي بعد ثلاث سنوات من سيطرة بدر الجمالي على مصر.

ففي هذه السنة صمم السلاجقة على غزو مصر نفسها فاتجه إليها قائدهم (أتسز) فتصدى له صاحب أمر مصر بدر الجمالي فهزمه ورده عن مصر[1].

فما دخل الفاطميين هنا وبعد هنا.. إلى وصول الصليبيين ليحشر اسمهم في الصراع السلجوقي الجمالي، ثم ليفترى عليهم عند وصول الصليبيين إلى حدود بلاد الشام؟!

إذا كان من مأخذ وإذا كان من تهم، فيجب أن يوجه ذلك إلى المتصارعين، لا إلى المقصيين، المحجور عليهم المغلولة أيديهم عن كل تصرف...

ويمضي الصراع السلجوقي ـ الجمالي في حدته ففي سنة ٤٧٠ كان قائد جيش بدر الجمالي يحاصر دمشق فاستنجد (أتسز) ممثل الحكم السلجوقي فيها بالملك السلجوقي تُتش بن ألب أرسلان، فأقبل تتش لنجدته في جمع كثير من التركمان، ولم يلبث عند وصوله إلى أسوار دمشق أن قتل أتسز ودخل دمشق ورد جيش بدر الجمالي عنها[2].

وابن الأثير يُسَمّي في كل هذه الوقائع الجيش المصري بجيش بدر الجمالي كما هو واقع الحال.

(١) م. ن. ج١٠، ص١٠٣.

(٢) ابن الأثير، ج١٠، ص١١١.

وفي سنة ٤٧٨ وصل بدر الجمالي في عساكر مصر إلى الشام؛ فحصر دمشق وفيها صاحبها السلجوقي (تتش) فضيق عليه وقاتله فلم يظفر منها بشيء فرحل عنها عائداً إلى مصر[١] وفي سنة ٤٨٥ هاجم تتش حمص وعرقة وأفاميه فملكها، وهاجم طرابلس وفيها جلال الملك بن عمار فلم يظفر بها.

وهكذا يستمر الجهد السلجوقي متجهاً إلى قتال المسلمين والعرب، ويظل الصراع سلجوقياً ـ جمالياً، فيما عدا فجوة صغيرة فيه ـ لم يطل أمرها ـ انحرف فيها فكان سلجوقياً ـ عمارياً في طرابلس.

كل ذلك يجري والفاطميون غائبون أو مغيبون مضيق عليهم، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، ومع ذلك فإن مزيفي التاريخ يجعلون الصراع سلجوقياً ـ فاطمياً ليجدوا منفذاً يلجونه للافتراء على الفاطميين..

وفي سنة ٤٨٩ كان بدر الجمالي يسير إلى القدس فيستخلصها من أيدي السلاجقة.. والفاطميون في معتقلاتهم يكابدون فقدان حريتهم، وكف أيديهم، وزوال سلطانهم..

كيف سيطر الجماليون؟

نريد أن نزيد الأمر إيضاحاً، لنري القارىء أن الشام لم تكن أبداً مسرحاً للصراع العسكري والسياسي والمذهبي بين السلاجقة والفاطميين مما جعلها ـ على زعم التدمري ـ منهوكة القوى عندما راحت جيوش الصليبيين تجوس خلال ديارهم، وأن كل ما ذكره التدمري في هذا الموضوع هو تزييف للتاريخ، وتحريف للحقائق.

طالت خلافة المستنصر الفاطمي ستين سنة وأربعة أشهر، تحقق له في القسم الأول منها ما لم يتحقق لأحد من أسلافه، إذ خُطب باسمه في بغداد بعد أن طُرد منها الخليفة العباسي ـ القائم بأمر الله ـ واستمر ذلك سنة في تفاصيل مرّ ذكرها..

كما أنه في أواخر عهده عند استبداد الناصر الحمداني به أقيمت الخطبة باسم القائم العباسي في القاهرة، وفي القسم الثاني من عهده بدأ التضعضع بسيطرة بدر الجمالي، أو بما يمكن أن نسمّيه انتهاء العهد الفاطمي وحلول العهد الجمالي محله حكماً وسيطرة.

فقد قامت فعلاً الدولة الجمالية، بكل ما للدول في تلك العصور من واقعية الحكم

---

(١) م.ن. ص١٤٥.

ومظاهره، وصار الخليفة الفاطمي سجين قصره محجوراً عليه بما نستطيع أن نطلق عليه بلغة العصر الحاضر اسم: الإقامة الجبرية[١] ولم يكن في مصلحة الدولة الجديدة قتله أو طرده، بل كان من مصلحتها الاحتفاظ به أسيراً في يديها لاستغلال اسمه بما يمكن أن يستغل به.

يقول المقريزي عن بدر الجمالي: «تحكم في مصر تحكم الملوك، ولم يبق للمستنصر معه أمر، واستبد بالأمور وكانت مدة أيامه بمصر إحدى وعشرين سنة، وهو أول وزراء السيوف الذين حجروا على الخلفاء بمصر».

ويقول المقريزي: «واستناب ولده (الأفضل) وجعله ولي عهده».

وبتسميته ابنه (ولياً للعهد) يكون قد أكمل إعلان قيام الحكم الملكي الجديد على أنقاض الحكم الفاطمي المنهار. وتكون دولة جديدة قامت في مصر هي (الدولة الجمالية)، وهي وحدها المسؤولة عما جرى في عهدها من أحداث ومنها الصدام مع السلاجقة، ثم مع الصليبيين.

وإذا كان بدر وابنه لم يعلنا إلغاء الخلافة نظرياً في حين أنهما ألغياها عملياً، فلأنهما لا يستطيعان ادعاء الخلافة لنفسيهما، فكانا يريدان غطاء شرعياً لحكمهما يبرران به تسلطهما، وكان وجود الخليفة الشكلي هو الغطاء المطلوب.

ولما مات المستنصر كان الأفضل بن بدر الجمالي هو الذي اختار خليفته. يقول المقريزي[٢]:

«لما مات المستنصر بادر الأفضل بن بدر الجمالي إلى القصر وأجلس أبا القاسم أحمد بن المستنصر في منصب الخلافة ولقبه بالمستعلي بالله».

وهو أصغر إخوته: نزار، وعبد الله، وإسماعيل.

ثم يقول المقريزي[٣]: «ولم يكن للمستعلي مع الأفضل أمر ولا نهي ولا نفوذ كلمة».

وكما قلت من قبل، فإن الدكتور تدمري يتبع مبدأ: اقتلوني ومالكاً، فهو من أجل أن يفتري على التاريخ الفاطمي لا يبالي أن يقرنه بالتاريخ السلجوقي فيقول:

«إن السلاجقة والفاطميين على حد سواء قد رأوا في مجيء الصليبيين إلى الشام ما

(١) يقول المقريزي (ج١ ص٢٠٧): قدم بدر الجمالي إلى القاهرة فصار أمر الدولة كله راجعاً إليه.
(٢) ج١، ص٤٢٣.
(٣) ج١، ص٣٥٧.

يحقق أهداف كل منهم في القضاء على خصمه، أو الحد من خطره ونفوذه، وهكذا تيسر للصليبيين دخول الديار الشامية، واحتلال القسم الساحلي بكامله، والاستيلاء على بيت المقدس».

ونقول: لقد انتهت سلطة الفاطميين قبل وصول الصليبيين إلى أطراف العالم الإسلامي ـ لا سيما بلاد الشام ـ بربع قرن.

فإن بدراً الجمالي أنهى سلطة الخليفة الفاطمي المستنصر وسيطر على الدولة سنة ٤٦٦هـ، وكان ابتداء وصول الصليبيين سنة ٤٩٠هـ وسقطت أنطاكية في أيديهم سنة ٤٩١هـ.

إذن فلم يكن هناك فاطميون يرون في مجيء الصليبيين إلى الشام ما يحقق أهدافهم في القضاء على خصمهم أو الحد من خطره ونفوذه. بل كان هناك جماليون أنهوا حكم الفاطميين وحلوا محلهم، فإن كان من مسؤولية فهي تقع على هؤلاء الجماليين. .

ولكن هل صحيح أن الجماليين مسؤولون عن تيسير دخول الصليبيين الديار الشامية واحتلال القسم الساحلي بكامله والاستيلاء على بيت المقدس؟!.

ذلك ما سنتحدث عنه في الآتي من القول.

ويوغل الدكتور عمر تدمري في الهوس فيقول: انساحت الجيوش الصليبية ووطئت أرض الشام، وكونت بحيرات صليبية لاتينية في أنحائها على مسمع ومرأى من السلاجقة والفاطميين، وكان على الإمارات العربية المحايدة بين السلاجقة والفاطميين أن لا تنتظر المساعدة أو النجدة منهم، إذ كان النزاع مستمراً بين الدولتين سياسياً ومذهبياً، وكان الوقت ذهبياً بالنسبة للصليبيين، وهم يشهدون الحالة التي عليها المسلمون من التفكك والتنازع والضعف، فاستطاعوا في حملة واحدة أن يستولوا على القدس، ولو أن القوى الإسلامية في المنطقة طرحت خلافاتها جانباً، ووحدت صفوفها أمام العدوان الصليبي لما تعرض الساحل الشامي للذي لحقه، أو على الأقل لما لبث الصليبيون في المشرق العربي الإسلامي نحو القرنين من الزمان، وبقدر ما يتحمل الفاطميون من تبعة لموقفهم المتخاذل، فإن السلاجقة يتحملون أيضاً مثل ذلك. (انتهى).

يبدو الدكتور عمر تدمري جاهلاً لوقائع تاريخ تلك الحقبة أو متجاهلاً لها لأن ما ذكره يتنافى كل التنافي مع الحقيقة. إن الحقيقة في ذلك هي ما بيناه وما نبينه فيما يلي:

أولاً: كان الحكم الفاطمي قد انتهى قبل ربع قرن من وصول الصليبيين إلى أطراف العالم الإسلامي؛ ثم إلى بلاد الشام ـ كما بينا من قبل ـ.

يقول المقريزي في خططه[1]: «لم يكن للمستعلي مع الأفضل أمر ولا نهي ولا نفوذ كلمة».

في عهد المستعلي الفاطمي هذا الذي لم يكن له مع الأفضل أمر ولا نهي ولا نفوذ كلمة تقدم الصليبيون إلى بلاد الشام واحتلوا القدس.

وكان صاحب الأمر والنهي ونفوذ الكلمة هو الأفضل بن بدر الجمالي، فلماذا تنسب أحداث تلك الفترة إلى الفاطميين وخلافتهم؟.

إنها يجب أن تنسب إلى أصحاب الأمر والنهي ونفوذ الكلمة، وهم غير الفاطميين.

أما قول التدمري: «انساحت الجيوش الصليبية ووطئت أرض الشام... إلى آخر كلامه.. فإننا نقول له: إن الجيوش الصليبية انساحت ووطئت أرض الشام واحتلت القدس على مرأى ومسمع وخيانة من السلاجقة وأمثالهم من غير الفاطميين. وإليك التفاصيل:

يحدثنا ابن الأثير في تاريخه[2] عن زحف كربوقا السلجوقي أمير الموصل لإنقاذ أنطاكية كما يلي:

«جمع العساكر وسار إلى الشام وأقام بمرج دابق واجتمعت معه عساكر الشام، تُرْكُها وعربها سوى من كان بحلب. فاجتمع معه دُقاق بن تتش، وطغتكين أتابك، وجناح الدولة صاحب حمص، وأرسلان تاش صاحب سنجار، وسليمان بن أرتق وغيرهم من الأمراء ممن ليس مثلهم. فلما سمعت الفرنج عظمت المصيبة عليهم وخافوا لما هم فيه من الوهن وقلة الأقوات عندهم. وسار المسلمون فنازلوا أنطاكية، وأساء كربوقا السيرة فيمن معه من المسلمين وأغضب الأمراء وتكبر عليهم ظناً منه أنهم يقيمون معه على هذه الحال، فأغضبهم ذلك وأضمروا له في أنفسهم الغدر إذا كان قتال، وعزموا على إسلامه عند المصدوقة.

وأقام الفرنج بأنطاكية بعد أن ملكوها اثني عشر يوماً ليس ما يأكلونه. وتقوّت الأقوياء بدوابهم، والضعفاء بالميتة وورق الشجر. فلما رأوا ذلك أرسلوا إلى كربوقا يطلبون منه الأمان ليخرجوا من البلد[3] فلم يعطهم ما طلبوا، وقال: لا تخرجون إلا بالسيف. وكان معهم من

(١) ج١، ص٣٥٧.

(٢) ج١٠، ص٢٧٦ ط١٩٦٦م.

(٣) المقصود بطلب الأمان أن يلقوا سلاحهم ويستسلموا خارجين بدون سلاح على أن يكونوا آمنين على أرواحهم فلا يقتل منهم أحد، ولا يكونوا أسرى، بل ينطلقوا راجعين إلى بلادهم، وقد كانت القيادة الصليبية كلها في أنطاكية، وهي بجميع رجالها كما يعددهم ابن الأثير، طلبت =

الملوك: بردويل، وصنجيل، وكندفري والقُمّص صاحب الرها وبَيْمُنت صاحب أنطاكية، وهو المقدم عليهم. . .».

إلى أن يقول ابن الأثير: «فخرجوا (الإفرنج) متفرقين من خمسة وستة، ونحو ذلك. فقال المسلمون لكربوقا: ينبغي أن نقف على الباب فنقتل كل من يخرج، فإن أمرهم الآن وهم متفرقون سهل، فقال: لا تفعلوا! أمهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم، ولم يمكّن من معاجلتهم، فقتل قوم من المسلمين جماعة من الخارجين، فجاء إليهم هو بنفسه، ومنعهم ونهاهم.

فلما تكامل خروج الفرنج، ولم يبق بأنطاكية أحد منهم، ضربوا مصافاً عظيماً، فولى المسلمون منهزمين، لما عاملهم به كربوقا أولاً من الاستهانة بهم والإعراض عنهم، وثانياً من منعهم من قتل الفرنج، وتمت الهزيمة عليهم، ولم يضرب أحد منهم بسيف ولا طعن برمح ولا رمى بسهم، وآخر من انهزم سقمان بن أُرتق، وجناح الدولة؛ لأنهما كانا في الكمين، وانهزم كربوقا معهم. فلما رأى الفرنج ذلك ظنوه مكيدة، إذ لم يجر قتال يُنهزم من مثله، وخافوا أن يتبعوهم. وثبت جماعة من المجاهدين وقاتلوا حسبة وطلباً للشهادة، فقتل الفرنج منهم ألوفاً وغنموا ما في المعسكر من الأقوات والأموال والأثاث والدواب والأسلحة، فصلحت حالهم وعادت إليهم قوتهم» (انتهى).

وعندما ينهي ابن الأثير كلامه هذا، يشير إلى أن ما أتاحه تصرف كربوقا وخيانة القادة الآخرين، هي التي رسخت عزم الصليبيين على الزحف إلى القدس بعدما كان قد عراهم من اليأس والانخذال، حتى طلبوا الأمان والاستسلام، فيقول: لما فعل الفرنج بالمسلمين ما فعلوا ساروا إلى معرة النعمان. . . ثم تابعوا السير بعد ذلك إلى القدس.

كان ابن الأثير واضحاً في تحميل كربوقا والقواد الآخرين مسؤولية نجاح الصليبيين في اختراق بلاد الشام والوصول إلى القدس، مع اختلاف نوع المسؤولية بين كربوقا وبين بقية الأمراء والقواد.

لقد استطاع كربوقا أن يجيش الجيوش الإسلامية من الموصل حتى بلاد الشام وكل من في طريقه من شمال العراق حتى شمال الشام. وهذا ما أدركه الصليبيون الذين كانوا يعانون

= الاستسلام، فطلبها الأمان واستسلامها كان معناه انتهاء الحروب الصليبية عند أنطاكية وعودة رجالها إلى بلادهم شراذم جائعة عارية.

الوهن وقلة الأقوات ـ كما يقول ابن الأثير ـ بعد تلك الرحلة الطويلة التي بدؤوها من قلب أوروبا وصولاً إلى أنطاكية.

ومما زاد في وهنهم وانخذالهم ما عانوه في حصارهم لأنطاكية حتى عادوا وكأنهم هم المحاصَرون. لا المحاصِرون وكانت المجاعة قد حلت بهم لانعدام موارد القوت فيهم. فدب اليأس فيهم، وبدأوا يتسللون من جيشهم هاربين. وحين نعلم أنه كان في طليعة الهاربين، الرجل الأول في الدعوة إلى إشعال الحرب الصليبية، وبطل جمع جموعها، وتحريض الجماهير على الانضمام إلى جيوشها، أعني ـ بطرس الناسك ـ وحين نعلم أن الفرار من الجيش الصليبي الجائع الواهن قد تعدى العامة إلى القادة؛ ففر أمثال (ستيفن كونت بلوا). .

حين نعلم ذلك ندرك إلى أي مدى كان الصليبيون يائسين منخذلين واهنين جائعين وهم يحاصرون أنطاكية.

ولولا خيانة خائن كان داخل أنطاكية لعجز الصليبيون عن دخول أنطاكية.

لقد دخلوها على وهنهم وجوعهم، وظلوا على هذا الوهن والجوع، وهم داخلها لأن أسباب الوهن والجوع كانت لا تزال قائمة، فلا مصادر للقوت تقيهم الجوع وتدفع عنهم الوهن.

وصلت حملة كربوقا إلى أنطاكية والصليبيون على تلك الحال، ووصلتهم أخبار عن ضخامة الجيوش التي أخذت تحاصرهم، لذلك قرروا الاستسلام وطلب الأمان ـ كما ينص على ذلك ابن الأثير. . .

وهذا يعني أن الحملة الصليبية قد فشلت وأن جيوشها وقوادها قد قرروا الاستسلام، وأن القدس التي كانت هدفهم قد نجت، وانتهى أمرهم ولم تعد تقوم لهم قائمة. . .

فماذا غيّر ذلك كله، وماذا أحال وهنهم إلى قوة، وجوعهم إلى شبع، وماذا بدّلهم من موقف طالب استسلام إلى مهاجم منتصر؟!.

إن ابن الأثير يفصل لنا ذلك بعبارات مقتضبة فهو يقول:

«. . ولما سمعت الفرنج (بقدوم الجيوش الإسلامية الكثيفة) عظمت عليهم المصيبة وخافوا لما هم فيه من الوهن وقلة الأقوات عندهم».

ثم يسترسل ابن الأثير قائلاً:

«وأساء كربوقا السيرة فيمن معه من المسلمين وأغضب الأمراء وتكبر عليهم ظناً منه

أنهم يقيمون معه على هذه الحال، فأغضبهم ذلك وأضمروا له في أنفسهم الغدر إذا كان قتال، وعزموا على إسلامه عند المصدوقة» (اهـ).

عوضاً عن أن تبعث كثرة الجند وضخامة الجيش في نفس كربوقا التواضع لله على أن وفقه لقيادة هذه القوة الكبرى، وعوضاً عن أن يحمد الأمراء على استجابتهم لدعوته ويتألفهم ويلين لهم، عوضاً عن ذلك، عاد إلى طبيعته فرأى في تلك الحشود الإسلامية مجرد أتباع له، وفي أولئك الأمراء مجرد مأمورين له، فازدهاه ذلك فتكبر وتجبر، وعامل الأمراء بمهانة أحفظتهم وغيرت نواياهم لا عليه وحده، بل على الموقف كله، فانقلبوا من متحفزين لنصرة الإسلام إلى ناوين خيانة الإسلام.

فالأمر يلخّص، كما ذكر ابن الأثير، كما يلي:

١ ـ كان الصليبيون داخل أنطاكية في منتهى الوهن وانعدام الأقوات.

٢ ـ قرروا الاستسلام بلسان قيادتهم الموجودة كلها داخل أنطاكية.

٣ ـ رفض كربوقا استسلامهم وقرر دخول أنطاكية بالسيف.

٤ ـ بدأوا بالتسلل من أنطاكية فرأى المسلمون مقابلتهم، وهم شراذم تسهل إبادتهم تدريجياً، وبالفعل بدأ ذلك المسلمون فقتلوا كل من خرج، فرفض كربوقا ذلك وجاء بنفسه يمنع المسلمين من هذا.

٥ ـ كان كربوقا قد أساء معاملة الأمراء المنضمين إليه وعاملهم بمهانة.

٦ ـ حقد هؤلاء الأمراء عليه وقرروا عدم القتال والانهزام من المعركة عند أول مواجهة مع العدو.

٧ ـ أصر كربوقا على منع جمهور المقاتلين معه من تصيد الأعداء وهم شراذم مما أغضب هذا الجمهور فقرروا ما قرره الأمراء من الانهزام دون قتال.

٨ ـ وجدت جماعة في الجيش الإسلامي رفضت ذلك فقررت الاستشهاد تقرباً إلى الله.

فأول ما يطال كربوقا من المسؤولية في ذلك هو: تنفيره قلوب الأمراء منه، والاستعلاء عليهم. وثاني ما يطاله ـ وهو الأخطر في الأمر ـ هو رفضه استسلام الصليبيين بلا قتال.

وثالث ما يطاله ـ وهو ما لا يقل خطورة عن الثاني ـ هو رفضه طلب جمهور المقاتلين عدم السماح للصليبيين بالتجمع كتلة واحدة ومقابلتهم وهم شراذم تسهل إبادتها.

فلماذا فعل كربوقا ذلك؟ . .

يصعب علينا اتهام كربوقا بالخيانة فنحن لا ننسبها إليه. ولكننا لا نتردد أبداً باتّهامه بالأنانية وحب الذات وتغليبهما على كل شيء مهما تعارض هذا الشيء مع المصلحة العامة.

إن أنانيته، وحبه لذاته، وحرصه على مجده الشخصي، جعلته يرفض استسلام الصليبيين بأمان بلا قتال وخروجهم من أنطاكية ورجوعهم إلى بلادهم.

لأنه ـ وقد أيقن بوهنهم وحلول المجاعة فيهم ـ أعتقد أنه سيخوض معهم معركة سهلة يكون هو بطلها المنتصر. واستسلامهم بلا قتال سيحرمه من التباهي بالانتصار عليهم في معركة حاسمة.

وكذلك القول في منعه جمهور المسلمين المقاتلين من تصيد الصليبيين أفراداً وشراذم، وهزيمتهم بهذه الطريقة، فإن ذلك سيحرمه من المجد الشخصي والتفاخر بالانتصار.

وهكذا فإن الأنانية، وحب الذات، وطلب المجد الشخصي، عند كربوقا وخيانة الأمراء وجمهور المقاتلين قد حالت بين المسلمين وبين إنهاء الحروب الصليبية عند أنطاكية، وعرضتهم لما عرضتهم من فجائع دخول الصليبيين للقدس فاتحين واستمرار الاحتلال الصليبي لبلاد الشام مئتي سنة، وما اقتضى ذلك من إذلال وسفك دماء.

هذا كله يتناساه مزيفو التاريخ ويتجاهلونه!! ويفتشون عن بريء يتهمونه وبطل يخوّنونه!.

وهذا ما نأسف أن يتمسك به في هذا العصر من يقولون إنهم أكاديميون وحملة دكتوراه وأساتذة جامعيون!.

الاسترسال في التزييف

ويستطيب الدكتور عمر تدمري تزييف التاريخ فيقول:

إن أول ما يؤخذ على الفاطميين هو عدم اكتراثهم بالهجمة الصليبية على الشام، بل إنهم رحبوا بها لأنهم وجدوا فيها عوناً على خصومهم السلاجقة، وقد بعثوا رسلهم إلى زعماء الصليبيين وقادتهم في أنطاكية للتعبير عن فرحتهم بسقوطها بين أيديهم شماتة بالسلاجقة.

أولاً: لقد قلنا ونقول: إنه لم يكن هناك فاطميون عند الهجمة الصليبية على بلاد الشام، بل كان هناك: جماليون، وقد فصلنا ذلك فيما تقدم من الكلام.

أما جرأته على الحق والصدق في قوله عن الفاطميين (الذين لم يكن لهم يومذاك وجود) بأنهم رحبوا بالهجمة الصليبية على الشام، لأنهم وجدوا فيها عوناً على خصومهم

السلاجقة، وقد بعثوا رسلهم إلى زعماء الصليبيين وقادتهم في أنطاكية للتعبير عن فرحتهم بسقوطها شماتة بالسلاجقة ـ أما هذه الجرأة على الحق والصدق، فإننا لا نعرف في تاريخ التعصّب الأعمى لها مثيلاً.

في أي كتاب وجدت أن الفاطميين لم يكترثوا بالهجمة الصليبية؟ وفي أي كتاب قرأت أنهم رحبوا بها؟ في أي كتاب طالعت أن رسلهم إلى زعماء الصليبيين في أنطاكية عبروا عن فرحتهم بسقوطها شماتة بالسلاجقة؟!.

نعيد ونكرر وسنظل نعيد ونكرر أن الفاطميين لم يكن لهم وجود عند الهجمة الصليبية، بل كانوا محجوراً عليهم، وكانوا سجناء دورهم، وإن الذين حلوا محلهم هم: الجماليون..

ولكن هل فعل الجماليون هذا الذي يفتريه عمر تدمري؟..

لن نجيب نحن على هذا السؤال، بل نترك للدكتور محمد جمال الدين سرور في كتابه: (النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق) ليجيب عليه، وليبين حقيقة مهمة الرسل الذين أرسلهم الأفضل الجمالي إلى أنطاكية:

يقول الدكتور سرور في الصفحة ٦٧ من كتابه:

«لما وصل إلى الحكومة الفاطمية[1] في مصر نبأ هجوم الصليبيين على أنطاكية رأت أن تبذل جهدها لمنع زحفهم على بيت المقدس، فأنفذ الوزير الأفضل بن بدر الجمالي سنة ٤٩٢هـ (١٠٩٨م) سفارة إلى الصليبيين للتفاوض في عقد اتفاق معهم يتضمن أن ينفردوا بأنطاكية وأن تستقل مصر ببيت المقدس على أن يسمح للصليبيين بزيارة الأماكن المقدسة بفلسطين وتكون لهم الحرية في أداء شعائرهم الدينية على أن لا تزيد مدة إقامتهم بها عن شهر واحد وأن لا يدخلوها بسيوفهم»[2].

---

(١) ينطلق الدكتور سرور مع رواسبه فينسب الأمر إلى الدولة الفاطمية، في حين أنه هو نفسه ينسب الأمر بعد ذلك إلى الأفضل الجمالي.

(٢) يقول ن. م. ستون في الفصل الثالث من (تاريخ الحروب الصليبية) الجزء الأول ـ على ما نقل يوسف إيبش في كتابه عن صلاح الدين بعنوان (الخلافة العربية) ـ عن بدر الجمالي بعد أن سلّم أتسز دمشق إلى الأمير السلجوقي (تتش):

وتجنب بدر منذ ذلك الحين الدخول في أي نزاع مع السلطة السلجوقية، وكرّس نفسه لإعادة تنظيم مصر واسترجاع ازدهارها. فقد قامت الخلافة الفاطمية طيلة قرن آخر، وذلك بفضل حكومته الحازمة والمنتظمة وحكم ابنه الأفضل شاهنشاه الذي جاء بعده. والحق يقال أن إنجازه كان أكثر جدارة بالملاحظة. فالمبادىء العامة التي أعاد تنظيم الإدارة على أساسها كانت متصورة على=

ومن هذا يتبين أن الأفضل بن بدر الجمالي لما رأى سقوط أنطاكية وانهزام قوى كربوقا ـ بخيانة أسلاف الدكتور عمر تدمري ـ أيقن أنه لم يبق في طريق الصليبيين قوى إسلامية تستطيع التغلب عليهم والحؤول بينهم وبين الوصول إلى القدس، فحاول أن يقنعهم بالوقوف عند أنطاكية على أن تكون لهم حرية زيارة القدس أفراداً غير مسلحين وأن يغادرها من يزورها منهم في مدة أقصاها شهر.

وأحسب أن هذا أقصى ما كان يستطيع أن يفعله الأفضل من أجل القدس يومذاك، فأين هو موضع التجريح بهذا الرجل؟!.

هذا إذا صح أن الأفضل أرسل سفارة، فنحن لم نجد ذكراً لهذه السفارة المزعومة في أي مصدر عربي!..

ومع افتراض وجود السفارة نقول: إنه لما فشلت محاولة الأفضل السلمية لإيقاف الصليبيين عند أنطاكية استعد لحربهم.

فالاستعداد لحربهم كان واقعاً سواء سلمنا بوجود السفارة أم لم نسلم. استعد الأفضل لحرب الصليبيين مع علمه بقوتهم وضعف قوته أمام حشودهم، فقام واليه على القدس بتسميم

= نحو سليم إلى درجة أنها بقيت سارية المفعول على امتداد قرون رغم الحروب والتغيرات في السلالات الحاكمة. وكانت السمة الأكثر لفتاً للنظر في نظامه هي الجمع بين الحكومة العسكرية والإدارة المدنية. فلم يعد الخلفاء الفاطميون منذ هذا الوقت فصاعداً أو أنهم لم يكونوا إلا لفترات نادرة وقصيرة بمثابة الحكام الفعليين للبلاد. فقد قبعت مقاليد السلطة الحاكمة بيد الدكتاتور العسكري المدعو بالوزير، أو السلطان في أوقات لاحقة، يدعمه جيش يتقاضى قادته أجورهم من الإقطاعات العسكرية. غير أنه بالرغم من بقاء الحكومة العسكرية على رأس الحكم فقد أنشئت إدارة مدنية قوية وبسطت هذه الإدارة سيطرتها على التنظيم المالي برمته، ومن الجملة على دفع أجور العساكر، كما ضبطت توزيع الاقطاعات.

وقلما تقل عن ذلك جدارة بالملاحظة تلك الثورة التي أحدثها بدر الجمالي وابنه في سياسة مصر الخارجية. فسواء تقبلا الحقيقة القائلة بأن الدولة السلجوقية قضت على كافة أحلام التوسع الإقليمي أم لا، فإن العمل العسكري الوحيد الذي قاما به خارج مصر كان استرجاع قواعدها البحرية في عكا وصور وغيرها من الموانىء (١٠٨٩) وإقامة رأس جسر دفاعي في فلسطين. ولدى اقتراب الصليبيين أعيد تحصين صور وصيدا مثلما تم الاستيلاء على القدس مجدداً في سنة ١٠٩٨ من الزعماء التركمان الأرتقيين الذين تولوها كإقطاعية سلجوقية.

أما الافتراض القائل بأن الأفضل حاول التفاوض مع الصليبيين على تقسيم سورية فتدحضه الحقيقة القائلة إن مبعوثي الفرنجة الذين ذهبوا إلى القاهرة في تلك السنة قد ألقي بهم في السجن.

الآبار التي في طريقهم وطم القنوات لئلا يستفيدوا من مائها، وعهد بحراسة أسواق القدس إلى جماعة من العرب والسودان. ويقول الدكتور حسن حبشي في كتابه (الحروب الصليبية) فيما يقول عن جيش الأفضل بن بدر الجمالي المدافع عن القدس: «وأدرك الصليبيون أنهم واجهوا هذه المرة خصماً يرى أن في ضياع بيت المقدس ضياعاً لهيبته السياسية وانتهاكاً لحرماته الدينية».

ونقول: كان ذلك على عكس أسلاف الدكتور عمر التدمري وأسلاف محمد علي الجوزو الذين لم يروا حرجاً في أن يخونوا الإسلام والمسلمين حين انحازوا بجيوشهم عن طريق الصليبيين، ففتحوا لهم باب الوصول إلى القدس!.

ثم يصف الدكتور حسن حبشي الدفاع البطولي عن القدس قائلاً: «شرع الصليبيون في الهجوم مساء الأربعاء ١٣ يوليو ١٠٩٩ (٤٩٢هـ) ووجدوا من الحاميات الإسلامية دفاعاً قوياً رغم ما استعدوا به من آلات الحصار والأبراج المتحركة، وأخذت حامية المدينة ترميهم بالنار الإغريقية».

واستمرت المعارك على هذا المنوال العنيف سبعة أسابيع.

وبعد سقوط القدس واصل الأفضل قتال الصليبيين، وقاد حملة لاسترداد القدس في رمضان سنة ٤٩٢هـ (آب ١٠٩٩م) وصل بها إلى عسقلان، فلما بلغت أخبارها إلى جودفري في القدس أرسل على عجل رسولاً إلى تنكريد الذي كان في نابلس يستدعيه هو والقوات التي معه للمشاركة في دفع الخطر الداهم، كما استدعى بقية الأمراء الذين ساهموا في حرب بيت المقدس يطلب إليهم الانضمام إليه للدفاع عن القبر المقدس هذه المرة، ولم يتخلف منهم أحد على الرغم مما كان قائماً بينهم من خلاف يومذاك. وهكذا وحد الخطر بين جميع القوى الصليبية فتحشدت بأقصى ما تستطيع من تحشد، ففشلت معركة استرداد القدس في تفاصيل ليس هنا مكان الخوض فيها.

يقول المقريزي في خططه: «وفي سنة أربع وتسعين خرج عسكر مصر لقتال الفرنج وكانت بينهما حروب كثيرة».

ويقول ابن الأثير[1]: سيّر الأفضل ولده شرف المعالي في السنة الحالية إلى الفرنج فقهرهم وأخذ الرملة منهم.

(١) ج١٠، ص٣٩٤.

ويقول المقريزي في خططه(١): «وكوتب الأفضل بن أمير الجيوش من عسقلان، باجتماع الفرنج فاهتم للتوجه إليهم، فلم يبق ممكناً من مال، وسلاح، وخيل، ورجال، واستناب أخاه المظفر أبا محمد جعفر بن أمير الجيوش بين يدي الخليفة مكانه، وقصد استنقاذ الساحل من يد الفرنج، فوصل إلى عسقلان، وزحف عليها بذلك العسكر».

ولكن الحملة لم تنجح.

وقال المقريزي أيضاً(٢): وذكر تجهيز العساكر في البر عند ورود كتب صاحبي دمشق وحلب في سنة سبع عشرة وخمس مئة ما يحث على غزو الفرنج ومسيرها مع حسام الملك، وركب الخليفة الآمر بأحكام الله، وتوجه إلى الجامع بالمقس، وجلس بالمنظرة في أعلاه، واستدعى مقدم الأسطول الثاني، وخلع عليه، وانحدرت الأساطيل مشحونة بالرجال والعدد والآلات والأسلحة.

وقال المقريزي(٣): قال ابن المأمون البطائحي في حوادث سنة تسع وخمس مئة: ووصلت النجابون من والي الشرقية تخبر بأن بغدوين ملك الفرنج وصل إلى أعمال الفرما، فسير الأفضل بن أمير الجيوش للوقت إلى والي الشرقية بأن يسير المركزية والمقطعين بها، ويسيّر الراجل من المعطوفية، وأن يسير الوالي بنفسه بعد أن يتقدم إلى العربان بأسرهم بأن يكونوا في الطوالع، ويطاردوا الفرنج، ويشارفوهم في الليل قبل وصول العساكر إليهم، فاعتمد ذلك، ثم أمر بإخراج الخيام، وتجهيز الأصحاب والحواشي. فلما تواصلت العساكر وتقدمها العربان، وطاردوا الفرنج، وعلم بغدوين ملك الفرنج أن العساكر متواصلة إليه، وتحقق أن الإقامة لا تمكنه، أمر أصحابه بالنهب والتخريب والإحراق وهدم المساجد، فأحرق جامعها ومساجدها وجميع البلد، وعزم على الرحيل... إلى أن يقول: وأما العساكر الإسلامية فإنهم شنوا الغارات على بلاد العدو وعادوا بعد أن خيموا على ظاهر عسقلان... ثم يقول: وتواصلت الغارات على بلاد العدو وأسروا وقتلوا...

وظلت غارات الأفضل على شكل عصابات تغير على الصليبيين، ووصل بعضها إلى أسوار بيت المقدس سنة ٥٠٤ (١١١٠م) وسنة ٥٠٧هـ (١١١٣م)، وإلى يافا سنة ٥٠٩هـ (١١١٥م)(٤).

(١) ج١، ص٤٤٣.
(٢) ج١، ص٤٨٠.
(٣) ج١، ص٢١٢.
(٤) stton: A History of the crusades t1 p421.

وهذا يدل على أن الأفضل لم يهدأ، ولم يترك الصليبيين يهدؤون، بل ظل يغير عليهم ويقاتلهم، فكانت بينه وبينهم حروب كثيرة، على حد تعبير المقريزي.

وإذا كانت القوى الصليبية المتدفقة من أوروبا هي أكثف وأقوى مما استطاع الأفضل حشده، وإذا كان لقوى الصليبيين إمداد دائم من الخارج، وليس للأفضل أي إمداد من العالم الإسلامي الواسع، فذلك ليس ذنب الأفضل بن بدر الجمالي.

وبالرغم من أن من جاءوا بعد الفاطميين والجماليين طمسوا كل ما يستطيعون طمسه من مآثر تلك العهود، وما قيل فيها من الشعر والنثر فقد أمكن أن يصل إلينا بعض ما خلّده الشعراء من مآثر الأفضل بن بدر الجمالي في جهاده للصليبيين. فمن ذلك قصيدة للشاعر أمية بن أبي الصلت، يشير فيها إلى انصراف البلاد الإسلامية الأخرى، عن مواجهة الخطر الصليبي، واقتصار المواجهة على الأفضل وجيشه. وفيها يقول مخاطباً الأفضل:

جردت للدين والأسياف مغمدة سيفاً تفل به الأحداث والغير

ثم يشير إلى فشل حملة استعادة القدس:

وإن هم نكصوا يوماً فلا عجب قد يكهم السيف وهو الصارم الذكر

العود أحمد والأيام ضامنة عقبى النجاح ووعد الله ينتظر

ثم يتبنى الدكتور عمر تدمري أقوال زملائه المتقدمين عليه في الزمن، والمساوين له في العصبية العمياء والتوغل في الباطل والافتراء على الحقيقة، أمثال: محمد كرد علي الذي ينقل قوله غير المستند إلى سند إلا اتقاد جذوة اللؤم في نفسه حيث يقول:

«ومما يثير الاستغراب والدهشة أن الفاطميين ظلوا مكتوفي الأيدي، وهم يرون المدن الإسلامية تدمر، ويقتل رجالها ونساؤها وأطفالها، وتهدم مساجدها، وكأن الأمر لا يعنيهم طالما أنهم يعتقدون أن المتضرر الأول هم السلاجقة، وأنهم بعدم التصدي للصليبيين، يصرفون نظرهم عن الدخول إلى مصر».

ونقول لمحمد كرد علي، ولعمر تدمري: إن خيانة أسلافكم السلاجقة هي التي فتحت الباب للصليبيين لكي يدمروا المدن الإسلامية ويقتلوا رجالها ونساءها وأطفالها ويهدموا مساجدها.

أما الفاطميون فلم يكن لهم وجود، والجماليون الذين خلفوهم لم يقفوا مكتوفي الأيدي، وقد عناهم الأمر كل العناية، وقد رأينا فيما تقدم من القول ما فعلوه في قتال الصليبيين..

وأمثال ابن كثير الذي قدم التدمري لشتائمه بقوله:

ولقد هاجم المؤرخون الخلفاء الفاطميين، ودولتهم على مواقفهم، المتخاذلة، فكتب ابن كثير كلاماً مقذعاً قال فيه: . . . وقد كان الفاطميون أغنى الخلفاء، وأكثرهم مالاً، وكانوا من أغنى الخلفاء، وأجبرهم، وأظلمهم، وأنجس الملوك سيرة، وأخبثهم سريرة، ظهرت في دولتهم البدع، والمنكرات، وكثر أهل الفساد، وقل عندهم الصالحون من العلماء والعباد. وكثر بأرض الشام النصرانية، والدرزية، والحشيشية، وتغلب الفرنج على سواحل الشام بكماله حتى أخذوا القدس، ونابلس، وعجلون، والغور، وبلاد غزة، وعسقلان، وكرك، والشوبك، وطبرية، وبانياس، وصور، وعكا، وصيدا، وبيروت، وصفد، وطرابلس، وأنطاكية، وجميع ما والى ذلك إلى بلاد إياس وسبس، واستحوذوا على بلاد آمد، والرها، ورأس العين، وبلاد شتى غير ذلك. وقتلوا من المسلمين خلقاً وأمماً لا يحصيها إلا الله، وسبوا ذراري المسلمين من النساء والولدان مما لا يحد ولا يوصف.

هذا الكلام ينقله، ويتبناه، ويحاضر به على المنابر، رجل يعيش في العقد الأخير من القرن العشرين، ويحمل شهادة دكتوراه ويدرّس في الجامعة.

لقد كان على عمر تدمري أن يخجل من مجرد وجود هذا الكلام في كتاب عربي، لو كان عمر تدمري ـ فعلاً ـ رجل علم وفكر وتحقيق.

لقد استولى الفرنج على ما ذكره ابن كثير من بلاد وفعلوا فيها ما عدده من الأفعال. وقد رأينا فيما تقدم من هم الذين فتحوا للفرنج باب الشام على مصراعيه.

أما الفاطميون فسنظل نكرر ونكرر ونكرر أنهم لم يكونوا موجودين، وأن الجماليين الذين خلفوهم دافعوا دفاع الأبطال لذود الصليبيين لا سيما عن القدس. . .

وابن كثير هذا الذي يفيض قلمه بتلك البذاءات عن الفاطميين هو نفسه الذي يقول عن واحد من أولئك الفاطميين في الصفحة ٢٨٤ من المجلد الحادي عشر من كتابه: البداية والنهاية:

كان المعز قبحه الله فيه شهامة، وقوة حزم، وشدة عرام، وله سياسة، وكان يظهر أنه يعدل، وينصر الحق.

هذه هي الصفات التي كان يتحلى بها الفاطميون والتي أنطق الله بها ابن كثير رغماً عنه: الشهامة، وقوة الحزم، وشدة العرام، والسياسة، والعدل، ونصرة الحق.

ومع ذلك فابن كثير لا يتورع عن أن يقول عن صاحب هذه الصفات: قبحه الله، وأن يصف قومه الذين لا يقلون عنه في التحلي بهذه الصفات ـ أن يصفهم بما وصفهم به، وأن يشتمهم بما شتمهم.

نحن لا نريد أن نتحدث عن أمجاد الفاطميين إلا بما ذكره ابن كثير نفسه، وبما أرغمه الله على تدوينه في كتابه نفسه فهو يقول عن إحدى وقائعهم وهو يتحدث عن أحداث سنة ٣٥١: وفيها فتح المعز الفاطمي حصن طبرمين من بلاد المغرب، فتحه قسراً بعد محاصرة سبعة أشهر ونصف. وقصد الفرنج جزيرة اقريطش فاستنجد أهلها المعز فأرسل إليهم جيشاً فانتصروا على الفرنج.

وقال في أحداث سنة ٣٥٣: وكان من عزمهم (الروم) أن يستحوذوا على البلاد الإسلامية كلها... ثم يقول: وفيها كانت وقعة المجاز[1] ببلاد صقلية، وذلك أنه أقبل من الروم خلق كثير، ومن الفرنج ما يقارب مئة ألف، فبعث أهل صقلية إلى المعز الفاطمي يستنجدونه، فبعث إليهم جيوشاً كثيرة في الأسطول، وكانت بين المسلمين والمشركين وقعة عظيمة، صبر فيها الفريقان من أول النهار إلى العصر، ثم قتل أمير الروم منويل، وفرت الروم، وانهزموا هزيمة قبيحة، فقتل المسلمون منهم خلقاً كثيراً، وسقط الفرنج في واد من الماء عميق، فغرق أكثرهم، وركب الباقون في المراكب، فبعث الأمير أحمد صاحب صقلية (الفاطمي) في آثارهم مراكب أخر، فقتلوا أكثرهم في البحر أيضاً، وغنموا في هذه الغزوة كثيراً من الأموال، والحيوانات، والأمتعة والأسلحة.

هو يعترف أنه كان من عزم الروم الاستحواذ على البلاد الإسلامية، ويعترف أن جيوش الفاطميين هي التي أحبطت عزمهم وردتهم عن البلاد الإسلامية. كما اعترف من قبل أن جيش الفاطميين هو الذي أنجد مسلمي جزيرة اقريطش من الغزو الفرنجي فانتصر المسلمون على غازيهم من الفرنج.

يعترف بذلك، ثم يصف الفاطميين بما وصفهم به، ويأتي اليوم أستاذ الجامعة الأكاديمي، أستاذ الجامعة حامل الدكتوراه: عمر تدمري فيستشهد بأقواله ويرددها على المنابر.

ولتزداد معرفة بابن كثير ومتبني أقواله، نقول: إنه وهو يذكر أحداث سنة ٣٥١، يذكر

(١) سماها طابعو الكتاب واقعة (المختار) وهي: واقعة المجاز.

انتصار البيزنطيين على سيف الدولة الحمداني في إحدى المعارك ودخولهم حلب، فيقول: إن سيف الدولة فيه تشيع، لا جرم أن الله لا ينصر أمثال هؤلاء!..

إن ابن كثير الذي يدعي الإسلام، والغيرة عليه لا يبالي أن يشمت بانتصار البيزنطيين على الحمدانيين ما دام الحمدانيون شيعة.

ولكن الله يخزي ابن كثير بقلم ابن كثير نفسه، إذ تضطره الأحداث لأن يتمّم كلامه السابق قائلاً عن سيف الدولة: بعث مولاه نجا، فدخل بلاد الروم، فقتل منها خلقاً كثيراً، وسبى جمعاً غفيراً، وبعث صاحبه مع جيش طرطوس فدخلوا بلاد الروم فغنموا وسبوا، ورجعوا سالمين.

ولتعرف من هو ابن كثير، هذا الذي يتبنى الدكتور عمر تدمري أقواله ويخطب بها على المنابر نذكر لك شيئاً مما سجله في تاريخه (البداية والنهاية):

فهو عندما يتحدث عن وفاة الأشرف بن العادل الأيوبي يقول عنه في الصفحة ١٤٧ من المجلد الثالث عشر: إنه كان يعاني الشراب أي أنه كان سكيراً. ثم يقول عنه في الصفحة التالية: ولما توفي رآه بعض الناس وعليه ثياب خضر وهو يطير مع جماعة من الصالحين، فقال: ما هذا وقد كنت تعاني الشراب في الدنيا؟ فقال: ذاك البدن الذي كنا نفعل به ذاك عندكم، وهذه الروح التي كنا نحب بها هؤلاء فهي معهم.

ثم يعقب ابن كثير على هذا القول بقوله: ولقد صدق رحمه الله، قال رسول الله ﷺ: المرء مع من أحب. وهكذا فعلى رأي ابن كثير: لا بأس بارتكاب المعاصي ومنها شرب الخمر، ما دام مرتكبها يحب بعض الصالحين. على أن الطامة الكبرى هي ما ذكره في الصفحة ١٢٩ من المجلد الثاني عشر عن الاختلاف في إباحة الولدان في الجنة، وما قيل في الإباحة وعدم الإباحة بين أبي علي بن الوليد وأبي يوسف القزويني، وأنه يباح لأهل الجنة وطء الولدان في أدبارهم، فمال هذا إلى إباحة ذلك؛ لأنه مأمون المفسدة هناك. وقال أبو يوسف: إنّ هذا لا يكون، لا في الدنيا ولا في الآخرة ومن لك أن يكون لهم أدبار، وهذا العضو ـ وهو الدبر ـ إنما خلق في الدنيا لحاجة العباد إليه لأنه مخرج الأذى عنهم، وليس في الجنة شيء من ذلك، وإنما فضلات أكلهم عرق يفيض من جلودهم، فإذا هم ضمر فلا يحتاجون إلى أن يكون لهم أدبار، ولا يكون لهذه المسألة صورة بالكلية!!.

هذا هو المؤرخ الذي يستشهد بأقواله الدكتور عمر تدمري ويخطب بها على المنابر!..

وإنه ليشرف الفاطميين وغير الفاطميين أن يشتمهم من تشغله في تاريخه أدبار الولدان! . . ولا يشرف الدكتور عمر تدمري أن يكون هذا مقتداه ومصدر أفكاره . .

وابن كثير هذا الذي افترى على الفاطميين ما افترى، عندما يمر بخيانة الأيوبيين يمر بها مراً سريعاً لا يلفت النظر، فهو مثلاً عندما يتحدث عن تنازل العادل عن البلاد للصليبيين يقول: وأطلق لهم شيئاً من البلاد[1] وعندما يذكر تحالف الأيوبيين، الصالح إسماعيل صاحب دمشق، والناصر داود صاحب الكرك، والمنصور صاحب حمص ـ عندما يذكر تحالف هؤلاء الأيوبيين مع الصليبيين على قتال قريبهم الأيوبي الآخر الصالح أيوب صاحب مصر، يذكر ذلك بدون أي اهتمام وأي إنكار[2].

وعندما يذكر انضمام القاضيين صدر الدين بن سني الدولة ومحيي الدين بن الزكي إلى هولاكو، وانضمام الملك السعيد بن العزيز بن العادل الأيوبي إلى المغول أيضاً وقتاله معهم في معركة عين جالوت[3]، ومكاتبة الملك المغيث عمر بن العادل أبي بكر بن الكامل الأيوبي لهولاكو، وحثه على القدوم إلى الشام مرة أخرى، وجواب المغول له بالثبات، ونيابة البلاد، وأنهم قادمون عليه لفتح الديار المصرية[4] ـ عندما يذكر ابن كثير ذلك لا يرى فيه شيئاً، ولا يرى أن هؤلاء الخونة يستحقّون حتى كلمة تقريع! . .

ثم لا يبالي أن يفتري على الأبرياء الشرفاء المخلصين!

والدكتور عمر تدمري لم تَرُغه هذه الخيانات الصريحة المملوء بها وبأمثالها كتاب ابن كثير، فلم يشر إليها بشيء في كل ما كتب ودون، بل تمسك بالافتراءات والأباطيل والبذاءات والشتائم!

ولا يكتفي التدمري بالتمسك بأذيال ابن كثير، بل لجأ إلى نظير لابن كثير، هو ابن الفرات، فنقل عنه ما كان عليه أن يخجل من قراءته، ولكنه ـ وهو يوافق هواه وعصبيته ـ انحدر مع ابن الفرات إلى دركات الخزي حين نقل عنه هذا القول الذي مهد له بقوله: وها هو ابن الفرات يورد رواية فيها الكثير من السخرية بالخليفة الفاطمي المراهق (الآمر بالله) وهو يتحدث عن سقوط مدينة طرابلس يقول فيها:

---

(١) ابن كثير، ج١٣، ص٣٧.
(٢) ابن كثير، ج١٣، ص٦٤.
(٣) م. ن. ص٢٢١.
(٤) م. ن. ص٢٣٨.

. . . وحكي أن السبب في أخذ طرابلس أنه لما ضايقها الفرنج كتب من فيها إلى الديار المصرية يستنجدون خليفتها ويسألونه الميرة، وأقاموا ينتظرون ورود الجواب بالمدد والميرة، فبينما هم في ذلك إذا بمركب قد أقبل، فما شكوا أن فيه نجدة فطلع منه رسول وقال: قد بلغ الخليفة أن بطرابلس جارية حسنة الصورة، وأنها تصلح للخدمة، وقد أمر بإرسالها إليه، وأرسلوا إليه من حطب المشمش ما يصنع منه عيدان للملاهي فعند ذلك أيسوا من نصره وضعفت قواهم.

إلى هذا المستوى انحط عمر تدمري، إلى هذا المستوى انحط من يعتبر نفسه مؤرخ الإسلام في بلاد الشام في هذا العصر!.

لقد انحط إلى حد تبني السفاهات، والمناداة بها شعاراً يواجه به جماهير الناس!..

يا عمر تدمري، إن طرابلس بلدك، وأنت تعرف أنها صمدت بأبطالها الشيعة بني عمار عشر سنين في وجه الصليبيين تقاتلهم، وتذودهم، وتتحمل مرارة حصارهم لها.

وأنها لم تستنجد بمصر، لأن مصر كانت هي الأخرى تقاتل الصليبيين، وتدفعهم عن حمى الإسلام بقواها المحدودة التي لا تستطيع أن تستغني عن جندي واحد منهم..

لقد استنجدت بأسلافك وأسلاف محمد علي الجوزو في بغداد الراتعين في دعة العيش المتنعمين بغضارة الحياة!..

لقد استنجد وفدها بهم فردوه خائباً! وتركوها تلاقي مصيرها وحيدة!..



بين السلاجقة والصليبيين

سنة ٤٩١هـ كان الصليبيون يحتلون أنطاكية ويتوغلون منها في بلاد الشام قاصدين القدس.

ويقول ابن الأثير عن حاكم أنطاكية السلجوقي (باغي سيان) أنه بمجرد أن سمع صوت بوق الفرنج يضرب عند السحر، وكان مع البوق عدد من الصليبيين لا يزيد على الخمسمائة ـ لما سمع (باغي سيان) صوت البوق دخله الرعب، ففتح باب البلد وخرج هارباً على وجهه، فجاء نائبه في حفظ البلد فسأل عنه، فقيل إنه هرب، فخرج نائبه من باب آخر هارباً، وكان ذلك معونة للفرنج، ولو ثبت ساعة لهلكوا[١].

ويقول ابن الأثير بعد ذلك بسطور: وكان الفرنج قد كاتبوا صاحبي حلب ودمشق (السلجوقيين) بأننا لا نقصد غير البلاد التي كانت بيد الروم، لا نطلب سواها، مكراً منهم وخديعة، حتى لا يساعدا صاحب أنطاكية.

هكذا سلم السلاجقة باب العالم الإسلامي مفتوحاً للصليبيين، فدخلوا منه حتى وصلوا إلى القدس!

هرب حامي الباب بسماعه صوت البوق فلم يرم بسهم، ولم يجرد سيفاً، ولم يشرع رمحاً دفاعاً عن البلد الذي أنفذ فيه سلطانه، واستصفى أمواله، وعاش فيه آمراً ناهياً مترفاً، فلما جد الجد لم يكن له هم إلا نفسه ففر هارباً لا يلوي على شيء، ولم يترك البلد وأهله وحدهم عرضة لمذابح الصليبيين، بل ترك حتى أسرته للقتل والسبي والأسر.

---

(١) الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٢٧٥، طبعة ١٩٦٦.

وصاحبا حلب ودمشق (السلجوقيان) لم يعنهما أن يحتل الصليبيون أنطاكية ثم ينطلقوا منها إلى أولى القبلتين وثالث الحرمين، لم يعنهما ذلك ما دام الصليبيون قد طمأنوهما بأنهم لن يتعرضوا لهما.

وفي السنة التي كان الصليبيون يزحفون فيها على العالم الإسلامي فيحتلون أنطاكية ويتقدمون إلى بيت المقدس، كان السلجوقيون في مكان آخر لا يكترثون بهذا، وإنَّما يتقاتلون فيما بينهم فيقود دولتشاه مع بيغو أخي طغرل بك فريقاً، ويقود السلطان سنجر فريقاً ويدخلون فيما بينهم بمعارك دامية[١].

وفي السنة الثانية من احتلال القدس (سنة ٤٩٢) كان السلاجقة في شاغل عن هذا الاحتلال، وعن مذابح المسلمين في القدس، وعن الذل الذي غرق فيه المسلمون ـ كانوا في شاغل عن ذلك، وكانوا يتحاربون في مكان آخر، كان القتال دائراً بين السلطان (بركيارُق)[٢] وواليه (أُنر)، وبين (إيران شاه) وحلفائه (الشوانكاره).

---

(١) الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٢٧٩.

(٢) بركياروق (٤٨٧ ـ ٤٩٨هـ = ١٠٩٤ ـ ١١٠٤م) هو الابن الأكبر لملكشاه. بعد وفاة والده سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢م) قام النزاع بينه وبين إخوته غير الأشقاء: محمود بن تركان خاتون، وهو الابن الأصغر والابنين الأوسطين محمد وسنجر ابني زوجة ثالثة، ثم عمه تتمش بن ألب أرسلان من جهة ثانية، في تفاصيل ليس هنا مكان ذكرها.

وقد انحصر النزاع بعد خطوب بين بركياروق وأخويه محمد وسنجر، وأعلن محمد نفسه سلطاناً على همذان والري سنة ٤٩٢هـ (١٠٩٨م). وبذلك صار للسلاجقة سلطانان في وقت واحد والحرب قائمة بينهما.

ثم استقر الأمر سنة ٤٩٧هـ (١١٠٣م) على أن يتولى بركياروق المناطق الجنوبية: بلاد الجبال والعراق، ويتولى محمد المناطق الشمالية: آذربيجان وبلاد الأرمن ويتبعه سلاجقة الشام وسلاجقة الروم. على أن الاستقرار لم يستمر كما سيرى القارىء خلال البحوث القادمة.

يقول الدكتور حسين أمين في كتابه (تاريخ العراق في العصر السلجوقي) (ص١١٩): إن هذا التخاصم والتنازع لم يكن سبباً في إسقاط الدولة السلجوقية أو في إضعافها فقط، بل إنه أدى إلى أخطر من هذا، أدى إلى إضعاف جبهة المسلمين، خاصة في منطقة الشام، مما سهل على الصليبيين أن يتمركزوا ويستولوا على كثير من المدن والبلاد.

ثم يقول: وخلاصة القول إن مملكة السلاجقة بعد وفاة ملكشاه بن ألب أرسلان واجهت مشاكل خطيرة أدت إلى انقسامات كبيرة وانشغل السلاطين والأمراء في العصر التالي عصر سلاجقة العراق عن مصالح الدولة إلى تثبيت مراكزهم ومخاصمة الواحد منهم للآخر وأصبحت الدولة نهباً مقسماً بين الأمراء والأتابكة العديدين. وكان الصليبيون قد سيطروا على كثير من ممتلكات السلاجقة =

ومؤيد الملك عبيد الله بن نظام الملك (الوزير السلجوقي) لم يعنه وهو في بغداد ما يجري في القدس بل عناه الخلاف السلجوقي، فسار من بغداد لا إلى القدس لإنجادها واستنقاذها، بل إلى حيث يقيم (أنر) لإنجاده واستنقاذه.

وأُنر هذا لم يعنه هو الآخر ما يجري في القدس على المسلمين، بل عناه أن الإسماعيليين قد انتشر أمرهم في أصفهان فندب نفسه لقتالهم، وحصر قلعة على جبل أصفهان![(١)].

أُنر السلجوقي لم ير في انتشار أمر الصليبيين في بلاد الشام ما يحفزه على أن يندب نفسه لقتالهم، وأن يسرع لحصار قلعة من قلاعهم. بل رأى في انتشار أمر مواطنيه الإسماعيليين ما يحفزه على ذلك!.

وتسقط القدس ويجري ما يجري فيها على المسلمين، ويأتي المستنجدون من الشام إلى بغداد، بغداد السلجوقية في ذلك الوقت.

ويروي قصتهم ابن الأثير على هذا الشكل[(٢)]:

«وورد المستنفرون من الشام في رمضان إلى بغداد صحبة القاضي أبي سعد الهروي، فأوردوا في الديوان كلاماً أبكى العيون وأوجع القلوب وقاموا بالجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا وأبكوا، وذُكر ما دهم المسلمين بذلك البلد الشريف المعظم من قتل الرجال وسبي الحريم والأولاد ونهب الأموال». (انتهى).

كان يومذاك في بغداد سلطتان: سلطة روحية بحتة هي سلطة الخلافة، وسلطة فعلية حاكمة هي سلطة السلاجقة.

وكل ما استطاع الخليفة أن يفعله هو أن يقنع ستة من الفقهاء أن يسيروا نجدة لإخوانهم في الشام، ومع أن هذه النجدة لا طائل وراءها، فإن هؤلاء لم يلبثوا أن رجعوا من أول الطريق..

= ففي زمن محمود بن محمد بن ملكشاه انتزع الصليبيون معظم بلاد الشام من يد الأمراء السلاجقة وكونوا فيها الإمارات الصليبية الأربع وهي: بيت المقدس وأنطاكية وطرابلس والرها. ولم يبق في أيدي المسلمين إلا بعض المدن الداخلية كدمشق وحلب. وظل للسلاجقة من ذلك سلطان قوي في إيران هو سنجر.

(١) الكامل لابن الأثير: ج١٠، ص٢٨١.

(٢) م. ن. ص٢٨٤.

أما السلطة الفعلية سلطة السلاجقة فقد أصمت أذنيها عن سماع الاستغاثة، وتجاهلت وصول المستغيثين منصرفة إلى شؤونها الخاصة.

هذه السلطة التي لم تتوان عن أن يسير بها رأس من رؤوسها الكبيرة، مؤيد الملك بن نظام الملك لإنجاد سلجوقي متنازع مع سلجوقي آخر.

ويعبر ابن الأثير عن الموقف أحسن تعبير حين يقول: «واختلف السلاطين فتمكن الفرنج من البلاد»[1]. والمقصود بالسلاطين: سلاطين السلاجقة إذ لم يكن يومذاك من يدعى بالسلاطين غيرهم.

ويبدو أن الخليفة المستظهر قد أحرج السلطان السلجوقي (بركيارُق)[2] فأرسل بركيارُق إلى كربوقا أتابك الموصل فذهب لإنقاذ أنطاكية. فكان من كربوقا ومن معه من القواد أن تحكمت بكربوقا أنانيته، وتغلبت على القواد وجنودهم الخيانة فأضاعوا أنطاكية، وفتحوا البلاد للصليبيين. . . ـ كما مر بيانه ـ.

أما بركيارُق فقد كان مشغولاً عن الصليبيين بالاقتتال مع السلاجقة الآخرين!.

ففي سنة الزحف الصليبي واحتلال القدس، ومجيء الوفد الشامي للاستنجاد بالسلطة السلجوقية سنة ٤٩١ وعودته خائباً، في هذه السنة نفسها كان السلاجقة مشغولين بالتزاحم على التسلط على بغداد، فالسلطان محمد بن ملكشاه[3] ينازل أخاه بركيارُق على السلطنة ويعلن نفسه سلطاناً ويقطع خطبة أخيه من بلاده ويقبض على زبيدة خاتون والدة أخيه السلطان بركيارُق ويسجنها ثم تقتل خنقاً[4].

وكان زعماء السلاجقة يتعاضدون، لا على التوجه إلى فلسطين لقتال الصليبيين، بل على التوجه لتوطيد أمر السلطان محمد، فيأتي سعد الدولة كوهرائين من بغداد، وكربوقا من

(١) الكامل ج١٠، ص٢٨٤.
(٢) ابن الجوزي في المنتظم ج٩ ص١٠٥، وابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ج٥ ص١٦١.
(٣) ملكشاه (٤٦٥ ـ ٤٨٥هـ = ١٠٧٣ ـ ١٠٩٢م): هو ابن ألب أرسلان تولى الملك بعد اغتيال أبيه سنة ٤٦٥هـ (١٠٧٣م)، ولكن عارضه عمه حاكم سلاجقة كرمان وطالب بالسلطنة ووقع الصدام بينهما قرب همذان فانهزم عمه وقتل وسملت عيون ولديه.
واتسعت الدولة السلجوقية في عهد ملكشاه حتى بلغت من أفغانستان شرقاً إلى آسيا الصغرى غرباً وبلاد الشام جنوباً بعد سقوط دمشق على يد قائده أتسز سنة ٤٦٨هـ (١٠٧٥م).
(٤) الكامل ج١٠، ص٢٨٩.

الموصل، وجكرمش من الجزيرة، وسرخاب بن بدر من كِنْكَوَر، وغيرهم من غيرها ويتوجهون إلى السلطان محمد في مدينة (قم)، فيوفد كوهرائين إلى بغداد ليحمل الخليفة على أن يخطب فيها للسلطان محمد، فيستجيب الخليفة لذلك، ويُلقب السلطان محمد بلقب: غياث الدنيا والدين[1]!.

أي دين وأي دنيا كان هذا السلطان السلجوقي غياثهما؟!

أما دنيا الإسلام في الأرض المقدسة فكانت موزعة في أيدي الصليبيين، وأما الدين فقد كان موؤوداً بسيوفهم!.

والسلاجقة مع ذلك يسمون سلطانهم الجديد اللاهي عن ذلك، العاكف على استغلال سلطته في المسلمين ـ يسمونه: غياث الدنيا والدين!..

لقد كان غياث دنياهم هم فعلاً، أما الدين فلم يكن له فيهم من غياث، وأما دنيا القدس فقد كانت في مضيعة أي مضيعة.

ولم يسكت بركيارُق فجمع جموعه ـ وأمير عسكره ينّال بن أنوشتكين الجسامي ـ وسار ومعه غيره من الأمراء إلى واسط، يظلم جنوده الناس وينهبون البلاد، حتى بلغ بغداد، فلما بلغها كان قد خُطب له فيها قبل وصوله إليها بيومين!..

وهنا ضعفت عزائم الحلفاء الذين كانوا أجمعوا على تعضيد مزاحمه السلطان محمد، فأما جكرمش فاستأذن كوهرائين في العود إلى بلده بدعوى أن الأحوال قد اختلت، فأذن له!..

واتفق الآخرون على أن يصدروا عن رأي واحد لا يختلفون... ولما كانت الدنيا قد أخذت تقبل على السلطان بركيارُق، فقد كان رأيهم الواحد الذي لم يختلفوا فيه: أن كتبوا إلى بركيارُق يقولون له: أخرج إلينا، ما فينا من يقاتلك!.

فسار بركيارُق إليهم، فترجلوا وقبلوا الأرض وعادوا معه إلى بغداد!.

هذا السلطان وهؤلاء الأمراء، لم يذكر منهم ذاكر القدس وأفاعيل الصليبيين فيها، ولم يكن في خواطرهم التفكير في إنقاذها!.

لقد اجتمعوا من كل مكان، وما من مكان جاءوا منه إلا وفيه المقاتلة الأشداء، لقد

---

(١) م.ن. ج١٠، ص٣٠٤.

استغلوا هؤلاء المقاتلة لتوطيد سلطانهم وإحكام أمرهم، وجرّدوا السيوف بعضهم على بعض، لا على أعداء الإسلام: فاتحي القدس، وذابحي المسلمين فيه.

وبغداد هذه التي عادوا إليها مجتمعين، ليوطدوا فيها سلطان بركيارُق بعد أن كانوا قد وطدوا فيها من قبل سلطان عدوه محمد بن ملكشاه.. بغداد التي لم تثرهم فيها استغاثة المستغيثين بهم لإنقاذ القدس، بغداد التي شهدت القادمين من الشام يبكون العيون ويوجعون القلوب بذكر ما دهم المسلمين بذلك البلد الشريف المعظم من قتل الرجال، وسبي الحريم والأولاد، ونهب الأموال.

بغداد التي شهدت كل ذلك، وشهدتهم معرضين عن الإغاثة، متجافين عن المعونة فلم تبك عيونهم، ولم تتوجع قلوبهم، ولم تتحرك سيوفهم، بل أعرضوا عن الصوت المستغيث!..

بغداد تشهدهم اليوم متجمهرين فيها حول سلطانهم القديم الجديد بسيوف مشهورة، وألوية منشورة، ونفوس مسرورة!.

أما بركيارُق هذا، الذي اكتفى عند الاستنجاد به لإنقاذ مسلمي بلاد الشام من مذابح الصليبيين، وتخليص القدس من براثنهم، اكتفى بانتداب من خانوا الأمانة وعلى رأسهم كربوقا، ولم تحفزه النخوة على أن يسير على رأس جموعه الغفيرة لجهاد الصليبيين.

أما بركيارُق هذا فهو يدخل بغداد اليوم ظافراً، مزهواً بترديد اسمه في الخطب على منابرها، غير متذكر أن الصليبيين دخلوا القدس ظافرين، مزهوين بترديد شعاراتهم على منبر المسجد الأقصى ومحاريب بيت المقدس..

وعوضاً عن أن يتوجه بجموعه إليهم، قاد تلك الجموع لقتال أخيه محمد، وكان أخوه مستعداً هو الآخر للقتال، وبدلاً من أن يمحو كل من الأخوين ما في قلبه من ضغائن على الآخر، ويملأ قلبيهما بالضغائن على الصليبيين الذين أجروا سيول الدماء في رحاب أولى القبلتين ـ عوضاً عن ذلك صمما على أن يتقاتلا ويتركا الصليبيين في القدس آمنين مطمئنين، متحفزين للانطلاق إلى كل مكان إسلامي.

ويصف ابن الأثير القتال بين الأخوين بهذا الوصف[1]:

---

(١) ج١٠، ص٢٩٥.

«كان مع محمد نحو عشرين ألف مقاتل، وكان محمد في القلب ومعه الأمير سرمز، وعلى ميمنته أمير آخرُ، وابنه أياز، وعلى ميسرته مؤيد الملك والنظامية.

وكان السلطان بركيارُق في القلب، ووزيره الأعز أبو المحاسن، وعلى ميمنته كوهرائين، وعز الدولة بن صدقة بن مزيد، وسُرخاب بن بدر، وعلى ميسرته كربوقا وغيره. فحمل كرهرائين من ميمنة بركيارُق على ميسرة محمد، وبها مؤيد الملك والنظامية، فانهزموا ودخل عسكر بركيارُق، في خيامهم فنهبوهم. وحملت ميمنة محمد على ميسرة بركيارُق فانهزمت الميسرة، وانضافت ميمنة محمد إليه في القلب على بركيارُق ومن معه، فانهزم بركيارُق، ووقف محمد مكانه، وعاد كوهرائين من طلب المنهزمين الذين انهزموا بين يديه، وكبا به فرسه فأتاه خراساني فقتله، وأخذ رأسه، وتفرقت عساكر بركيارُق، وبقي في خمسين فارساً».

وعادت الخطبة للسلطان محمد ببغداد

إذا كان بقيادة محمد بن ملكشاه عشرون ألف مقاتل، فلا شك أن بقيادة أخيه بركيارُق ما لا يقل عن هذا العدد إن لم يزد عليه، فهذه أربعون ألف مقاتل كان على السلاجقة أن يسيروا بها لقتال الصليبيين، وصدهم عن التمدد في البلاد الإسلامية، وكانوا مستطيعين أن يضيفوا إليها أمثالها، لو استجاشوا الناس واستنفروا الرجال من أقصى خراسان إلى أقصى الشام، لقتال الصليبيين. ولكن قتال الصليبيين لم يكن يعنيهم، وإنما كان الذي يعنيهم هو الاقتتال فيما بينهم، وسفك دماء المسلمين في سبيل مطامعهم الشخصية.

على أن بركيارُق لم ييأس فاتجه إلى (الري) ثم إلى نيسابور، ووجد من يحالفه على قتال أخيه الآخر (سنجر) في معركة طاحنة انهزم فيها بركيارُق.

وعاد فاستطاع جمع جيش مكون من خمسين ألف مقاتل، تقابل به مع جيش أخيه السلطان محمد المكون من خمسة عشر ألفاً، فانتصر هذه المرة بركيارُق بجيشه الأكثر عدداً على جيش أخيه الأقل عدداً[1].

ولا بد من أن نشير هنا إلى أن عبيد الله مؤيد الملك بن نظام الملك كان في صف السلطان محمد، فأسر في هذه المعركة، فقتله بركيارُق بيده بعد أن سبّه وأهانه، وبقي ملقى على الأرض عدة أيام إلى أن أذن بركيارُق بدفنه، فحمل إلى تربة أبيه بأصبهان فدفن فيها.

(١) ابن الأثير، ج١٠، ص٣٠٤.

هكذا كان يموت هؤلاء الناس هذه الميتات الذليلة، بدل أن يموتوا في ساحات الشرف أعزاء في قتال الأعداء.

وهكذا يتبين أن بركيارُق الذي استطاع بعد هزائمه المتتابعة أن يجمع جيشاً مؤلفاً من خمسين ألف مقاتل، فيقاتل به أخاه في سبيل الملك، كان يستطيع جمع أضعاف هذا الجيش ليقاتل به الصليبيين. ومضى بركيارُق بعد هذا النصر إلى (الري) فوافاه إليها فيمن وافاه (كربوقا) صاحب الموصل.

إن كربوقا هذا المسؤول الأول عن هزيمة المسلمين في أنطاكية، والذي كانت الحروب الصليبية ستنتهي عند أنطاكية لولا ما جناه هو ومن معه من القواد، والأمراء، والجمهور، من جنايات الأنانية، والخيانة. إن كربوقا هذا قد عاد، بعد أن جنى ما جنى إلى إمارته في الموصل، وكأن شيئاً لم يحدث، وكأنه لم يكن هو ومن معه السبب، فيما جرّته الحروب الصليبية على المسلمين.

وها هو يظهر دائماً في الأحداث، مشاركاً فيها مع هذا الجانب، أو ذاك الجانب، وقد رأيناه من قبل ينضم إلى جانب السلطان محمد على أخيه بركيارُق، وها هو الآن ينضم إلى بركيارُق.

إن الذي لم يبال أن يكون هو وأعوانه السبب في نكبة العالم الإسلامي، يعود بعد أن فعل ما فعل عند أنطاكية، يعود أميراً مزهواً، هل يبالي بأن يتلون كل يوم بلون، وأن ينصر هذا السلطان اليوم، ثم يعود فيخذله منضماً إلى عدوه؟!.

إنه على خطى بركيارُق، وغير بركيارُق من أولئك السلاجقة الذين يرون تهدم العالم الإسلامي بالأيدي الصليبية، فيشاركون في التهديم بخياناتهم، وأنانياتهم، وسفك دماء المسلمين فيما بينهم، بدل أن تسفك في جهاد الصليبيين.

على أنهم بلغوا أحط دركات النذالة في أخلاقهم الشخصية، فمحمد بن ملكشاه يقبض على زوجة أبيه وأم أخيه زبيدة خاتون فيهينها ويسجنها ثم يقتلها خنقاً. وبركيارُق يقبض على زوجة أبيه ووالدة أخويه محمد وسنجر ويبادل بها الأسرى مع أخيه سنجر.

ومَن هذه صفاتهم الشخصية التي لا يبالون معها أن يهتكوا نساء آبائهم وإخوتهم، أيطلب منهم أن يحافظوا على شرف الإسلام وعزة المسلمين؟!.

مضى محمد بعد هزيمته إلى جرجان مستنجداً بأخيه سنجر ـ وهما لأم واحدة ـ وكان لم يبق مع محمد سوى ٣٠٠ فارس فوافاه أخوه سنجر من خراسان في عساكره.

يقول ابن الأثير[1]:

سارا من جرجان إلى دامغان فخربها العسكر الخراساني (عسكر سنجر) ومضى أهلها هاربين إلى قلعة كردكوه، وخرّبَ العسكر ما قدروا عليه من البلاد، وعم الغلاء بتلك الأصقاع حتى أكل الناس الميتة والكلاب، وأكل الناس بعضهم بعضاً. وسارا إلى الريّ، فلما وصلا إليها انضم إليهما النظامية وغيرهم فكثر جمعهما وعظمت شوكتهما وتمكنت من القلوب هيبتهما (انتهى).

كان الصليبيون يفتكون بغرب العالم الإسلامي، وفي الوقت نفسه كان السلاجقة يفتكون بشرق هذا العالم. وليتهم حين لم يهبوا لإنقاذ ذلك الغرب كفوا شرورهم عن ذاك الشرق.

في الأيام التي كان فيها الصليبيون يخربون طرابلس وصيدا وصور ويشردون أهلها وأهل غيرها من مدن وقرى بلاد الشام، كان السلاجقة يخربون (دامغان)، ويخربون ما قدروا عليه من البلاد، وإذا كان ابن الأثير قد اكتفى بذكر مدينة دامغان فإن قوله: خربوا ما قدروا عليه من البلاد كافٍ للدلالة على عظم التخريب، لأنّ ما قدروا عليه كان كبيراً.

وإذا كان الصليبيون قد بلغوا بالمذابح أقصى مداها في القدس، فلا شك أن المذابح قد بلغت حداً بعيداً في دامغان وغير دامغان مما سيطر عليه السلاجقة. والدليل على ذلك ما ذكره ابن الأثير من فرار من سلم إلى القلاع المنيعة.

ومهما يكن من أمر فلم يبلغنا أن المسلمين في السيطرة الصليبية قد أكلوا الميتة والكلاب، وأكلوا بعضهم بعضاً. ولكن ذلك جرى على المسلمين في السيطرة السلجوقية المزامنة للسيطرة الصليبية.

الأحداث التي تحدثنا عنها فيما تقدم من القول والتي جرت في السيطرة السلجوقية على شرق العالم الإسلامي جرت سنة ٤٩٤ هجرية.

فلنر ماذا كان يجري في السنة نفسها على غرب العالم الإسلامي: في سنة ٤٩٤ التي كان الملكان السلجوقيان الأخوان المسلمان يدخلان بعسكرهما مدينة دامغان فيخربانها ويشردان أهلها فيهيمون على وجوههم، ثم يخربون كل ما قدروا على تخريبه من البلاد، ثم يضطر المسلمون إلى أكل الميتة والكلاب وأكل بعضهم بعضاً.

في تلك السنة (٤٩٤) كان الصليبيون يتقدمون فيحتلون مدينة سَروج من بلاد الجزيرة

---

(١) ج١٠، ص٣٠٥ ـ ٣٠٦.

ويقتلون كثيراً من أهلها ويسبون حريمهم وينهبون أموالهم، ولم يسلم إلا من مضى منهزماً[1].

دامغان في شرق العالم الإسلامي، وسَروج في غرب هذا العالم: مصير واحد لقياه في زمن واحد.. مصير مأساوي فاجع..

القوى التي دخلت دامغان وامتدت منها إلى ما استطاعت الامتداد إليه من بلاد.. هذه القوى لم تكن وظيفتها احتلال دامغان وتخريبها وتشريد أهلها، كانت وظيفتها الدفاع عن سروج وحمايتها من التخريب وحماية أهلها من القتل والسبي والنهب.

لم يكن مكان محمد بن ملكشاه ومكان أخيه سنجر في دامغان، بل كان مكانهما في سروج.

في السنة نفسها التي كان ينطلق فيها ابنا ملكشاه السلجوقي سنة ٤٩٤ ـ ينطلقان من دامغان حتى يبلغا (الري) كان الصليبيون ينطلقون فيبلغون مدينة حيفا فيملكونها عنوة... ويظلون في انطلاقهم فيملكون مدينة (أرسوف) بالأمان ويخرجون أهلها منها... وينطلقون فيملكون مدينة (قيسارية) بالسيف ويقتلون أهلها وينهبون ما فيها...

حملتان على العالم الإسلامي في سنة واحدة، حملة شرقية وحملة غربية، حملتان توحدتا في الهدف: تخريب المدن وذبح أهلها وسبيهم ونهبهم!.

حملتان توحدتا في الهدف، وكان من حق الإسلام أن تتناقضا، كان من حق الإسلام أن لا يكون ميدان إحداهما في الشرق وميدان الأخرى في الغرب، بل أن تلتقيا معاً في الغرب، أن تلتقيا متصادمتين تصادماً دموياً يرد الغربية إلى غربها البعيد الذي قدمت منه!..

لم تنته الحرب بين السلاجقة فالنصر الذي أحرزه بركيارُق لم تدم نتائجه طويلاً. لقد كان من نتائج هذا النصر أن أقبل الناس على بركيارُق فاستطاع أن يجمع جيشاً مكوناً من مئة ألف مقاتل!.

وهنا نعود إلى ما قلنا من قبل من أن استصراخ العالم الإسلامي كان ممكناً، وأن تأليف جيش قوي كبير يضم مئات الألوف يزحف للقضاء على الصليبيين كان مستطاعاً لو كان هؤلاء القادة مخلصين للإسلام مهتمين بحاضر المسلمين ومستقبلهم.

فإذا كان بركيارُق قد جمع حوله مئة ألف مقاتل، من أجل هدف تافه لا يعدو أطماع

---

(١) الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٣٢٤ ـ ٣٢٥.

الدنيا، فإنه مستطيع أن يجمع أضعاف هذا العدد من أجل هدف سام، لو كانت له أهداف سامية! . وما أبعد هؤلاء عن الأهداف السامية! .

على أن بركيارُق بعد أن تحقق له النصر لم يفكر بعيداً، ولم يعد لهذا الجيش ما يكفل له دوام التجمع، والواقع هو أن مثل هذا الجيش كان يجب أن يكون له هدف واضح كبير يكفل استمرار بقائه، ولكن لا السلطان كان يملك هذا الهدف، ولا من هم حول السلطان كانوا يملكونه.

ففوجئوا أول ما فوجئوا بفقدان الميرة، فلم يحاولوا تلافي أمر فقدانها، لفقدان الهدف، لذلك أخذوا يتفرقون فعاد دبيس بن صدقة إلى أبيه في الحلة.

وقامت ثورة على السلطان بركيارُق بقيادة الملك مودود بن إسماعيل بن ياقوتي بأذربيجان، فسيّر إليه كربوقا في عشرة آلاف فارس.

دائماً هذا الإسم الكريه كربوقا أمامنا، ودائماً هو في صميم الأحداث، لا يلويه عنها الخزي الذي لحق به في أنطاكية، ولا العار الذي جلله بفتحه باب بلاد الشام أمام الصليبيين ليلجوا منه إلى فتح القدس.

واستأذن الأمير (إياز) في أن يقصد داره بهمذان يصوم بها شهر رمضان ويعود بعد الفطر فأذن له، وتفرقت العساكر لمثل ذلك، وبقي بركيارُق في العدد القليل(١).

على أن بركيارُق فوجيء بأن أخويه محمد وسنجر قد جمعا الجموع، وحشدا الجنود، وأنهما لما بلغهما تفرق ما كان لديه من جيوش جدّا في السير إليه، مسرعين في طي المراحل مرحلة بعد مرحلة، عازمين على مباغتته قبل أن يستطيع تجميع من كانوا مجتمعين حوله. ولما أصبحا غير بعيدين عنه صمم على اللحاق بإياز في همذان.

ولكن الناس هم الناس. . . فلما لاح للناس أن الدنيا قد بدأت تدبر عنه، طمع فيه من كان يهابه وأيس منه من كان يرجوه، كما قال ابن الأثير.

وكان في أول المنقلبين عليه إياز نفسه، فقد بلغه وهو في الطريق إليه أن إيازاً قد بعث إلى السلطان محمد لينضم إليه. لذلك حول بركيارُق وجهة سيره عن همذان إلى خوزستان فكتب وهو في الطريق إلى بني برسق يطلب إليهم الوصول إليه. وكان هؤلاء قد بلغهم امتناع إياز عليه، كما بلغهم تعاظم قوة محمد فرفضوا الاستجابة.. لذلك اضطر للتوجه إلى

(١) الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٣٠٦.

العراق، وفي طريقه إلى العراق وعند وصوله إلى حلوان فوجيء بتطور لم يكن ينتظره، ذلك أن إياز قد بعث إليه أن يتوقف عن السير إلى العراق وأن ينتظره لأنه سائر إليه.

ولم يكن ذلك كرم أخلاق من إياز، بل كان حلقة من سلسلة الانتهازية والتذبذب والوصولية، فإن محمد بن ملكشاه قد رفض قبول إياز بعد أن صار مستغنياً عنه بما أصبح يملك من قوة واقتدار، وأكثر من ذلك فقد وجه حملة إلى همذان مما اضطر إياز إلى الفرار عنها متخلياً عن ذخائره فيها من مال وكراع ودواب، ما كان شيئاً كثيراً وقع كلُّه غنيمة في يدي محمد.

والتقى بركيارُق بإياز فكان كل ما بقي لهما من الجند معاً خمسة آلاف فارس.

وقد كان جديراً ببركيارُق أن لا يقبل إيازاً بعد ما بدا له من خيانته، ولكنه كان بحاجة لأي رجل ولأن المحنة وحدت بينهما.

ولم يكن أمام الرجلين سوى مواصلة السير إلى العراق حيث وصلا بغداد بعد أن كان الخليفة قد أرسل موكباً لاستقبال بركيارُق، على أن بركيارُق باعتباره السلطان الشرعي كان يعوزه المال للإنفاق على نفسه وعلى عساكره فأرسل إلى الخليفة طالباً إنجاده بالمال، وبعد المداولات والمراجعات تقرر أن يصرف له خمسين ألف دينار.

ولم يكن ذلك كافياً فامتدت أيدي بركيارُق وأصحابه إلى أموال الناس، ولم يتورعوا في ذلك عن أي شيء حتى ضج الناس وتمنوا زوالهم.

على أن من أفظع ما فعلوه هو استصفاؤهم أموال قاضي جبلة أبي محمد عبد الله بن منصور المعروف بابن صلحية، فقد كان لهذا الرجل نكايات في الصليبيين أقضّت مضاجعهم، ثم أدرك أنهم لن يتركوه بعد أن فعل بهم ما فعل فرحل بأهله وماله إلى العراق لائذاً به، فلما وصل مدينة الأنبار ترك أمواله فيها وجاء بغداد ليقرر كيف يستقر.

ولما عرف بركيارُق بوصوله أرسل إليه أنه بحاجة إلى ثلاثين ألف دينار فاستجاب الرجل لذلك وقال إن أمواله في الأنبار بالدار التي نزلها، فلما عرفوا ذلك أرسلوا إلى الأنبار من استولى على كل ما يملك الرجل من مال.

التلاقي في بغداد

واصل السلطان محمد وأخوه سنجر سيرهما إلى بغداد بعد أن استولى محمد على همذان وغير همذان، وكان قد استطاع أن يجمع جيشاً يزيد على عشرة آلاف فارس، كان

عدته في الزحف إلى بغداد. وكان بركيارُق في بغداد مريضاً يتوقع أصحابه موته في كل ساعة.

وكانت أخبار تقدم محمد إلى بغداد تصلهم. يقول ابن الأثير: «فماج أصحابه وخافوا واضطربوا وحاروا، وعبروا به في محفّة إلى الجانب الغربي فنزلوا بالرملة[1] ولم يبق في بركيارُق غير روح يتردد وتيقن أصحابه موته وتشاوروا في كفنه وموضع دفنه».

ويتابع ابن الأثير كلامه قائلاً: «فبينما هم كذلك إذ قال لهم: إني أجد نفسي قد قويت وحركتي قد تزايدت، فطابت نفوسهم وساروا، وقد وصل العسكر الآخر، فتراءى الجمعان بينهما دجلة وجرى بينهما مراماة وسباب، ونهبوا البلاد في طريقهم إلى أن وصلوا إلى واسط»[2].

إذن فإن محمد قد دخل بغداد دون أن يلقى مقاومة، فمرض بركيارُق، قد شغله وشغل أصحابه عن التفكير في الدفاع، وكان همهم النجاة بأنفسهم.

وكان من الطبيعي أن يضطربوا ويخافوا ويحاروا، فموت بركيارُق سيجعلهم وجهاً لوجه أمام انتقام محمد، ومع ذلك فقد تماسكوا وحملوا سلطانهم في محفة عابرين به دجلة من جانب بغداد الشرقي إلى جانبها الغربي، لأن وصول محمد إلى بغداد سيكون في الجانب الشرقي وبذلك يكون دجلة حاجزاً بينهم وبين جيوش محمد.

على أننا لا بد لنا من أن نتساءل عن حقيقة هؤلاء الأصحاب، حقيقتهم العددية، وحقيقتهم العسكرية، وحقيقتهم الخلقية. ونعني بالحقيقة الخلقية هنا: ما إذا كان ثباتهم مع بركيارُق بعد أن صار إلى ما صار إليه من الوهن: الوهن الجسدي والوهن العسكري، هو وفاء منهم للرجل الذي كان بالأمس سلطانهم القوي الراتعين في ظله في خفض من العيش ودعة ونفوذ سلطان، أم أن ذلك خوف من المصير المجهول الذي ينتظرهم من العدو المنتصر، خوف يدعوهم إلى التماسك لمواجهة الخطر الداهم؟!.

ثم ما هي حقيقتهم العددية الموصلة إلى حقيقتهم العسكرية؟

إن ابن الأثير يقول: «وساروا وقد وصل العسكر الآخر، فتراءى الجمعان بينهما دجلة، وجرى بينهما مراماة وسباب، ونهبوا البلاد في طريقهم إلى أن وصلوا إلى واسط».

---

(١) في معجم البلدان: الرملة: محلة خربت نحو شاطىء دجلة مقابل الكرخ ببغداد.
(٢) الكامل ج١٠، ص٣٠٩.

وهذا يدل على أن بقايا جيش كان لا يزال يحيط ببركيارُق، بقايا جيش ليس مؤهلاً للصدام بجيش محمد، وكل ما استطاعته هذه البقايا هو أن ترامي أعداءها بالنبل من وراء نهر دجلة وأن تتبادل وإياها السباب.

ومن فجائع هؤلاء الحكام المتنازعين على التحكم بالشعوب أنهم يستحلون نهب تلك الشعوب، فهؤلاء جماعة بركيارُق نهبوا البلاد التي مروا فيها، من بغداد إلى واسط.

والخليفة المستظهر بالله ـ وقد أيقن برحيل بركيارُق، بل ربما كان متوقعاً موته ـ أسرع فأرسل إلى محمد توقيعاً يتضمن الامتعاض من سوء سيرة بركيارُق ومن معه والاستبشار بقدومه!..

ويقول ابن الأثير: وخرج الخلق كلهم إلى لقائه!.

على أن إقامة محمد وأخيه سنجر لم تمتد في بغداد أكثر من حوالي شهرين قصدا بعدها العودة إلى موقعيهما: محمد إلى همذان، وسنجر إلى خراسان.

وإذا كان جماعة بركيارُق قد نهبوا البلاد من بغداد إلى واسط، ثم نهبوا واسط نفسها كما سيأتي، فإن جيش محمد الذاهب إلى همذان لم يقصر هو الآخر في النهب، فيقول ابن الأثير عنهم: فنهبوا البلاد وخرّبوها!..

بركيارُق من جديد

يبدو أن مماشاة الخليفة لمحمد وطعنه ببركيارُق قد بلغت بركيارُق فاعترض المنتمين إلى الخليفة في واسط وأسمعهم من القول في الخليفة ما قال ابن الأثير: إنه يقبح نقله، وبلغ ذلك الخليفة فأرسل يطلب إلى محمد العودة إلى بغداد فعاد، وإذا كان ابن الأثير يقول إن الخليفة عزم على الحركة مع محمد لقتال بركيارُق، فلنا أن نقول: إن استدعاء الخليفة لمحمد لم يكن في الأصل للانضمام إليه في مهاجمة محمد، بل خوفاً من أن يستفرد بركيارُق الخليفة فينقضّ عليه في بغداد.

على أن محمداً طمأن الخليفة بأنه يستطيع وحده تأديب بركيارُق ولا حاجة لمسير الخليفة معه، وبالفعل ترك محمد بغداد معاوداً السير إلى مقصده.

أما بركيارُق الذي وصل إلى واسط مريضاً، فإن وصوله إليها أرعب عسكر واسط، كما أرعب أهلها، لأن الجميع لا يدرون أي موقف يتخذونه منه، فإذا والوه فربما غلب محمد على الأمر فانتقم منهم، وإذا قاوموه، فهو مقيم فيهم يستطيع أذيتهم، لذلك ارتأوا حلاً

وسطاً، لا هو موالاة، ولا هو معاداة. بل هو موقف سلبي إذا كان أقرب إلى عدم الموالاة فهو ليس صريح المعاداة.

أما العسكر فقد أخذوا نساءهم وأولادهم وأموالهم وانحدروا إلى الزبيدية[1] وأقاموا هناك.

وأما الأهلون فقد لزموا أول الأمر بيوتهم، فلم يكن يرى في الطرق والأسواق أحد منهم، ولكنهم لم يسلموا، فإن عسكر بركيارُق نهب البلد.

وهكذا نرى أن لا صلة تربط بين هؤلاء الحكام وبين الشعب، وأن لا ولاء لهم في قلوب أبنائه، ولا محبة تربطهم به، فإذا قوي أمر أحدهم انصاع الناس له مدّاحين، وإذا ضعف انقلبوا عليه ناكثين.

وهكذا فبعد أن شفي بركيارُق من مرضه وبدا أنه قد استقر في واسط، بعث إليه العسكر من الزبيدية يطلبون الأمان ليحضروا إليه، فأمنهم وجاءوا فاستقوى بهم، ثم عضدوه في السير معه إلى بني برسق الذين لم يلبثوا أن قدموا إليه، وهكذا أخذ يتقوى شيئاً فشيئاً حتى صارت له قوة عسكرية مرموقة، فرأى عند ذلك أن يهب لمطاردة أخيه محمد، فالتقيا ومحمد في طريقه إلى نهاوند، وكانا في قوتين متساويتين، هي أربعة آلاف فارس لدى كل واحد منهما.

ولما كادت القوتان تتصادمان، التقى بعض مقدمي القوتين وتذاكروا في أمر الصلح بين الأخوين بعد أن رأوا ما آل إليه أمر الناس من البلاء للنزاع بينهما.

ولم يكن أبلغ في التعبير عن نفور الشعب مما يجري واعتقاد الناس أنهم إخوان يحملهم حكامهم على التذابح، من أنه حين التّصافّ بين الفريقين وخروج مبارز من أحد الصفين، وخروج مبارز له من الصف الآخر، كانا بمجرد أن تقع عين أحدهما على الآخر يعتنق كل واحد منهما مبارزه ويسلم عليه، ثم يعود عنه.

وانتهى أمر مفاوضات الصلح إلى أن يتقاسما اللقب، فيكون لقب بركيارُق: (السلطان) ولقب محمد: (الملك)، على أن يكون له جنزة[2] وأعمالها، وأذربيجان، وديار بكر، والجزيرة، والموصل ومضى كل منهما إلى مقره.

ثم عاد محمد فاقتنع أنه مغبون في هذه المصالحة، وأن الأمراء خامروا عليه فعاد الأمر إلى ما كان عليه من التنازع في تفاصيل مهلكة دامية نتجاوز ذكرها.

---

(١) **الزبيدية**: قرية قرب واسط، بينهما نحو فرسخين أو ثلاثة.

(٢) هي بين شووان وآذربيجان وهي التي عرفت باسم كنجه.



في الجانب الآخر من الوطن الإسلامي

في الوقت الذي كان فيه هؤلاء السلاجقة يتناحرون في المشرق الإسلامي وينحرون الشعب معهم ويبهضونه بما لا يطيق حمله، في الوقت الذي كان فيه بركيارُق مثلاً يحاصر أخاه محمداً في أصفهان ويضيق عليها، فَتُعدم فيها الأقوات، ويرغم محمد أعيان البلد على أن يقرضوه، فيأخذ منهم مالاً عظيماً، ثم يعود فيقسط على البلد شيئاً آخر فيأخذه بالشدة والعنف، ثم يضطر للفرار من البلد، فيصبح أمر أصفهان كما وصفه ابن الأثير: «فلما فارق محمد أصبهان اجتمع من المفسدين والسوادية ومن يريد النهب ما يزيد على مئة ألف نفس وزحفوا إلى البلد بالسلالم والدبابات وطموا الخندق بالتبن والتصقوا بالسور، وصعد الناس في السلالم فقاتلهم أهل البلد قتال من يريد أن يحمي حريمه وماله فعادوا خائبين».

وفي الوقت الذي كان الوالي السلجوقي إسماعيل بن سلانجق يقتل من أهل مدينة (الري) مقتلة عظيمة، ويرسل من شعورهم إلى سلطانه بركيارُق ما عمل منه مقاود وشكلات للدواب(١).

في هذا الوقت بالذات وفي السنة نفسها كان صنجيل الصليبي يحاصر طرابلس ويرغم أهلها على أن يدفعوا إليه مالاً وخيلاً ويتقدم منها إلى مدينة (انطرسوس) فيحصرها ويفتحها ويقتل من بها من المسلمين، ثم يسير إلى حمص فينازلها ويحصر أهلها ويملك أعمالها. وكان القمص ينازل عكا ويضيق عليها، وكان الصليبي صاحب الرها يسير إلى بيروت ويحصرها ويضايقها.

(١) ابن الأثير، ج١٠، ص٣٣٨.

ومن بين هذه الظلمات تتوقد شعلة في مصر فتخرج عساكرها إلى عسقلان ليمنعوا الفرنج عما بقي في أيديهم من البلاد الشامية على حد تعبير ابن الأثير، فيسمع بهم بردويل صاحب القدس فيسير إليهم فيقاتلهم فينصر الله المسلمين وينهزم الفرنج ويكثر القتل فيهم، وينهزم بردويل ويختفي في أجمة قصب، فيحرق القاهريون تلك الأجمة وتلحق النار بعض جسد بردويل، وينجو منها إلى الرملة فيتبعه القاهريون ويحيطون به فيتنكر ويخرج منها إلى يافا، ويكثر القتل والأسر في أصحابه[1].

وبركيارُق الذي أوفد كربوقا إلى أنطاكية فكان من أنانيته وحبه لذاته وخيانة جيشه أن فر منهزماً تاركاً باب العالم الإسلامي مفتوحاً بلا حارس أمام الصليبيين، كربوقا هذا كان بركيارُق نفسه يرسله هذه المرة إلى آذربايجان فيستولي على أكثرها، ثم يمرض بها ويموت...

وباغي سيان حاكم أنطاكية الذي لم يكد يسمع صوت بوق الصليبيين حتى فرّ هارباً تاركاً أسرته عرضة للسبي، باغي سيان هذا الذي لم يكن فيه ذرة من النخوة والحمية تحملانه على أن يستميت دفاعاً عن شرف أسرته، بل تركها تسبى بأيدي الفرنج، استطاع الدانشمند في هذا الوقت أن يجعل من شروط إطلاق بيمند من الأسر إطلاق ابنة باغي سيان من السبي.

في هذا الوقت الذي كان يتناحر فيه السلاجقة في بغداد وراء بغداد وصولاً إلى أبعد مكان، وكانت البلاد في تجاذب بينهم يسفكون فيها الدماء وينهبون الأموال ويذلون الناس. كان أمر الصليبيين قد استقر في القدس ويافا وارسوف وقيسارية وحيفا وطبرية، وفي فلسطين كلها ما عدا عسقلان، وفي اللاذقية وأنطاكية. ومن الجزيرة: استقر أمرهم في الرها وسروج.

وكان صنجيل يحاصر طرابلس، وفيها فخر الملك بن عمار يقود الدفاع عنها ويرسل أصحابه في المراكب يغيرون على البلاد التي بيد الفرنج ويقتلون من وجدوا، وقصد بذلك أن يخلو السواد ممن يزرع لتقل المواد من الفرنج فيرحلوا عنه[2].

ونذكر هنا ـ للاعتبار ـ حادثة تدل على حقيقة هؤلاء السلاجقة، فإن أحدهم بلك بن بهرام بن أرتق كانت له مدينة سروج فأخذها منه الصليبيون، فبدلاً من أن يعمل لاستردادها منهم، توجه إلى مدينة عانة الإسلامية فملكها ونهبها وسبى جميع نسائها!.

ثم كان الصليبيون يمتدون فيحتلون جبيل، ثم عكا.

---

(١) ابن الأثير، ج١٠، ص٣٤٥ ـ ٣٤٦.

(٢) ابن الأثير، ج١٠، ص٣٦٥ ـ ٣٦٦.

نقطة بيضاء

نحن لا نبخس الناس أشياءهم فإذا سجلنا تلك الصفحات السود فإننا حين نرى نقطة بيضاء نسرع إلى تسجيلها وننصف أصحابها فمن ذلك الهوان الذي ارتمى فيه السلاجقة أمام الصليبيين يطل اثنان بنخوة إسلامية وحمية فائقة، اثنان كان بينهما ثارات وفي قلبيهما أحقاد، وكان كل منهما يستعد للقاء صاحبه، هذان الاثنان هما: معين الدولة سُقمان، وشمس الدولة جكرمش، وفيما كل منهما يتهيأ للانقضاض على صاحبه، تذكرا ما عليه المسلمون من الذل وما أحاق بديارهم من الاغتصاب والانتهاب والانتهاك، فنسيا ذحولهما، وأرسل كل منهما إلى صاحبه عارضاً عليه أن يلتقيا، ويعلمه أنه قد بذل نفسه لله تعالى وثوابه، فاستجاب كل منهما لطلب صاحبه، فاجتمعا على (الخابور) وتحالفا وسارا إلى لقاء الصليبيين.

وكان مع سُقمان سبعة آلاف فارس من التركمان، ومع جكرمش ثلاثة آلاف فارس من الترك والعرب والأكراد، فالتقوا مع الصليبيين على نهر البليخ فكان النصر لسقمان وجكرمش، فقتلوا من الصليبيين، وأسروا، وفاضت الغنائم، وكان بين الأسرى القُمّص بردويل صاحب الرها، وكانت معظم الغنائم في أيدي جماعة سقمان، وكذلك كانوا هم الذين أسروا القمص، وكادت الفتنة أن تقع لأن أصحاب جكرمش أخذوا القمص من خيام سقمان.

وركب أصحاب سقمان للقتال فردهم، وقال لهم: لا يقوم فرح المسلمين في هذه الغزاة بغمّهم باختلافنا، ولا أوثر شفاء غيظي بشماتة الأعداء بالمسلمين[1].

وفي المقابل فإنه حين توفي الملك دقاق بن تتش بن ألب أرسلان صاحب دمشق اختلف الورثة بين ولد له صغير، وبين عمه بكتاش بن تتش، وانضم إلى تتش الأمير أيتكين صاحب بصرى، وخرج هذان الاثنان إلى حوران، ولحق بهما كل من يريد الفساد، وراسلا بغدوين ملك الصليبيين يستنجدانه، فأجابهما إلى ذلك وسار إليهما فاجتمعا به واتفقا معه.

والسلاجقة الذين تخلوا عن البلاد للصليبيين، لم يتخلوا عن البلاد لأهل البلاد، والسلاجقة الذين عاش الصليبيون في جوارهم بأمان واطمئنان، لم يمنحوا هذا الأمان وهذا الاطمئنان لمواطنيهم، ففي عنفوان ذاك المد الصليبي المتدافع دفعه كان الأمير (بزغش) قائد عساكر السلطان سنجر، يتقدم لا إلى الوقوف في وجه ذاك المد، ويجمع الجموع لا لقتال

(١) ابن الأثير، ج١٠، ص٣٧٤.

الصليبيين، بل كان يتقدم للقضاء على جمهرة من أبناء البلاد وسكانها، ويجمع الجموع لتخريب البلاد ونهبها وقتل رجالها وسبي نسائها.

وكما قلنا، ونكرر هذا القول: كان الغرب الإسلامي يعاني المحنة على أيدي الصليبيين، وكان الشرق الإسلامي في الوقت نفسه يعاني المحنة نفسها على أيدي السلاجقة.

وأنقل هنا عبارة ابن الأثير نفسها، فابن الأثير يقول: «جمع بزغش كثيراً من عساكر خراسان، وأتاه كثير من المتطوعة، وسار إلى قتال الإسماعيلية (النزارية)، فقصد طَبَس - وهي لهم - فخربها وما جاورها من القلاع والقرى، وأكثر فيها القتل، والنهب، والسبي، وفعل بهم الأفعال العظيمة!»(١).

لم يكن هؤلاء السلاجقة أرحم في الأرض الإسلامية من الصليبيين، وبزغش هذا أين هو عن الصليبيين الطاغين في أرض الإسلام، وهؤلاء المتطوعة أين هم عن التطوع لإنقاذ القدس من براثن مغتصبيها؟!

وابن الأثير يقر بأن الإسماعيليين كانوا مواطنين مسالمين ككل المواطنين، فهو لم يشر إلى هفوة أو كلمة أو حركة لهم يستحقون معها ذرة مما ارتكبه فيهم القائد السلجوقي حليف الصليبيين وإن لم يحالفهم، لأن من يسالمهم وينكل بمواطنيه هو الحليف الطبيعي لهم...

وابن الأثير: هذا المؤرخ المندفع بحميته للبكاء على ما آل إليه أمر المسلمين، والشاكي إلى الله تفرق السلاطين، وانشغالهم عن حماية الإسلام والمسلمين.

ابن الأثير يعلق على ما حدث قائلا(٢):

«ثم إن بزغش، بعد عوده من هذه الغزاة، توفي، وكانت خاتمة أمره: الجهاد، رحمه الله».

تخريب المدن والقرى في بلاد الإسلام وقتل رجالها وسبي نسائها ونهب أموالها، يعده ابن الأثير غزاة ويعتبره جهاداً، ويدعو الله لمرتكب ذلك بالرحمة!.

وتدخل سنة ٤٩٨هـ وفيها يموت السلطان بركيارُق بعد أن أوصى بولاية العهد لولده ملكشاه ذي الأربع سنين وثمانية أشهر من عمره. وكانت وفاته في بروجرد وهو في طريقه من أصفهان إلى بغداد، فلما أيقن بالموت أحضر جماعة الأمراء وأوصاهم بولده وأمرهم بمتابعة

(١) ابن الأثير، ج١٠، ص٣٧٨.
(٢) ابن الأثير، ج١٠، ص٣٧٩.

السير إلى بغداد، وبقي هو في بروجرد على أمل العودة إلى أصفهان فمات دون تحقيق ذلك، ولكن جثته حملت إلى أصفهان فدفنت فيها.

مات بركيارُق وهو في الخامسة والعشرين من عمره بعد أن ملك اثنتي عشرة سنة كانت حافلة بالأحداث التي شهدنا بعضها فيما مر من القول.

وخطب لملكشاه الثاني الطفل على منابر بغداد، ولكن الشقاق لم يكن قد انتهى فهذا محمد بن ملكشاه أخو بركيارُق الذي مر اسمه معنا كثيراً يهاجم الموصل ليقضي فيها على (جكرمش) فيكثر القتل في عسكرها، ولما وصل خبر موت بركيارُق إلى جكرمش سلم الأمر إلى محمد.

ثم سار محمد إلى بغداد ومعه جكرمش وغيره من الأمراء يحاول انتزاع ملكها من ابن أخيه، وكان المباشر لأمور السلطان الطفل: الأمير (إياز).

ووصل السلطان محمد إلى بغداد ونزل في الجانب الغربي منها بأعلاها، فخطب له في هذا الجانب من بغداد، ولملكشاه بن بركيارُق في الجانب الشرقي!.

خطبتان تمثلان سلطتين في مدينة واحدة هي عاصمة الخلافة!.

وكان قسم من بغداد لم يدخل في نفوذ إحدى السلطتين وفيه جامع المنصور، فلم يخطب لأحد من السلطانين، بل قال الخطيب عوضاً عن الخطبة لأحدهما: اللهم أصلح سلطان العالم، وسكت.

لنا أن نفسر موقف هذا الخطيب بأحد تفسيرين: إما أن يكون الخطيب مذبذباً انتهازياً لا يدري لمن تكون الغلبة في الغد، فهو لا يريد أن يتورط بإعلان الولاء لأحد المتنازعين. وإما أن يكون مخلصاً ساءه هذا الخلاف، لا سيما في هذه الظروف التي يعاني فيها المسلمون ما يعانون من إذلال الصليبيين لهم، بينما ينشغل حكامهم بأنفسهم وشقاقهم وتقاتلهم فيما بينهم، فأرسلها دعوة صالحة موجزة...

نحن نريد أن نميل إلى الرأي الثاني لأننا نحسن الظن بالأمة، ونوقن أن فيها من كوامن الخير والحمية والنجدة والشهامة ما لو أهيب بها لدفعت شر الصليبيين وعدوانهم.

وبعد أن كاد القتال أن ينشب بين الفريقين المتنازعين سلم (إياز) بالأمر الواقع ومشى للسلطان محمد. وتوالت الأحداث حدثاً بعد حدث، وفيها من التنازع والتقاتل والقتل ما فيها.

ومن أهم ما كان فيها أن الإسماعيليين النزاريين الذين أصيبوا بما أصيبوا به من التخريب والقتل والسبي والنهب، ما مر ذكر بعضه، وجدوا فرصة للانتقام فكانوا في انتقامهم شراً ممن انتقموا منهم، إذ نالوا في انتقامهم من الأبرياء والضعفاء والقريبين والبعيدين، لا سيما قاصدي بيت الله للحج.

وكما نقلنا هناك عبارة ابن الأثير في وصف ما جرى على الإسماعيليين ننقل هنا أيضاً ـ إنصافاً للحقيقة ـ عبارة ابن الأثير فيما أجراه الإسماعيليون. قال ابن الأثير:

«في هذه السنة (٤٩٨) سار جمع كثير من الإسماعيلية من (طُريثيت) عن بعض أعمال بَيْهق، وشاعت الغارة في تلك النواحي وأكثروا القتل في أهلها والنهب لأموالهم والسبي لنسائهم...

وفي هذه السنة اشتد أمرهم، وقويت شوكتهم، ولم يكفوا أيديهم عمن يريدون قتله، لاشتغال السلاطين عنهم. فمن جملة فعلهم: أن قُفُل الحاج تجمّع، هذه السنة، مما وراء النهر، وخراسان، والهند، وغيرها من البلاد، فوصلوا إلى خُوار الرّيّ، فأتاهم الباطنية وقت السَّحَر، فوضعوا فيهم السيف، وقتلوهم كيف شاؤوا وغنموا أموالهم ودوابهم، ولم يتركوا شيئاً»[(١)].

ونحن هنا لا نستطيع أن نتهم ابن الأثير بالمبالغة، لأنه حين تحدث عما جرى على الإسماعيليين وصف الشدة التي نزلت بهم بمثل ما وصف ما أنزلوه هم من الشدة في الحجاج وغيرهم.

ولا يشفع للإسماعيليين أنهم كانوا يثأرون لما نزل بهم ظلماً، وأن قلوبهم كانت تغلي بالحقد على من فعلوا بهم ما فعلوا، فالثأر لا يكون من الحجاج البريئين القادمين من كل مكان، والحقد على الحكام لا يجوز أن يبعث على الانتقام من الشعب.

على أننا ونحن نقول ذلك لا ننسى مسؤولية الحكام عما جرى، هذه المسؤولية التي أوضحها ابن الأثير بقوله: (لاشتغال السلاطين عنهم).

---

(١) ابن الأثير: ج١٠، ص٣٩٢ ـ ٣٩٣.
هذه الأفاعيل بالحجاج كثيراً ما كان يجري عليهم أمثالها، ففي سنة ٤٨٥هـ يذكر ابن الأثير ما جرى فيها على الحجاج قائلاً: سار الحجاج هذه السنة من بغداد فقدموا الكوفة ورحلوا منها، فخرجت عليهم خفاجة فأوقعوا بهم ونهبوا الحجاج وقصدوا الكوفة ودخلوها وأغاروا عليها وقتلوا في أهلها إلى آخر ما قال. وفي أحداث سنة ٤٨٦ يذكر ما جرى عليهم في الحجاز من مثل ذلك.

لقد كان أول واجبات السلاطين حفظ الأمن، ورعاية أمور الشعب، وحمايته من عبث فريق منه بفريق آخر، ولكن سلاطين السلاجقة كانوا في شاغل عن ذلك بالاقتتال فيما بينهم، والتنازع على الاستئثار بظلم الناس. وإذا كانوا هم وجنودهم لا يتورعون عن السلب والتخريب والقتل والنهب فكيف يطلب من الناس أن يتورعوا عن ذلك؟! إنهم وهم الذين اعتدوا على الإسماعيليين الذين لا ذنب لهم، جرّؤوا الإسماعيليين على أن يعتدوا على من لا ذنب لهم..

في غرب العالم الإسلامي

إذا كان الجانب الشرقي من العالم الإسلامي ظل يموج ويمور بمحن السلاجقة فيه، فكذلك كان الجانب الغربي في الوقت نفسه يموج ويمور بمحن الصليبيين فيه، غير أن السلاجقة الذين اعتبروا أنفسهم غير ملزمين بشيء تجاه العالم الإسلامي، وأن استباحة الصليبيين له لا تعنيهم، فانفردوا بالجانب الشرقي من هذا العالم مشغولين بأنفسهم، غير مبالين بما يجري في الجانب الآخر من ذبح للمسلمين وانتهاك لحرماتهم، إذا كان الأمر كذلك حتى الآن، فإننا سنرى أن فيهم من تعاون مع الصليبيين، وقد مر معنا شيء من هذا من قبل، وسنرى هنا لا تعاوناً منهم مع الصليبيين مجرد تعاون، بل انضماماً كاملاً إلى صفوفهم.

لم تهدأ المعارك مع الصليبيين، فهذا (طنكري) الصليبي صاحب أنطاكية يحاصر حصن ارتاح، وفيه نائب الملك رضوان، وضاق الأمر على المسلمين، فأرسل النائب إلى رضوان يستنجد به، فسار رضوان في نجدة قوية من الخيالة وسبعة آلاف من الرجالة بينهم ثلاثة آلاف متطوع.

وبعد أن بدأت المعركة بنصر المسلمين عادت الهزيمة فحاقت بهم وقتل وأسر الكثير منهم، ولم ينج إلا الشريد، وسقط أرتاح بأيدي الصليبيين.

وأخرج الأفضل بن بدر الجمالي حملة من القاهرة، فتصدى لها بغدوين الصليبي صاحب القدس، فوقعت المعركة في مكان بين عسقلان ويافا فلم ينتصر أحد الفريقين على الآخر، بل ثبتا كلاهما.

يقول ابن الأثير عن هذه المعركة[1]: وكان مع الفرنج جماعة من المسلمين منهم

(١) ابن الأثير: ج١٠، ص٣٧٦ ـ ٤٠٧.

بكتاش بن تُتُش (السلجوقي). هذي هي الأمجاد السلجوقية، لا يكتفون بأن يتخلوا عن العالم الإسلامي، بل ينضموا إلى الصليبيين لقتال جيوشه..

وهنا نعود إلى الدكتور عمر التدمري لنقول له: لم يكن الأمر كما زعمت من أن الصراع في بلاد الشام كان بين السلاجقة والفاطميين، بل كان بين الجماليين وبين الصليبيين متحالفين مع السلاجقة.

وبينما الفتن مستمرة بين السلاجقة في الشرق يستمر الصراع بين المسلمين والصليبيين في الغرب. وقد يعن لأحد السلاجقة أن يواثب الصليبيين، ثم لا يلبث أن يعود إلى حقيقته كهذا الذي حدث للملك رضوان بن تُتُش حين عزم على حرب الصليبيين فاجتمع إليه بعض الأمراء السلاجقة لهذه الغاية، ولكنهم ارتأوا أن يهاجموا أولاً (جكرمش) صاحب الموصل وما والاها، فساروا إليه، فلم يلبث الأمر أن انقلب إلى فتنة بينهم، وتآمر بعضهم على بعض واقتتلوا، ونسوا الصليبيين وقتالهم، وانصرف أتباعهم من التركمان إلى نهب مواشي المسلمين.

وتملك الصليبيون حصن (أفاميه)، ومدينة سرمين من أعمال حلب، كما كانوا قد ملكوا مدينة جبيل، وتقدم (صنجيل) الصليبي منها إلى حصار طرابلس التي كان يحكمها بنو عمار، وثبت له بنو عمار فلم يقدر عليها، ولما رأى أن الحصار سيطول، بنى بالقرب منها حصناً وأقام تحته ربضاً، ولبث محاصراً لطرابلس يلتمس منها غرة تمكنه من التغلب عليها. ولكن فخر الملك أبا علي بن عمار كان له بالمرصاد، فهاجمه وأحرق ربضه، وشاء قدر صنجيل أن يقف هو وبعض قادته وفرسانه على أحد سقوف الربض المحترقة، فانخسف بهم السقف، فأصيب صنجيل إصابة بالغة، لم يلبث بعدها أكثر من عشرة أيام أن مات بعدها متأثراً من إصابته بانخساف السقف.

وعز على الصليبيين ما جرى عليهم في حصار طرابلس، فأرسلوا إليهم من اللاذقية التي كانو يحتلونها ميرة في البحر، فلم يكن ابن عمار غافلاً عنهم، فأرسل في البحر قطعاً من أسطوله اعترضت قطع الصليبيين فقامت معركة بحرية بين الفريقين ظفر فيها أسطول ابن عمار، وأسر قطعة بحرية للصليبيين عاد بها وبمن فيها من أسرى ومؤن إلى طرابلس.

ودام القتال بين بني عمار وبين الصليبيين على طرابلس عشر سنين.

ويقول ابن الأثير[1]: وظهر من ابن عمّار صبر عظيم وشجاعة ورأي سديد، ثم يقول

(١) ابن الأثير: ج١٠، ص٤١٢.

ابن الأثير: وأجرى ابن عمار الجرايات على الجند والضَّعفى، فلما قلت الأموال عنده شرع يقسّط على الناس ما يخرجه في باب الجهاد، فأخذ من رجلين من الأغنياء مالاً مع غيرهما، فخرج الرجلان إلى الفرنج وقالا: إن صاحبنا صادرنا فخرجنا إليكم لنكون معكم، وذكرا لهم أنه تأتيه الميرة من عَرَقَة والجبل، فجعل الفرنج جمعاً على ذلك الجانب يحفظه من دخول شيء إلى البلد..

فأرسل ابن عمار وبذل للفرنج مالاً كثيراً ليسلموا الرجلين إليه، فلم يفعلوا. فوضع عليهما من قتلهما غيلة.

هكذا كان فخر الملك أبو علي بن عمار بطل الموقف بكل ما في البطولة من شجاعة وحزم وتضحية وحسن تدبير.

ولو كان الأمريكيون واليهود سائدين يومذاك بوسائلهم الإعلامية، لنبزوه بلقب الإرهابي.

فحيا الله ابن عمار: الإرهابي الأول في التاريخ الإسلامي.

ويصف ابن الأثير حال الناس في طرابلس قائلاً: فعدمت الأقوات وخاف الناس على نفوسهم وأولادهم وحُرَمهم...

هكذا كانت الحال في الغرب الإسلامي جهاداً ونضالاً للصليبيين، وكذلك كانت في الشرق على أيدي السلاجقة: جهاداً ونضالاً للمسلمين!.



المرابطون (الملثمون)

يذكر ابن الأثير ـ خلال سرده للأحداث المتقدمة ـ خبراً موجزاً لا بد من الوقوف عنده بعض الوقت: «في هذه السنة ورد إلى بغداد إنسان من الملثّمين ملوك المغرب، قاصداً دار الخلافة، فأكرم، وكان معه إنسان يقال له: الفقيه، من الملثمين أيضاً، فوعظ الفقيه في جامع القصر، واجتمع له العالم العظيم، وكان يعظ وهو متلثّم لا يظهر منه غير عينيه. وكان هذا الملثّم قد حضر مع الأفضل (بن بدر الجمالي) أمير الجيوش بمصر وقعتَهُ مع الفرنج، وأبلى بلاء حسناً.

وكان سبب مجيئه إلى بغداد: أنّ المغاربة كانوا يعتقدون في العلويين (الفاطميين)، أصحاب مصر، الاعتقاد القبيح، فكانوا، إذا أرادوا الحجَّ، يعدلون عن مصر، وكان أمير الجيوش بدر والد الأفضل أراد إصلاحهم، فلم يميلوا إليه، ولا قاربوه، فأمر بقتل مَنْ ظفر به منهم، فلما ولي ابنه الأفضل أحسن إليهم واستعان بمن قاربه منهم على حرب الفرنج، وكان هذا من جملة مَنْ قاتل معه، فلما خالط المصريين خاف العودة إلى بلاده، فقدم بغداد، ثم عاد إلى دمشق، ولم يكن للمصريين حرب مع الفرنج إلا وشهدها فقُتل في بعضها شهيداً، وكان شجاعاً فتاكاً مقداماً»[1].

من هم الملثمون؟ . .

لا بد لنا أولاً من التعريف بالملثمين الذي ينتمي إليهم هذا الرجل الذي تحدث عنه ابن الأثير هذا الحديث الموجز: الملثمون هم الذين عرفوا في التاريخ باسمهم الآخر الأشهر: طون).

(١) ابن الأثير: ج١٠، ص٤١٤.

وهناك اختلاف في سبب تسميتهم بالملثمين وأقربها إلى المنطق: أنهم كانوا يتلثمون دفعاً لهجير الصحراء صيفاً، وزمهريرها شتاء. وقيل إن سبب اللثام، أن طائفة من لمتونة خرجوا مغيرين على عدوهم، فخالفهم العدو إلى بيوتهم، ولم يكن فيها إلا المشايخ، والصبيان، والنساء، فلما تحقق المشايخ أنه العدو أمروا النساء أن يلبسن ثياب الرجال، ويتلثمن، ويضيقنه، حتى لا يعرفن، ويلبسن السلاح، ففعلن ذلك. وتقدم المشايخ والصبيان أمامهن، واستدار النساء بالبيوت، فلما أشرف العدو رأى جمعاً عظيماً، فظنه رجالاً، فقال: هؤلاء عند حُرَمهم يقاتلون عنهن قتال الموت، والرأي أن نسوق الغنم ونمضي، فإن اتبعونا قاتلناهم خارجاً عن حريمهم.

فبينما هم في جمع الغنم من المراعي إذ أقبل رجال الحي، فبقي العدو بينهم وبين النساء، فقتلوا من العدو فأكثروا، وكان من قتل النساء أكثر، فمن ذلك الوقت جعلوا اللثام سنة يلازمونه، فلا يعرف الشيخ من الشاب، فلا يزيلونه ليلاً ولا نهاراً[1].

ابتداء الحركة وتطورها

كان ابتداء حركة المرابطين (الملثمين) سنة ٤٤٨هـ، ويرد ابن الأثير نسبهم إلى (حِمْيَر) فيقول: هم عدة قبائل يُنسبون إلى حِمْيَر، أشهرها: لمتونة، وجدالة، ولمطة. وكان أول مسيرهم من اليمن، أيام أبي بكر الصديق (رض) فسيرهم إلى الشام، وانتقلوا إلى مصر، ودخلوا المغرب مع موسى بن نصير، فأحبوا الانفراد، فدخلوا الصحراء واستوطنوها[2]. والله أعلم بحقيقة هذا النسب..

الرجل المحب للدين وأهله ـ كما يصفه ابن الأثير ـ المسمى: (الجوهر) من قبيلة جدالة، ساقه حبه للدين إلى الذهاب للحج، فمر بفقيه في مدينة (القيروان) يعظ جماعة ويفقههم في الدين.

والجوهر القادم من الصحراء، حيث البداة هناك كالبداة في كل صحراء لا يعرفون من الدين إلا ألفاظاً يرددونها، أصغى إلى هذا الفقيه وكلما طال إصغاؤه كثر تعجبه مما يسمع، فالدين إذن ليس الشهادتين فقط، إن له أحكاماً لا يدرون في الصحراء منها شيئاً.

ومضى الجوهر إلى الحج ثم عاد ماراً بالفقيه المفقه وأطلعه على ما في نفسه قائلاً: ما

---

(١) ابن الأثير: ج٩، ص٦٢٢ ـ ٦٢٣.

(٢) م. ن. ص٦١٨.

عندنا من هذا في الصحراء من شيء غير الشهادتين والصلاة في بعض الخاصة، فابعث معي من يعلمهم شرائع الإسلام. .

وقفة (الجوهر) على الفقيه في طريق مسيره إلى الحج، ثم وقفته عليه حين عودته من الحج وحديثه معه كانتا السبب في نشوء حركة دينية واسعة، ثم في نشوء دولة مترامية الأطراف امتدت من شمال أفريقيا حتى أقاصي الأندلس، نشبت فيها المعارك وسفكت الدماء وكثر القتلى، وكان بينهم (الجوهر) نفسه. . .

لقد لبى الفقيه طلب (الجوهر) فبعث معه رجلاً اسمه عبد الله بن ياسين الجزولي، وكان في نظره فقيهاً صالحاً، فسارا حتى بلغا قبيلة لمتونة، فأول ما فعله الجوهر ليرفع منزلة الفقيه بين القبيلة أن نزل عن جمله وأخذ بزمام جمل الجزولي يقوده، فأقبل الناس يهنّؤونه بالإياب ويسألونه عن رفيقه، فأخبرهم أنه قادم ليشرح لهم العقائد الإسلامية ويدعوهم إلى تطبيقها، فلما أفاض الجزولي في الحديث، قالوا له:

أمّا ما ذكرت من الصلاة والزكاة فقريب، وأما قولك من قَتَل يقتل، ومن سرق يُقطع، ومن زنى يُجلد أو يُرجم فأمر لا نلتزمه. إذهب إلى غيرنا.

إن هذه الصورة من الحوار هي قبل كل شيء طريفة كل الطرافة، ثم هي تدلنا على حقيقة تطبيق الإسلام لا في هذه الصحراء وحدها، بل في الصحراوات كلها: فلا صلاة ولا زكاة ولا حدود، إنهم لم يذكروا الصيام، فهل كانوا يصومون؟.

إنهم لم يعدوا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ولكن قالوا: إن أمرها قريب، وأما غير القريب، والبعيد كل البعد فهو أن تطبق عليهم الحدود!.

فإذا كان كل قاتل يُقتل، وكل سارق يُقطع، وكل زان يُجلد أو يُرجم، فيا لكثرة من سيقتل منهم وسيقطع وسيجلد أو يرجم!.

لذلك رفضوا قبول الفقيه الجزولي بينهم. . وإذا كان لنا أن نستنتج تفشي تلك 'الآثام بينهم، فإننا نستنتج كذلك أن إثماً كبيراً لا أثر له بينهم، هو: شرب الخمر.

عمل الجوهر والفقيه بالنصيحة فقررا الرحيل إلى مكان آخر. وكان بين المستمعين لكلام الفقيه شيخ أثقلته السنون وحنكته التجارب، فاستشف من بيان الفقيه وعزمه واستفاضته في الحديث، قدرة على الإقناع وما بعد الإقناع من نجاح. فعندما رأى الفقيه على جَمَلِهِ راحلاً في الصحراء قال:

لا بد أن يكون لهذا الجمل في هذه الصحراء شأن يذكر في العالم!.

وصحت نبوءة هذا الشيخ الصحراوي وصدقت فراسته، فكان للجمل وصاحبه في تلك الصحراء وما وراء الصحراء شأن أي شأن!.

ترك الرجلان قبيلة لمتونة ومضيا إلى قبيلة (جدالة)، وهي قبيلة الجوهر، فدعا عبد الله بن ياسين هذه القبيلة والقبائل المجاورة لها إلى مثل ما دعا إليه قبيلة لمتونة.

وهنا اختلف الأمر عما كان عليه في لمتونة، ففي لمتونة كان إجماع على رفض عبد الله بن ياسين ودعوته، وفي جدالة وما جاورها وجد من يستجيب ووجد من يرفض.

عند هذا المفترق انقلب ذلك الشيخ الزاهد العابد المتقشف العازف عن الدنيا ـ انقلب إلى متنمر مقاتل مخطط عازم على سفك الدماء في سبيل إنجاح أمره!.

فصارح المستجيبين إليه بوجوب إعلان الحرب على الرافضين، مخاطباً إياهم بهذا القول: قد وجب عليكم أن تقاتلوا هؤلاء الذين خالفوا الحق وأنكروا شرائع الإسلام واستعدوا لقتالكم، فأقيموا لكم راية وقدّموا عليكم أميراً.

فقال الجوهر: أنت الأمير.

وهنا تبدّا دهاء الفقيه وحنكته السياسية وتخطيطه المحكم، فقال: لا، إنما أنا حامل أمانة الشريعة. ثم التفت إلى الجوهر قائلاً: ولكن أنت الأمير، وكان الجوهر حكيماً مخلصاً حين رفض الإمارة قائلاً:

لو فعلت هذا تسلط قبيلي على الناس، وكان وزر ذلك عليّ.

فقال ابن ياسين: الرأي أن نولي ذلك أبا بكر بن عمر، رأس لمتونة وكبيرها، وهو رجل سيد مشكور الطريقة مطاع في قومه فهو يستجيب لنا لحب الرئاسة وتتبعه قبيلته فنتقوى بهم.

فعادا إلى لمتونة التي خرجا منها وعرضا الأمر على أبي بكر بن عمر.

عندما جاءا أول الأمر إلى لمتونة ودعيا بدعوتهما، لم يذكرا إمرة ورئاسة، لذلك لقيا إعراضاً وتجهما، أما اليوم، وقد جاءا يقدمان مع الدعوة ما يقدمان من الإمرة والرئاسة فقد أسرع أبو بكر بن عمر إلى تلبيتهما، فعقدا له البيعة.

ولكن المشكل كان في اللقب الذي يضفى على الأمير الجديد، فالدعوة دينية وليست سياسية. وبالرغم من أنها اعتمدت السيف في طلب انتشارها، وبالرغم من أنها عازمة على التسلط على الناس، فلا بد لأميرها من لقب يميزه عن غيره من المعتمدين على السيف العازمين على التسلط.

ولم يكن ذلك ليعجز الفقيه الداهية البارع في التخطيط، فكما كان حكيماً في اختيار رئيس لمتونة للإمارة، كان حكيماً في اختيار لقبه، إذ لقبه بأمير المسلمين. فإذا كان هناك من يلقب (أمير المؤمنين)، فهنا من يلقب: (أمير المسلمين).

ولما كانوا قد ضمنوا ولاء لمتونة باختيار رئيسها للقيادة، فقد ذهبوا جميعاً إلى جدالة التي فيها أنصار لهم، فضموا أولئك الأنصار إلى رجال لمتونة، فتألف لهم من ذلك نواة جيش يمكن الاعتماد عليها في القتال. فقام ابن ياسين يحرض على الجهاد، وأطلق على الجماعة اسم (المرابطون).

أما مخالفوهم فقد أقلقهم هذا التجمع، فتكتلوا لمقاومته، ولكن ابن ياسين منع المرابطين من الاصطدام بهم أملاً بإصلاح من يمكن إصلاحه منهم وإضعافهم. فوفق في ذلك ولم يبق على عداء المرابطين سوى ألفي رجل، فعمل ابن ياسين على حصارهم فخندق عليهم، ثم صار المرابطون يخرجونهم جماعة بعد جماعة فيقتلونهم.

هكذا بدأ ابن ياسين يعاونه أبو بكر بن عمر دعوته الدينية بمذبحة رائعة لا شفقة فيها ولا رحمة، وهكذا مشى إلى هدفه الديني دائساً على الجثث خائضاً في الدماء! .. والجثث جثث مسلمين، والدماء دماء مسلمين..

وإنّ دعوة - مهما سمت أهدافها - تفتتح بذبح ألفي رجل لهي دعوة جبارة تأباها الإنسانية، ويأباها الدين!.

وأي ضلال يكون فيه الناس، لهو أهون من هدى يقود إلى ذبح الأسارى وتضريج الأرض بدم ألفي رجل في غير قتال..

ونحن لا ندري إذا كان (الجوهر الجدالي) - وهو الثالث في القيادة المرابطية - قد كان من الآمرين بهذه المذبحة أم كان من الناهين عنها أو من المحايدين فيها، ولا نعلم مقدار ما يتحمل من المسؤولية في تنفيذها، ولكن الذي نعلمه أن الذبح قد وصل إليه بعد ذلك.

لقد كان هو الأصل في قيام هذا الكيان (المرابطي)، وكان هو الذي حمل الفقيه القيرواني على إرسال عبد الله بن ياسين، وكان هو الذي أخذ بزمام جمل ابن ياسين وقاده بنفسه تواضعاً للدين وتعظيماً للداعي إليه.

ويبدو أن (الجوهر) لم يكن يحسب أن الأمر سيصل إلى قيام مذبحة، بل كان في حسبانه أن ابن ياسين سيعمل بمنطوق الآية القرآنية الكريمة: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾.

وقد رأيناه يرفض القيادة حين عرضها عليه ابن ياسين خوفاً من تسلط قومه على الناس. لذلك فإنه يخيل إلي أنه عارض المذبحة واستنكرها فاستحق العقاب.

يقول ابن الأثير[1]: «ولما استبد ابن ياسين بالأمر هو وأبو بكر بن عمر عن الجوهر الجدالي وبقي لا حكم له تداخله الحسد، وشرع سراً في فساد الأمر، فعُلم ذلك منه وعقد له مجلس وثبت عليه ما نُقل عنه، فحكم عليه بالقتل لأنه نكث البيعة وشق العصا وأراد محاربة أهل الحق، فقُتل بعد أن صلى ركعتين، وأظهر السرور بالقتل طلباً للقاء الله تعالى! .».

وفي هذا الكلام ما يغني عن أي تعليق، سوى القول بأن إظهاره السرور بالقتل كان حقيقياً لأنه رأى في هذا القتل تكفيراً عن تسبيبه ما سبب. . .

جرى كل ذلك، وابن ياسين مشتغل بالعلم، وقد صار عنده جماعة يتفقهون! ـ كما يقول ابن الأثير.

اشتغل بالعلم وترك الذبح لأبي بكر بن عمر، وتفقه عليه جماعة، وذبح على يدي ابن عمر جماعات. وبالعلم الذي اشتغل به صدرت فتاواه بالقتل الجماعي.

هكذا تقاسما الأدوار، ولما لم يبق للجوهر الجدالي دور سوى الاعتراض كان يجب أن يذبح، فذبح بفقه ابن ياسين وسيف ابن عمر. .

يعلق ابن الأثير على نتائج المذبحة قائلاً: «فحينئذ دانت لهم قبائل الصحراء وهابوهم فقويت شوكة المرابطين»، ثم يقول معقباً على قتل الجوهر: «فاجتمعت القبائل على طاعتهم، ومن خالفهم قتلوه».

وهكذا ظلت المذبحة مستمرة: ابن ياسين يشتغل بالعلم ليستنبط الفتاوى بالذبح، وابن عمر ينفذ الفتاوى!

ولم يكن استنباط الفتاوى يحتاج إلى كثير من العلم فابن الأثير يحدد الجريمة بقوله «فمن خالفهم قتلوه».

وإذا كان الحكم بقتل الجوهر قد احتاج إلى (حيثيات) وتعليلات، لمكانة الجوهر، فالحكم على غيره بالقتل لا يحتاج إلى (حيثيات) بل إلى تطبيق مادة وحيدة ذكرها ابن الأثير: من خالف اقتلوه. .

(١) ج٩، ص٦٢٠.

ظل المرابطون في نطاق صحراوي بحت فلم يتمددوا في مناطق أخرى، وفي سنة ٤٥٠هـ أي بعد سنتين من بدء دعوتهم قحطت بلادهم، فقرر ابن ياسين أن يطلق المحتاجين إلى مناطق أخرى، فأمر تسعمائة شخص بالذهاب إلى (السوس) والتسلط على الناس هناك بطلب الزكاة، فجاءوا إلى (سجلماسة) وطالبوا بالزكاة. ويبدو أن أنباء المذابح كانت وصلت في حينها إلى السجلماسيين فأسرعوا بجمع مقدار كاف من المال عاد به المرابطون إلى مقرهم...

ونجاحهم في جمع المال من سلجماسة فتح عيونهم على ما وراء الصحراء، فصمموا على الوصول إلى الأندلس.

يقول ابن الأثير: «إنّ الصحراء ضاقت عليهم، وأرادوا إظهار كلمة الحق والعبور إلى الأندلس ليجاهدوا الكفار..».

وابن الأثير هنا يقع في التناقض: إنّه يجعل في أول القول سبب تطلعهم إلى ما وراء الصحراء هو أن الصحراء ضاقت بهم.. ثم يعود فيجعل سبب ذلك إرادتهم إظهار كلمة الحق ومجاهدة الكفار...

أما أن الصحراء ضاقت بهم فصحيح، فابن ياسين وابن عمر اللذان استطابا السلطة، وجدا أن السلطة حين لا تتجاوز الصحراء، هي سلطة محدودة المكان، محدودة السكان، والمهم جداً أنها محدودة المال، وقد رأيا أنها قابلة للقحط في كل وقت، وحين تقحط يعوزهما حتى ضمان العيش للمحتاجين، وقد كانت تجربة إرسال التسعمائة الرجل إلى سجلماسة كافية لأن تجعلهما يصممان على الخروج من نطاق الصحراء، إلى حيث الري والخصب والمال الوفير.

وأما جهاد الكفار فمسألة فيها نظر ـ كما يقولون ـ إذ كان لا بد من مبرر للانطلاق من الصحراء!

لقد جاهدا بما فيه الكفاية، جاهدا فيمن خالفهم من المسلمين فأكثرا فيهم الذبح!..

جاهدا حتى في ذبح المؤمن المخلص الذي ساق إليهما ما هما فيه من سلطان وعنفوان، جاهدا في ذبح الجوهر!..

قاد أبو بكر بن عمر وعبد الله بن ياسين جماعة المرابطين في الخروج من الصحراء والنية في الوصول إلى الأندلس، ومشوا إلى السوس الأقصى، فرفضهم أهله وتصدوا لهم وقاتلوهم، فانهزم المرابطون وقتل عبد الله بن ياسين في المعركة.

على أنّ ابن عمر لم ييأس فعاد وجمع جيشاً سار به إلى السوس، واصطدم بالسوسيين فتغلب عليهم وهزمهم، ثم تقدم إلى سجلماسة فسار إليه صاحبها فهزمه ابن عمر واستولى على سجلماسة (سنة ٤٥٣هـ).

وهكذا صار في يد ابن عمر ملك فيه مدينة مثل سجلماسة، فبادر إلى تعيين أحد بني عمه الأقربين يوسف بن تاشفين والياً عليها.

وبعد أن بدرت بوادر الملك، وبدا أن هذا الملك قابل للاتساع هنا في شمال أفريقيا، نسي ابن عمر الهدف الذي أعلن أنه يبغي في تحركه تحقيقه، وهو الوصول إلى الأندلس ومجاهدة الكفار!.. وانصرف همه إلى التخطيط لبلوغ الهدف البديل وهو الوصول إلى ما يمكن الوصول إليه مما حوله من بلاد ومجاهدة المسلمين فيها[١]..!

فعهد بولاية سجلماسة إلى ابن أخيه أبي بكر بن إبراهيم بن عمر وجهز جيشاً إلى السوس مع يوسف بن تاشفين فاستولى عليه.

وفي سنة ٤٦٢هـ توفي أبو بكر بن عمر، فاجتمعت طوائف المرابطين على يوسف بن تاشفين وملّكوه عليهم وتلقب بلقب أمير المسلمين، وتوسع في ملكه حتى استولى على المغرب حصناً حصناً، وبلداً بلداً. ثم اختط مدينة مراكش واتخذها عاصمة لملكه. واستولى على سبتة وسلا وغيرهما، وصار له جيش كبير.

غدر المرابطين وفظائعهم

في سنة ٤٧٨هـ، كانت مدينة طليطلة تسقط بيد الإسبان، وكان المعتمد بن عباد صاحب قرطبة وأشبيلية وغيرها يؤدي لهم الجزية، وقد نبه سقوط طليطلة عقلاء المسلمين إلى الخطر الذي ينتظر الحواضر الإسلامية الأخرى في الأندلس.

ويصف ابن الأثير[٢] الموقف بهذه الكلمات:

«وسمع مشايخ قرطبة بما جرى ورأوا قوة الفرنج وضعف المسلمين واستعانة بعض ملوكهم بالفرنج على بعض» إلى أن يصل ابن الأثير إلى القول بأن المعتمد التقى المجتمعين، فتقرر إرسال رسول استنجاد بزعيم المرابطين يوسف بن تاشفين. ولبى ابن تاشفين الاستنجاد

---

(١) صار للمرابطين من نواحي السنغال إلى سلجماسة، ومن درعة إلى أغمات إلى الشياطمة.

(٢) ابن الأثير: ج١٠، ص١٥١.

وعبر البحر بعسكره إلى الأندلس، ووافى المعتمد وعسكره وعسكر قرطبة والمتطوعة الأندلسيين، والتقوا بالأذفونش وجيشه في (الزلاقة) فكان النصر الكبير للمسلمين، وذلك في العشر الأول من شهر رمضان سنة ٤٧٩هـ.

وعاد يوسف بن تاشفين بمرابطيه إلى مراكش. وفي العام الثاني عاد إلى الأندلس والتقى المعتمد بن عباد وعبد الله بن بلكين الصنهاجي صاحب غرناطة، وساروا جميعاً إلى حصار (ليط) وهو حصن منيع للأسبان، فعجزوا عن فتحه ورحلوا عنه.

وعاد ابن عباد إلى أشبيلية، واجتاز ابن تاشفين في طريق عودته بغرناطة ومعه ابن بلكين. فأعلن ابن تاشفين استيلاءه على غرناطة غادراً بابن بلكين الذي اضطر لعبور البحر إلى أفريقيا، وعاد يوسف بن تاشفين إلى مراكش تاركاً في غرناطة من يحكمها نيابة عنه.

وامتد حكمه في أفريقيا إلى ما لم يكن قد امتد إليه حتى الآن مثل: بلاد السوس، وورغة، وقلعة مهدي.

وفي سنة ٤٨٤هـ كان يوسف بن تاشفين يرسل حملة عسكرية إلى القسم الإسلامي من الأندلس فتستولي على مرسية، وشاطبة، ودانية، وبلنسية. ثم تتجه إلى أشبيلية عاصمة المعتمد بن عباد فتحتلها بعد معارك عنيفة.

ويصف ابن الأثير(١) ما فعلته حملة المرابطين في إشبيلية قائلاً: «واشتد الأمر على أهل البلد ودخله المرابطون من واديه، ونُهب جميع ما فيه، ولم يبقوا على سَبَد ولا لَبَد، وسلبوا الناس ثيابهم، فخرجوا من مساكنهم يسترون عوراتهم بأيديهم وسبيت المخدرات وانتهكت الحُرمات، فأُخذ المعتمد أسيراً ومعه أولاده الذكور والإناث، بعد أن استأصلوا جميع ما لهم، فلم يصحبهم من ملكهم بُلغة زاد.

وسُيّر ابن عباد وأهله إلى مدينة أغمات(٢)، فحبسوا فيها، وفعل أمير المسلمين (يوسف بن تاشفين) بهم أفعالاً لم يسلكها أحد ممن قبله ولا يفعلها أحد ممن يأتي بعده إلا من رضي لنفسه هذه الرذيلة، وذلك أنه سجنهم فلم يجر عليهم ما يقوم بهم حتى كانت بنات

(١) ج١٠، ص١٩٠.

(٢) **أغمات**: مدينة في سفح جبل بالقرب من مراكش.

المعتمد يغزلن للناس بأجرة ينفقونها على أنفسهم، فأبان أمير المسلمين (يوسف بن تاشفين) بهذا الفعل عن صغر نفس ولُؤم قدرة» (انتهى)[١].

وقد ظل المعتمد بن عباد مسجوناً حتى توفي في السجن، وكان وهو في السجن مقيد الرجلين وفي ذلك يقول من أبيات:

تعطف في ساقي تعطف أرقم   يساورها عضاً بأنياب ضيغم

ويقول ابن الأثير أيضاً: «ولما أُخذ المعتمد وأهله قتل ولداه بين يديه صبراً»[٢].

ثم سار المرابطون من أشبيلية إلى المرية وبطليوس، وكان عمر بن الأفطس صاحب بطليوس ممن أعان المرابطين على المعتمد، فساروا إليه واستولوا على بلده وأخذوه أسيراً هو وولده الفضل فقتلوهما، فقال عمر حين أرادوا قتله: قدموا ولدي قبلي للقتل ليكون في صحيفتي، فقتل ولده قبله. ولم يتركوا من ملوك الأندلس سوى بني هود لأنهم كانوا أقوياء ولاعتبارات أخرى.

ويقول ابن الأثير: «ولما استقصى عسكر أمير المسلمين (يوسف بن تاشفين) ملوك الأندلس، وأخذ بلادهم جمع ملوكهم وسيّرهم إلى بلاد المغرب وفرقهم فيها».

ومما يلفت النظر هنا أن ابن الأثير الذي بدا في كل ما كتب عن المرابطين متعاطفاً معهم، بدا هنا منكراً لفعلة يوسف بن تاشفين، حاملاً عليه.

وربما كان لصفة الغدر التي يمكن أن يوصف بها ما ارتكبه ابن تاشفين في الأندلس، أثر في غضب ابن الأثير وهجومه على ابن تاشفين ونعته بما نعته به من «صغر نفس ولؤم قدرة».

---

(١) من الشعر الذي قيل في نكبة المعتمد قول ابن اللبانة:

تبكي السماء بدمع رائح غادي   على البهاليل من أبناء عباد
على الجبال التي هدت قواعدها   وكانت الأرض منها تحت أوتاد
عرّيسة دخلتها النائبات على   أساود منهم فيها وآساد
وكعبة كانت الآمال تعمرها   فاليوم لا عاكف فيها ولا باد

(٢) وفي ذلك يقول المعتمد من أبيات في قتل ولديه:

يقولون صبراً لا سبيل إلى الصبر   سأبكي وأبكي ما تطاول من عمري
هوى بكما المقدار عني ولم أمت   فأدعى وفياً، قد نكصت إلى الغدر
ولو عدتما لاخترتما العود في الثرى   إذا أنتما أبصرتماني في الأسر

وفي سنة ٥٠٠ توفي يوسف بن تاشفين. وهنا تعود إلى ابن الأثير رقته فيتناسى ما وصف به ابن تاشفين، من صغر نفس ولؤم قدرة، ويقول في رثائه: «توفي أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ملك الغرب والأندلس وكان حسن السيرة خيراً عادلاً، يميل إلى أهل الدين والعلم ويكرمهم ويصدر عن رأيهم!».

ثم يقول: «كان حليماً كريماً، وكان يحب العفو والصفح عن الذنوب العظام!».

ونحن نسأل ابن الأثير من وراء قبره: هل من حسن السيرة أن يفعل ما فعل بالمعتمد بن عباد؟! وهل من العدل أن يقتل ولديه صبراً أمام عينيه؟ وهل من الميل إلى العلم والدين أن ينتهي أمر بنات المعتمد إلى ما انتهى إليه؟.

وهل إدامة سجن المعتمد حتى الموت ووضع القيد في رجليه وقتل ولديه بلا ذنب، هل كل ذلك صادر عن رأي أهل العلم والدين؟!.

وهل ما جرى ـ مما ذكره ابن الأثير نفسه ـ من سلب الناس ونهبهم وسبي المخدرات وانتهاك الحرمات يدل على أن ابن تاشفين كان يحب العفو والصفح عن الذنوب العظام؟

وتولى بعد يوسف ابنه علي بن يوسف، ويقول المراكشي (المعجب ٢٤١) عن عهده: «واستولى النساء على الأحوال وأسندت إليهن الأمور وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور، وأمير المسلمين في ذلك كله يتزيد تغافله ويقوى ضعفه، وقنع باسم إمرة المسلمين وبما يدفع إليه من الخراج وعكف على العبادة والتبتل وأهمل أمور الرعية غاية الإهمال».

على أن ابن الخطيب (تاريخ المغرب العربي ٢٥٣) يقول عن عهده: «كان ملكاً كبيراً فاضلاً معتدلاً عظم في أيامه الملك واتسق العز وملك جميع بلاد المغرب إلى بجاية، إلى الأرض الأندلسية والجزر الجوفية وبلاد القبلة بأسرها».

وإننا نقول: إن اتساع الرقعة التي يحكمها، والصفات التي ذكرها له لا تتنافى مع ما ذكره عنه المراكشي في المعجب، ولا ندري أي كبر وفضل واعتدال يقصد ابن الخطيب؟..

وفي زمن علي بن يوسف هذا سنة ٥٠٥هـ أي بعد توليه الملك بخمس سنين زحف الأذفونش صاحب طليطلة لمهاجمة المناطق الإسلامية، فزحف علي لمقابلته والتقى الفريقان في معركة شديدة هزم فيها الأذفونش وعاد خائباً.

ويعزو ابن الأثير هجوم الأذفونش إلى تصوره ضعف البلاد بعد وفاة ابن تاشفين، ويعلق

على نتيجة المعركة قائلاً: «وذل إذفونش حينئذ وعلم أن للبلاد حامياً لها وذاباً عنها».

ثورة قرطبة

وفي سنة ٥١٤هـ في عهد علي بن يوسف ثارت مدينة قرطبة على المرابطين. ويعزو ابن الأثير سبب الثورة إلى أن عبداً من عبيد الوالي مد يده خلال الاحتفالات بعيد الأضحى إلى امرأة فأمسكها فاستغاثت فوقعت الفتنة (العظيمة) ـ كما يصفها ابن الأثير ـ بين العبيد وأهل البلد ودامت جميع النهار، والحرب قائمة على ساق وأدركهم الليل فتفرقوا.

فوصل الخبر إلى الوالي أبي بكر يحيى بن روّاد، فاجتمع إليه الفقهاء والأعيان، فقالوا: المصلحة أن تقتل واحداً من العبيد الذين أثاروا الفتنة فأنكر ذلك وغضب منه، وأصبح من الغد وقد حشد مسلحيه لقتال أهل البلد، فقاتلوه فهزموه، وتحصن بالقصر فحصروه وتسلقوا إليه فهرب منهم بعد مشقة وتعب فنهبوا القصر، وأحرقوا جميع دور المرابطين ونهبوا أموالهم وأخرجوهم من البلد على أقبح صورة.

واتصل الخبر بأمير المسلمين (علي بن يوسف) فاستعظم الأمر، وجمع العساكر من صنهاجة وزناتة والبربر وغيرهم فاجتمع له منهم جمع عظيم، فزحف بهم واجتاز البحر إلى الأندلس وحصر مدينة قرطبة فقاتله أهلها قتال من يريد أن يحمي دمه وحريمه وماله.

فلما رأى أمير المسلمين شدة قتالهم دخل السفراء بينهم وسعوا في الصلح، فأجابهم إلى ذلك.

هذه النصوص التي أوردها ابن الأثير[١] عن ثورة قرطبة على المرابطين ذات دلالات كبيرة عن هؤلاء المرابطين الذي كانت دعوتهم في الأساس قائمة على وعظ الناس ودعوتهم إلى التمسك بالدين، فإذا بهم يفتتحون الدعوة بذبح ألفي مسلم، وصار الشعار من يخالف يقتل.

ثم جرى ما جرى على المعتمد بن عباد، على يدي يوسف بن تاشفين[٢]، ثم كان

(١) ج١٠، ص٥٥٨.

(٢) يقول الدكتور محمد مجيد السعيد في كتابه (الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس) (ص٤٤) عن عهد المرابطين ما يلي: نمت طبقة معينة مستغلة أثرت واغتنت على حساب الجماهير الفقيرة. هذه الطبقة هي مجموعة الفقهاء الذي بلغوا من المكانة لدى السلطة أن لا يبت في أمر صغير أو كبير من أمور الدولة إلا بمشورتهم وبعد أخذ آرائهم. =

الأمر في عهد ولده علي: أن استولى النساء على الأحوال، وصارت كل امرأة مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور . . .

ثم هذه هي الثورة عليهم في قرطبة من أجل محاولة اعتداء عبد من عبيدهم على امرأة. . .

ونستنتج من ثورة قرطبة ما يلي:

١ - لم يستطع المرابطون الاندماج في الشعب بسبب تصرفاتهم، بل ظلوا عضواً منفرزاً عن الشعب، ينظر إليهم الناس على أنهم غرباء عنه غير صالحين.

٢ - من أجل أن يستمر القتال طول النهار بين أهل قرطبة وبين العبيد، يجب أن يكون عدد هؤلاء العبيد كبيراً جداً. وهذا يتنافى مع أبسط قواعد الإسلام الذي حضّ على تحرير العبيد لا على الإكثار منهم، وهذا يدل ـ كما تدل أحداث يوسف بن تاشفين من قبل ـ على أن الحركة المرابطية كانت منذ تأسيسها على يد مؤسسها (التنفيذي) أبي بكر بن عمر، بعيدة عما تظاهرت بأنها تدعو إليه من التمسك بأهداب الدين.

ولا نشك أبداً بإخلاص عبد الله بن ياسين المؤسس (النظري) للحركة، ولكن الذي نشك به هو مقدار تفهمه لجوهر الإسلام والدعوة الإسلامية، فالذي يأمر ـ أو على الأقل يرضى ـ بذبح ألفي مسلم صبراً من أجل أنهم لم يستجيبوا لتعاليمه، ويكون شعار دعوته: من لم يكن معنا قتلناه، هو إما مغفل استغله أبو بكر بن عمر، أو إنسان لا صلة له بروح الإسلام وجوهره وأسلوبه في الدعوة إلى الحق.

٣ - إذا كان ما أجمع عليه الفقهاء والأعيان من أخذ أحد العبيد وقتله، يرضي أهل قرطبة، فهو لا يرضي لا الإسلام ولا العدالة ولا الحق، فكيف يصح في الشريعة أن

= وهذا يفسر لنا سبب هجوم الشعراء عليهم وهجائهم، من ذلك أبيات ابن البني يخاطب بها قاضي قرطبة:

أهل الرياء لبستم ناموسكم ... كالذئب أدلج في الظلام القاتم

فملكتم الدنيا بمذهب مالك ... وقسمتم الأموال بابن القاسم

وابن القاسم: هو من مشاهير علماء المالكية.

وكانت شكوى ابن عبدون الآسية الحزينة في رسالة الحسبة تعبيراً آخر وصرخة أخرى للتردي الذي شهدته الأندلس أبان ذلك العصر. لنسمعه يقول بأسف: «إن الرئيس العادل الساعي إلى الخير المرتبط بالناموس أصبح يلتمس فلا يوجد» (ابن عبدون وآخرون: ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب ص٥ تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة ١٩٥٥).

تأخذ رجلاً لم يثبت عليه أنه ارتكب ما يوجب قتله فتقتله؟! وإذا كان الأعيان قد أجمعوا على ذلك، فكيف يصح ذلك للفقهاء؟!.

٤ ـ هذه الجموع التي جمعها (أمير المسلمين) علي بن يوسف ليته كان جمعها لهدف أسمى من تأديب أهل قرطبة.

٥ ـ وصف ابن الأثير لثبات أهل قرطبة وقتالهم بأنه: قتال من يريد أن يحمي دمه وحريمه وماله. هذا الوصف يدلنا على ما كان يتوقّعه أهل قرطبة من (المرابطين) أصحاب الدعوة الإسلامية!! أن يرتكبوه بنسائهم ودمائهم وأموالهم.

مات علي بن يوسف(١) بعد أن قامت حركة إسلامية أخرى في المغرب الأفريقي عرفت باسم (الموحدون) بقيادة ابن تومرت وقاتلت جيوش المرابطين، ودام القتال في عهد خليفة علي حتى انتصر الموحدون وانتهى أمر المرابطين سنة ٥٤٢ بعد أن ختموا عهدهم أسوأ خاتمة إذ استنجدوا بالفرنج على قتال الموحدين.

يقول ابن الأثير(٢) عن فتح الموحدين لمراكش عاصمة المرابطين: «وكان بمراكش جيش من الفرنج كان المرابطون قد استنجدوا بهم فجاءوا إليهم نجدة».

وكان قتل آخر ملوكهم إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين ـ وهو صبي ـ سنة ٥٤٢هـ، وبه انقرضت دولتهم بعد أن دامت سبعين سنة، وولي منهم أربعة: يوسف وعلي وتاشفين وإسحاق. وابن الأثير الذي رأيناه أول الأمر يهاجم يوسف بن تاشفين ويحمل عليه، ثم يثني عليه عند موته، يعود هنا بعد أن أصاب المرابطين ما أصابهم فيقول عن يوسف بن

(١) توفي علي بن (يوسف) سنة ٥٣٧هـ فتتابعت الثورات على المرابطين في الأندلس. من ذلك ثورة ابن قسي في غرب الأندلس التي قام بها (المريدون) وهم جماعة متزهدة تلقت تعاليمها عن الزاهد أبي العباس أحمد بن محمد الصنهاجي المعروف بابن العريف (٤٨١ ـ ٥٣٦هـ)، وغلب على هذه الجماعة في بادىء الأمر الزهد والورع والتمسك بالطرق الصوفية غير أنها تحولت على يد ابن قسي إلى جماعة تسعى إلى الحكم والسلطة.
ومثل ثورة قرطبة بقيادة أبي جعفر حمدين بن محمد بن حمدين قاضي المدينة سنة ٥٣٩ وكانت ذات صبغة سياسية شعبية.
وقد بلغ عدد تلك الثورات المحلية أكثر من عشر، وكان أعظمها وأقواها غير ثورتي ابن قسي وابن حمدين: ثورة ابن أضحى (أبي الحسن علي بن عمر بن أضحى الهمداني) (٤٩٢ ـ ٥٣٩هـ) في غرناطة، وثورة الأمير أبي عبد الله بن مردنيش (محمد بن سعد) في شرق الأندلس التي كانت قوية مؤثرة حتى سنة ٥٦٧هـ.

(٢) ج١٠، ص٥٨٤.

تاشفين: «ولقد أساء يوسف بن تاشفين في فعله بالمعتمد بن عباد، وارتكب بسجنه على الحالة المذكورة أقبح مركب، فلا جرم سلط الله عليه في أعقابه مَن أربى في الأخذ عليه وزاد».

ونقول: ابتدأوا أمرهم بذبح ألفي مسلم صبراً، وانتهوا بالاستنجاد بالإفرنج!. ومع ذلك فهم أصحاب دعوة إسلامية!!..

كان لا بد من هذا الحديث غير القصير عن المرابطين (الملثمين) لإيضاح ما ذكره ابن الأثير عن (الملثم) الذي جاء إلى بغداد خلال الحروب الصليبية، وأشار ابن الأثير إلى سبب قدومه إلى بغداد.

يقول ابن الأثير عن سبب قدومه ـ كما تقدم ـ أنه ممن قاتلوا الصليبيين مع الأفضل بن بدر الجمالي وأبلى بلاء حسناً.

أما لماذا جاء إلى بغداد ولم يعد إلى بلاده المحكومة من جماعته (المرابطين)، فلأن هؤلاء المرابطين الذين افتتحوا دعوتهم بذبح ألفي مسلم صبراً، وختموها بالاستنجاد بالإفرنج واستقدموا جيشاً منهم إلى عاصمتهم مراكش ـ إن هؤلاء المرابطين يعتقدون بالعلويين أصحاب مصر الاعتقاد القبيح ـ كما يقول ابن الأثير ـ، والمقصود بالعلويين هنا: الفاطميون، الذين اصطلح ابن الأثير في كل ما كتبه عنهم في كتابه (الكامل) على تسميتهم بالعلويين لا بالفاطميين، فهو ينسبهم إلى علي (ع) لا إلى فاطمة (ع).

أما لماذا يعتقدون فيهم الاعتقاد القبيح فلأنهم على غير مذهبهم!.. وقد قاطعوهم بحيث أنهم إذا أرادوا الحج لا يمرون في مصر.

ويؤكد ابن الأثير أن بدراً الجمالي الذي كان قد سيطر على الخلافة الفاطمية وأصبح هو الحاكم الفعلي لمصر ـ إن بدراً هذا حاول إصلاحهم، بمعنى التقرب إليهم وإزالة ما في نفوسهم، فلم يميلوا إليه ولا قاربوه.

ولما أعياه أمرهم قرر معاملتهم بالشدة، فكان يقتل من ظفر به منهم، ومن أجل أن يفعل بهم ذلك فلا ريب أنه كان يخشى إفسادهم الناس عليه.

وعندما خلف الأفضل والده بدراً عاد يستصلحهم ويحسن إليهم، ولقد كان في حرب متصلة مع الصليبيين، ويريد الاستعانة بكل من يمكنه الاستعانة به في هذه الحرب، فاستطاع

استمالة فريق منهم فانضموا إليه في جهاد الصليبيين، وكان ممن انضم إليه: الملثم الذي تحدث عنه ابن الأثير.

وبالرغم من أن اتصال هذا الملثم ببدر الجمالي كان اتصالاً جهادياً أبلى فيه في قتال الصليبيين بلاءً حسناً، فإنه كان يخشى العودة إلى بلاده، خوفاً من أن يقتله قومه المرابطون، الذين يرون الاستنجاد بالإفرنج حلالاً، أما التعامل مع المسلمين الذين هم على غير مذهبهم، ولو كان تعاملاً جهادياً فهو حرام يستحق فاعله القتل. لذلك آثر الذهاب إلى بغداد لفترة، ثم عاد إلى مصر.

وكما رأينا فيما قال ابن الأثير: لم يكن للمصريين حرب مع الفرنج إلا وشهدها، فقتل في بعضها شهيداً... وهذا القول يدلنا فيما يدل على أن الأفضل قد ظل مواصلاً الحرب على الصليبيين دون انقطاع.

مع السلاجقة

سنة ٥٠٠هـ أقطع السلطان محمد، جاولي سَقاوو الموصل وديار بكر والجزيرة كلها، مقابل أن يسير إلى الفرنج ويأخذ البلاد منهم. ولنعرف من هو جاولي هذا ننقل وصف ابن الأثير له: «كان جاولي قبل هذا قد استولى على البلاد التي بين خوزستان وفارس وأقام بها سنين، وعمر قلاعها وحصّنها، وأساء السيرة في أهلها وقطع أيديَهم وجدع أنوفَهم وسمل أعينَهم..

هذه هي سيرة الوالي الذي اختاره السلطان محمد ليحكم تلك الأرض الواسعة.

والسلطان محمد الذي يعرف ما يجري في الغرب الإسلامي، ويعرف استيلاء الصليبيين على الديار المقدسة، ويعرف عيث الصليبيين بالمسلمين وإذلالهم لهم، لم يكن من همه أن يهب بنفسه إلى إنجاد الإسلام ودفع الضيم عنه، بل عهد بهذه المهمة إلى من يعلم هو قبل غيره أنه ليس من رجالها.

عهد بهذه المهمة إلى (جاولي سقاوو)!.. الرجل الذي قطع أيدي المسلمين في بلادهم وجدع أنوفهم وسمل أعينهم.. الرجل الذي استحل فى المسلمين كل ذلك.. يطلب إليه السلطان محمد أن يسير إلى الفرنج ليأخذ البلاد منهم!..

في موازاة قطع أيدي الرعايا وجدع أنوفهم وسمل عيونهم، عمّر القلاع وحصّنها، عمّرها وحصّنها بما خرّب من البيوت ونقض من الديار!..

عمّرها وحصنها حذراً من أن يثور عليه الذين خرّب دورهم وهدم منازلهم، فيحتمي منهم بالقلاع.. هذا هو الرجل الذي طلب إليه سلطان السلاجقة قتال الصليبيين واسترجاع ما أخذوه من بلاد.

فماذا فعل؟ ماذا فعل جاولي سقاوو المنتدب لإنقاذ المسلمين؟ . .

ذهب من بغداد إلى الموصل وجعل طريقه على البوازيج فملكها، ونهبها أربعة أيام، بعد أن أمّن أهلها وحلف لهم أنه يحميهم[١].

هذا الذي أُرسل لإنقاذ المسلمين من النهب والذل، حوّل مهمته إلى نهب المسلمين وإذلالهم، هذا الذي أُرسل ليحمي شرائع الإسلام استباح شرائع الإسلام فنكث بالأمان، وحنث بالأيمان. .

ومضى بعد البوازيج إلى إربل، وفي الطريق لقيه (جكرمش) بجنوده ليحول بينه وبين الوصول إلى الموصل لأن حكمها كان له فاقتتلا وانتصر جاولي سقاوو.

ووصل خبر الهزيمة إلى جماعة جكرمش في الموصل فتحصنوا بها لقتال جاولي سقاوو، وبدأ الطمع بالموصل وأرادها قلج أرسلان فصارت له.

واستنجد الملك رضوان بن تتش[٢] بجاولي ليقدم إلى الشام لقتال الصليبيين قائلاً له: إن الفرنج قد عجز من بالشام عن منعهم، فسار جاولي إلى الرحبة وحاصرها، فاشتد الحصار على أهلها وضاقت عليهم الأمور، واستطاع جاولي دخولها فأول شيء فعله هو نهبها.

ثم التقى جيشه بجيش قلج أرسلان فهزم قلج ودخل جاولي الموصل في أحداث وخطوب جمة.

أما المهمة التي انتُدب لها جاولي، وهي الذهاب لقتال الفرنج فقد نسيها جاولي في غمار النهب والسلب، واستعاض عن استرداد أرض الشام من الفرنج باسترداد الموصل من المسلمين.

وفي سنة ٥٠٢ كانت نهاية حكم جاولي للموصل، فالسلطان محمد كان قد جعل إليه ولاية كل بلد يفتحه فاستولى على كثير من البلاد والأموال[٣] وما دام النهب يرافق استيلاءه على البلاد، فمن الطبيعي أن تكثر لديه الأموال لكثرة ما استولى عليه من البلاد.

والسلطان السلجوقي محمد الذي أطلق يده في الفتح والنهب كان ينتظر أن يشركه جاولي

---

(١) ابن الأثير: ج١٠، ص٤٢٣.

(٢) يصفه ابن الأثير عند وفاته بأنه صاحب حلب وأن أموره كانت غير محمودة، وأنه قتل أخويه أبا طالب وبهرام، وأنه كان يستعين بالباطنية لقلة دينه. ثم يقول عن ابنه ألب أرسلان الذي ولي بعده بأنه قتل أخوين له.

(٣) ابن الأثير: ج١٠، ص٤٥٧.

بالمنهوبات، ولكن جاولي استأثر بها فقرر السلطان استبداله بغيره من الولاة الذين يتقاسمون مع سلاطينهم ما ينهبونه من الشعب، فاتفق مع جماعة من الأمراء والولاة أن يتوجهوا إلى الموصل وبقية البلاد التي يحكمها جاولي ويأخذوها منه، فتوجهوا إلى الموصل.

فقرر جاولي ترك الموصل بعد أن أحكم أمر الدفاع عنها، وأوكل إلى زوجته إدارة الدفاع بعد أن مهد لها الأمور بأن حبس أعيان الموصل، وأخرج من أحداثها ما يزيد على عشرين ألفاً، وأعلن أنه متى اجتمع عامّيان على الحديث في هذا الأمر قتلا..

أصبحت الموصل في يد زوجة جاولي في شر حال من الذل والرعب وتوقع البلاء.

الأعيان في السجون، والشبان في قبضة جاولي، وعامة الشعب في فوضى لا قيادة فيها، فإذا خطر لاثنين أن يلتقيا فيتشاكيا قتلا في الحال..

أما هو فقد ترك الموصل، يقول ابن الأثير: خرج عن البلد، ونهب السواد..

نهب الشعب... هذا هو شعار العصر السلجوقي ومنهجه وعمله. أهل السواد الوادعين الآمنين المطمئنين، يفاجؤهم القائد المنتدب لإنقاذ القدس بالنهب والترويع...

أما زوجته القائمة مقامه في الموصل فقد رأت أن زوجها قد اكتفى باضطهاد الرجال، فرأت هي أن تساوي في الاضطهاد بين الرجال والنساء، وأن تبرهن بأن المرأة ليست أقل كفاءة من الرجل... يقول ابن الأثير: «وصادرت زوجته من بقي بالبلد وعسفت نساء الخارجين عنه..».

لقد عمدت إلى أمرين: استولت على أموال من بقي في البلد من الرجال، وعسفت النساء اللواتي لم ينضو رجالهن تحت إمرة جاولي.

يقول ابن الأثير واصفاً حالة الموصل: «فتمادى الحصار بأهلها من الخارج، والظلم من داخل». هذه الشدة التي كانت فيها الموصل ووصفها ابن الأثير بهذا الوصف أدت إلى ثورة داخل الموصل يمكن أن نسميها ثورة الجصاصين، ولم يكن من الممكن أن تقوم ثورة أوسع منها، ومع أن الجصاصين محدودو العدد فقد استطاعوا إحكام أمرهم فنجحوا.

لم يكن بالإمكان قيام ثورة عامة فقادة الشعب في السجون، وأحداثه مصادرون، ونساؤه مضطهدات. ولكنّ نفراً من الجصاصين يصفهم ابن الأثير بهذا الوصف: فلما طال الأمر على الناس اتفق نفر من الجصاصين، ومقدمهم جصاص يعرف بسعدي على تسلم البلد.

والنفر في اللغة: من هم دون العشرة، أي أن الذين صمموا ونجحوا كانوا أقل من عشرة، وهكذا بتدبير هؤلاء النفر دخل عسكر السلطان البلد.

أما زوجة جاولي فتحصنت بالقلعة، ثم راسلت الأمير مودود قائد الحملة السلطانية في أن يفرج لها عن طريقها.

ويبدو أن الأمير مودود أنف من أن يتصدى لامرأة ويقاتلها، فأفرج لها وخرجت من الموصل.

ويقول ابن الأثير: إنها خرجت بأموالها وما استولت عليه. وبهذا أصبح مودود حاكماً على الموصل وما ينضاف إليها.

أما جاولي الذي ذكرنا أنه ترك الموصل ومضى ينهب السواد، فقد أخذ معه (القُمّص بردويل) صاحب الرها وسروج وغيرها، وهو الذي كان قد أسره سُقمان وأخذه منه جكرمش، وبقي في الموصل مسجوناً خمس سنين، وبذل الأموال الكثيرة فلم يطلق.

وحاول جاولي أن يتحالف على السلطان مع بعض الأمراء السلاجقة فلم يوفق إلى ذلك. وهنا اتجه إلى القمص بردويل فأطلقه وخلع عليه، وقرر عليه أن يفدي نفسه بمال وأن يطلق أسرى المسلمين الذين في سجنه، وأن ينصره متى أراد ذلك منه بنفسه وعسكره وماله.

إن الشرط الأخير هو الهدف من إطلاق القمص، والشرطان الأولان شرطان ثانويان. الهدف من إطلاق القمص هو أن يذهب إلى مملكته ويجمع جيوشها ويجعلها على استعداد تلبية لنداء جاولي حين يناديها لنصرته على قومه، وأن يكون القمص نفسه على رأسها فلا يقودها غيره.

وهكذا فإن القائد السلجوقي الذي انتدب لإنجاد المسلمين على الفرنج، يستنجد بالفرنج على المسلمين!..

وتتشابك الأمور بعد ذلك وينتهي الأمر إلى أن يغري الملك رضوان بن تتش صاحب حلب - يغري (طنكري) الصليبي صاحب أنطاكية بجاولي فيتحالفا عليه، ويتحالف جاولي مع القمص وجوسلين وتقع حرب من أعجب الحروب: تحالف إسلامي صليبي على تحالف إسلامي صليبي، وتنتهي الحرب بهزيمة جاولي وحلفائه. ويقول ابن الأثير[1]: وقتل من المسلمين خلق كثير ونهب صاحب أنطاكية أموالهم وأثقالهم وعظم البلاء عليهم من الفرنج. وحدثت في هذه السنة معركة جانبية بين طغتكين والفرنج أدت إلى هزيمة الفرنج أولاً ثم عقد هدنة بين الفريقين، تخللتها معركة، يقول ابن الأثير عن نتيجتها: بأن عَسْكَر طغتكين انهزموا وخلوا ثقلهم ورحالهم ودوابهم للفرنج ووصل المسلمون على أقبح حال من التقطع.

---

(١) ج١٠، ص٤٦٦.

الحال في غرب العالم الإسلامي

رأينا ما يجري في شرق العالم الإسلامي وصولاً إلى أطراف غربه. وسنرى هنا ما كان يجري في الوقت نفسه في غرب هذا العالم.

لقد ذكرنا من قبل أنه بينما كان السلاجقة يتناحرون في الشرق ويهاجمون المدن الإسلامية ويفعلون فيها الأفاعيل كان الصليبيون يستولون في الغرب على يافا، وأرسوف، وقيسارية، وحيفا، وطبرية، واللاذقية، وأنطاكية بعد أن كانوا استولوا على القدس والرها، وسروج. وكانوا يحاصرون طرابلس.

أما الآن في سنة ٥٠٣ فإن الصليبيين كانوا يشددون الحصار على طرابلس ويرسلون من أوروبا أسطولاً كبيراً لإحكام حصارها، كما قَوّوا قواهم البرية المحاصرة.

وكان فخر الملك أبو علي بن عمار لما رأى قبل ذلك اشتداد الحال على بلده طرابلس وضاقت عليه الأقوات وقلّت واشتد الأمر عليه وعلى أهل البلد، وعلم أن الأمور قد استتبت للسلطان محمد ـ كما مر في الأبحاث السابقة ـ عزم على الذهاب إلى بغداد للاستنجاد بالسلطان محمد، بعد أن رتب في طرابلس الأجناد براً وبحراً، وجعل كل موضع إلى من يقوم بحفظه، ودفع للأجناد راتب ستة أشهر مقدماً.

ثم مضى إلى بغداد فاستقبل فيها بحفاوة بالغة سواء من الخليفة أو من السلطان السلجوقي محمد. ويقول ابن الأثير[1]: إنّ السلطان سأله عن حاله وما يعانيه في مجاهدة الكفار ويقاسيه من ركوب الخطوب في قتالهم، فذكر حاله وقوة عدوه وطول حصره، وطلب النجدة، وضمن أنه إذا سيرت العساكر معه أوصل إليهم جميع ما يلتمسونه. فوعده السلطان

(١) ج١٠، ص٤٥٣.

بذلك. وحضر دار الخلافة، وذكر أيضاً نحواً مما ذكره عند السلطان.

فكان من أمر السلطان أن طلب من الأمير حسين بن أتابك قتلغ تكين ليسيِّر معه العساكر التي سيرها إلى الموصل مع الأمير مودود لقتال جاولي سقاوو ليمضوا معه. ثم ترك السلطان بغداد قاصداً أصفهان.

يقول ابن الأثير: فلم يجد ذلك نفعاً..

أما العساكر التي تظاهر السلطان بأنه طلب إرسالها مع ابن عمار بقيادة الأمير مودود، فقد كانت لها مهمة أخرى ليس استنقاذ طرابلس من الصليبيين، بل استنقاذ الموصل من جاولي.

يقول ابن الأثير: في هذه السنة استولى مودود والعسكر الذي أرسله معه السلطان على مدينة الموصل وأخذوها من أصحاب جاولي سقاوو.

في الوقت الذي كانت عساكر السلطان السلجوقي تهب بقيادة الأمير مودود لاستنقاذ الموصل من جاولي. وفي الوقت الذي كان الأمير مودود ينجح في الاستيلاء على الموصل.

في هذا الوقت بالذات كان أسطول صليبي كبير مشحون بالرجال والسلاح والميرة يهب من أوروبا بقيادة ريموند بن صنجيل لاستنقاذ طرابلس من المسلمين.

وفي الوقت الذي كان القائد السلجوقي مودود يستولي على الموصل كان الملك الصليبي بغدوين ملك القدس ومعه ريموند بن صنجيل وغيره من القادة الصليبيين يستولي على طرابلس.

يقول ابن الأثير واصفاً الحال:

«ومدّ الفرنج القتال عليها (طرابلس) من الأبراج والزحف، فهجموا على البلد وملكوه عنوة وقهراً ونهبوا ما فيه وأسروا الرجال وسبوا النساء والأطفال ونهبوا الأموال. وغنموا من أهلها من الأموال والأمتعة وكتب دور العلم الموقوفة ما لا يعد ولا يحصى، فإن أهلها كانوا من أكثر أهل البلاد أموالاً وتجارة. وعاقب الفرنج أهلها بأنواع العقوبات، وأخذت دفائنهم وذخائرهم من مكامنهم».

وأغرى سقوط طرابلس الفرنج فساروا إلى بانياس ففتحوها، وإلى جبيل ففتحوها أيضاً. ثم واصلوا زحوفهم فامتدوا إلى صيدا فضايقوها براً وبحراً فاضطرت لطلب الأمان فدخلوها وهجرها قسم من أهلها وبقي آخرون ففرضوا عليهم الأموال حتى أفقروهم واستغرقوا أموالهم فأخذوا يهاجرون من مدينتهم.

وامتد الصليبيون من الجانب الآخر فملكوا حصن (الاثارب) بالقرب من مدينة حلب

وقتلوا من أهله ألفي رجل وسبوا وأسروا الباقين. ومنه مضوا إلى حصن (زَرْدَنا) ففتحوه وفعلوا بأهله مثل الاثارب.

فلما سمع أهل منبج بذلك فارقوها خوفاً منهم وكذلك أهل بالس. وقصد الفرنج البلدين فرأوهما وليس بهما أنيس فعادوا عنهما. ودب الذعر في بلاد الشام كلها.

يقول ابن الأثير:

«فعظم خوف المسلمين منهم وبلغت القلوب الحناجر، وأيقنوا باستيلاء الفرنج على سائر الشام لعدم الحامي له والمانع عنه، فشرع أصحاب البلاد الإسلامية بالشام في الهدنة معهم فامتنع الفرنج من الإجابة إلا على قطيعة يأخذونها إلى مدة يسيرة. فصالحهم الملك رضوان صاحب حلب على اثنين وثلاثين ألف دينار وغيرها من الخيول والثياب، وصالحهم صاحب صور على سبعة آلاف دينار، وصالحهم علي الكردي صاحب حماه على ألفي دينار».

فلما بلغ الأمر إلى هذا الحد لم يعد الشعب يحتمل ما صار إليه من الهوان ومن توقع الشر الأكبر. فقرر جماعة من أهل حلب ـ وهي المدينة التي وصل الفرنج إلى حصن الأثارب الذي لا يبعد عنها إلا ثلاثة فراسخ ـ قرر جماعة من أهل حلب الذهاب إلى بغداد حيث السلطان السلجوقي والخليفة لإثارة القضية والاستنجاد بالمصدر الأساسي للقوة، فلما وصلوا كان أول من تعاطف معهم خلق كثير من الفقهاء، وغيرهم من طبقات الشعب، فكان أن سارت يوم الجمعة مظاهرة كبرى إلى جامع السلطان واستغاثوا ومنعوا من الصلاة وكسروا المنبر.

لقد كانوا في تصرفهم هذا يقصدون إلى أن الدين ليس صلاة فقط ولا خطبة الجمعة وحدها، وماذا تفيد صلواتكم وخطبكم إذا كان الإسلام يباد ويهان في الجانب الآخر وإذا كنتم لا تنفرون لإنفاذ الركن الأهم من الإسلام وهو الجهاد..

وأمام هذه المظاهرة الصاخبة اضطر السلطان السلجوقي لأن يعدهم بإنفاذ العساكر للجهاد.

وفي يوم الجمعة الثاني جدد الحلبيون مظاهرتهم فمشوا ومشى معهم أهل بغداد إلى جامع القصر بدار الخلافة، فلما وصلوه منعهم حاجب الباب من الدخول فأزاحوه من طريقهم ودخلوا الجامع وكسروا شباك المقصورة وهجموا إلى المنبر فكسروه، وبطلت الجمعة أيضاً.

فلما رأى الخليفة تفاقم الأمور ـ وليس في يده شيء يستطيعه ـ أرسل إلى السلطان السلجوقي ـ وهو صاحب الحل والعقد ـ يطلب إليه الاهتمام بالموضوع وتصريف أمر هذا الفتق ورتقه، على حد تعبير ابن الأثير.

فالخليفة هنا يرى أن الأمر عاد نقمة شعبية عارمة على الدولة كلها، وهو فتق انفتق عليها لا بد من رتقه خوف تماديه واتساعه، فهو بذلك ينصح السلطان بالتلافي قبل اتساع الخطر.

وهنا قرر السلطان أن يفعل شيئاً، فجمع من في بغداد من الأمراء وطلب إليهم العودة إلى بلادهم والتجهز للجهاد. وزاد على ذلك فضم ولده مسعود إليهم وأرسله مع الأمير مودود صاحب الموصل ليلتحق بهما الأمراء ويسيروا مجتمعين لقتال الفرنج.

وهنا حدث حادث فريد نجهل الآن تفاصيله، فيبدو جلياً أن الصراع بين البيزنطيين والصليبيين قد بلغ أقصى مداه بحيث أدى ذلك إلى أن يرسل أمبراطور القسطنطينية رسولاً إلى السلطان السلجوقي في بغداد يستنفره على الصليبيين ويحثه على قتالهم ودفعهم عن البلاد[١].

وكان وصول هذا الرسول إلى بغداد قبل وصول الحلبيين إليها، فعلموا وهم في بغداد بمهمة الرسول البيزنطي، فكانوا يقولون للسلطان: أما تتقي الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للإسلام، حتى قد أرسل إليك في جهادهم!.

وإذ كان الأمر على غير ما تصور الحلبيون من أن استنفار الملك البيزنطي للسلطان السلجوقي هو حمية منه للإسلام، وإنما هو مصلحة مشتركة بين الاثنين تقضي بالقضاء على الصليبيين الذين باتوا ينازعون ملك القسطنطينية ملكه، ويهددونه في بلاده.

فإنه كان يمكن للسلاجقة أن يغتنموا هذا الغضب البيزنطي فيتحالفوا مع صاحبه للتخلص من الصليبيين. ولكن السلاجقة كانوا في همّ آخر غير همّ تخلّص الأرض الإسلامية من الصليبيين، هو تخلّص بعضهم من بعض.

وفي خلال هذا التجهم الإسلامي الذي أصبح يعم العالم الإسلامي تزف ابنة السلطان ملكشاه إلى الخليفة، فلا يكتفي بأدنى حد من الابتهاج احتراماً لأحزان المسلمين العالمية، بل زينت بغداد وغُلّقت، وكان بها فرحة عظيمة لم يشاهد الناس مثلها ـ كما يقول عنها ابن الأثير.

التقى أُمراء السلاجقة في الموصل إنفاذاً لما تقرر في بغداد نتيجة للمظاهرات الحلبية التي استجاب لها البغداديون فضغطوا على الخليفة والسلطان، فدعا السلطان إلى الجهاد.

والأمراء الذين التقوا هم: الأمير مودود صاحب الموصل، والأمير سكمان القطبي صاحب تبريز وبعض ديار بكر، والأميران الأخوان إيلبكي وزنكي ابنا بُرسق، ولهما همذان وما جاورها، والأمير أحمديل صاحب مراغة.

---

(١) ابن الأثير: ج١٠، ص٤٨٣.

وكوتب الأمير أبو الهيجاء صاحب إربل، والأمير إيلغازي صاحب ماردين، والأمراء البكجية باللحاق بالأمير مودود.

لقد كان ملتقى عسكرياً ضخماً يمكن ربط الأمل الكبير به. ولا إخال إلا أن الناس كانوا وهم يتسامعون بهذا الحشد الكبير من الأمراء والمقاتلين أيقنوا بالخلاص.. ونحن لا ندري أين كان الوفد الحلبي في هذه الأثناء، هل كان قد عاد إلى حلب حاملاً البشرى لا إلى حلب وحدها، بل إلى الشام كلها بنجاح مساعيه، واستجابة أولي الأمر إلى صوت الاستغاثة المنبعث من أعماق القلوب.. أم أن الوفد قد ظل في بغداد يراقب وينتظر؟

أغلب الظن أنه كان قد عاد إلى حلب بعد أن لمس لمس اليد أن ما يشبه النفير العام قد أعلن بين الأمراء.

والذي يلفت النظر هو اتساع الرقعة التي يسيطر عليها هؤلاء الأمراء وما يمكن أن يتحشّد منها من مقاتلين فمن تبريز إلى ديار بكر من جانب، ومن مراغة إلى همذان وما جاورها من جانب آخر، ومن إربل إلى الموصل إلى ماردين...

هذه الأرض الواسعة إذا أهيب بها بنداء: الله أكبر، نداء منبعث من قلوب مخلصة، وضمائر حية، وحناجر متحمسة ـ إذا أهيب بها ستتدفق منها الجماهير تدفق أمواج البحر الهائج صارخة: الله أكبر، فتكتسح كل شيء..

ولكن لا القلوب كانت مخلصة، ولا الضمائر كانت حية، ولا الحناجر كانت متحمسة!..

مشت جموع الأمراء إلى سنجار، ففتحت عدة حصون للفرنج، حتى انتهت إلى حصار مدينة (الرها)، ولكن الحصار لم يلبث أن فك عن الرها، وعاد عنها الأمراء دون أن يفتحوها.

فقد قابل هذا التجمع الإسلامي تجمع صليبي استعد لمقابلته، على أنه لم يتعد مناوشات و(مناورات) وتبادل أمكنة استطاع معها الفرنج إحكام أمر الرها، فاستعاض الأمراء عن حصارها بحصار قلعة تل باشر فلم ينجحوا في فتحها فرحلوا عنها.

وتخلوا نهائياً عن قضية الجهاد، وعادوا إلى التآمر بعضهم على بعض، وعوضاً عن أن يتوجهوا إلى الأرض المحتلة، توجهوا إلى حلب فاستراب بهم صاحبها الملك رضوان فحال بينهم وبين دخولها ولم يجتمع بهم.

ومرض أحدهم الأمير سكمان القطبي، ومات في بالس، فجعله أصحابه في تابوت، وحملوه عائدين إلى بلاده. فاغتنم هذه الفرصة رفيق سكمان في الجهاد!! إيلغازي، واستضعف جماعته بعد موته، فقصدهم ليأخذهم ويغنم ما معهم، فحزموا أمرهم وجعلوا

تابوت أميرهم في القلب وقاتلوا بين يديه، فانهزم إيلغازي وغنموا ما معه، ومضوا إلى بلادهم! . .

هكذا عاد مصير حملة الجهاد، وإنقاذ المسلمين في بلاد الشام!

ولم ينته الأمر، فإن الجيش السلطاني ـ كما سماه ابن الأثير ـ بعد أن حيل بينه وبين دخول حلب، ورفض صاحبها رضوان لقاءهم تركوا حلب ومضوا إلى معرة النعمان، واجتمع بهم طغتكين صاحب دمشق فاطلع منهم على نيات فاسدة في حق رفيقهم الأمير مودود، فنزل عليه وأطلعه على أمرهم.

ولما رأى طغتكين ما رأى وعلم من نياتهم الفاسدة ما علم خاف أن يقصدوه إلى دمشق فيأخذوها منه فاتصل سراً بالفرنج وأحكم أمره معهم وهادنهم.

ثم تفرقت العساكر وعاد كل أمير إلى حيث جاء!! .

النهاية التي صارت إليها حملة الجهاد السلطاني جرأت الفرنج على الانتشار في بلاد المسلمين واستصفائها بلداً بعد بلد، فكان أن بدأوا بمدينة صور، وسار إليها بغدوين صاحب القدس يقود حشوداً صليبية لحصارها، فلما وصلها تفنن في الحصار فأعد ثلاثة أبراج خشب علو البرج سبعون ذراعاً وفي كل برج ألف رجل، ونصبوا عليها المجانيق، وألصقوا أحدها إلى سور البلد وأخلوه من الرجال.

فأحضر الوالي أهل البلد واستشارهم في حيلة يدفعون بها شر الأبراج عنهم، فقام شيخ من أهل طرابلس، يبدو أنه ممن كان لجأ إلى صور بعد احتلال طرابلس، وضمن على نفسه إحراقها، وأخذ معه ألف رجل بالسلاح التام، ومع كل رجل منهم حزمة حطب، فقاتلوا الفرنج إلى أن وصلوا إلى البرج الملتصق بالمدينة، فألقى الحطب في جهاته، وألقى فيه النار، ثم خاف أن يشتغل الفرنج الذين في البرج بإطفاء النار ويتخلّصوا، فرماهم بجُرب كان قد أعدها مملوءة من العذرة، فلما سقطت عليهم اشتغلوا بها وبما نالهم من سوء الرائحة والتلويث فتمكنت النار من البرج، فهلك كل من فيه إلا القليل. وأخذ منه المسلمون ما قدروا عليه بالكلاليب، ثم أخذ سلال العنب الكبار، وترك فيها الحطب بعد أن سقاه بالنفط والزفت والكتان والكبريت، ورماهم بسبعين سلة، وأحرق البرجين الآخرين.

وعلم الصوريون أنهم وحدهم غير مستطيعين الصمود أمام الحملة الصليبية الكبيرة فاستنجدوا بطغتكين صاحب دمشق، ووعدوه بأن يسلموا البلد إليه.

وإذا كان طغتكين هذا قد أقام علاقات مع الفرنج وسالمهم وهادنهم ـ كما ذكرنا فيما

تقدم من القول ـ فإنه اليوم قد نقض هدنتهم وقرر إنجاد الصوريين. ونريد أن نحسن الظن به، فلا نقول إن الطمع بتملك صور وامتداد سلطته إليها هو الذي حمله على ذلك، بل إن النخوة الإسلامية هي التي دفعته، وربما السببان معاً. . .

وسار حتى بلغ بانياس، وسيّر إلى صور نجدة مئتي فارس، فدخلوا البلد، فاشتدت عزائم من فيه، واستبسلوا في قتال الفرنج. وقابل الفرنج استبسالهم بمثله، خوفاً من تتابع النجدات.

وراح طغتكين يغير على أعمال الفرنج حول دمشق، ثم واصل السير باتجاه صور، فقطع الميرة عن الفرنج، فاستقدموها بحراً. وهو مع ذلك يواصل أهل صور بالكتب يأمرهم بالصبر.

على أن موضع التساؤل هنا: لماذا لم يقدم هو نفسه بعكسره على إنجادهم وقد رأينا ما فعل وصول المئتي فارس إليهم؟!.

كان أهل صور يقاتلون قتال من أيس من الحياة، كما يصفهم ابن الأثير، وذلك لأنهم يعلمون المصير الفظيع الذي سيصيرون إليه إذا انتصر الفرنج ودخلوا عليهم البلد.

وأخيراً يئس الفرنج من النصر فانسحبوا من صور إلى عكا.

هذا الذي مر ذكره كان من أحداث سنة ٥٠٦هـ، وفي مطلع السنة ٥٠٧هـ، في شهر المحرم منها كان بغدوين ملك القدس يواصل غاراته على دمشق نفسها وينهب ويخرب، حتى إن دمشق أصبحت في شبه حصار اقتصادي انقطعت فيه المواد عنها فعمّ الغلاء وقلّت الأقوات، فرأى حاكمها طغتكين أن يستعين بصديقه الأمير مودود صاحب الموصل، فأرسل إليه يصف له ما هو فيه من الضيق، والعجز عن دفع شر الفرنج، ويطلب إليه إنجاده بقوات بأسرع ما يستطيع من الوقت.

فاستجاب الأمير مودود الاستنجاد وسار بعساكره من الموصل عابراً بهم الفرات، فمضى طغتكين لملاقاته فالتقيا في مدينة سلمية وقررا مهاجمة بغدوين، فاصطدما به عند مدينة طبريا في معركة انهزم فيها بغدوين ووقع أسيراً، ولكن آسريه لم يعرفوه، وكل ما فعلوه أن أخذوا سلاحه وتركوه.

وكان لهذه المعركة ذيول كانت كلها في صالح المسلمين فساروا إلى بيسان ونهبوا البلاد المحتلة بين عكا إلى القدس وخربوها.

وبعد هذا النصر صرف الأمير مودود عساكره فعادوا إلى بلادهم على أمل العودة في

الربيع لمعاودة الغزو، وبقي هو في خواصه بضيافة طغتكين في دمشق منتظرين الربيع. على أن الأقدار لم تمهله إلى الربيع فقد اغتيل في يوم جمعة في المسجد بعد أداء الصلاة برفقة طغتكين..

وهنا تتشعب الآراء في تحديد القاتل، فالذين يعرفون دخائل هؤلاء الأمراء وما تنطوي عليه نفوسهم من الغدر بعضهم ببعض طمعاً من كل واحد منهم بما في يد الآخر، يوجهون التهمة إلى طغتكين، ويقولون: إنه دبر له من اغتاله بعد أن رابه منه بقاؤه في دمشق. ويؤكدون اتهامهم بأن القاتل قتل في الحال، واحتزَ رأسه، وأخفي ثم أحرق لئلا تكشف حقيقته.

وطغتكين وجماعته يوجهون التهمة إلى من سموهم الباطنية، ويبدو أن اتهام طغتكين كان هو السائد بين الناس على اختلاف مواقعهم، حتى إن السلطان كان يوجه إليه التهمة علانية، كما سنرى.

وهكذا فإن ذاك الاستنفار انتهى إلى لا شيء سوى النهب والتخريب واغتيال من لبى الاستنفار!.

وطغتكين، هذا الذي يضج اليوم من الفرنج ويستنصر المسلمين عليهم، ألم يسبق له بالأمس أن استنصر بهم على المسلمين؟!.

وهل ترجو ممن لا يرى بالاستنصار على المسلمين بالفرنج إثماً أن يخلص في قتال الفرنج؟! وأن يتورع عن اغتيال ضيفه ومنجده إذا رابه أمره؟!

وتوالت الأيام حتى سنة ٥٠٨هـ فعاد السلطان محمد يتذكر الفرنج، وكان حين علم بمقتل مودود أرسل والياً على الموصل وأعمالها: الأمير آقسنقر البرسقي، وسيّر معه ولده الملك مسعود في جيش ليذهب بهذا الجيش لقتال الصليبيين، وكذلك أرسل إلى جميع الأمراء في تلك المناطق لينضموا إلى آقسنقر ويسيروا جميعاً للجهاد.

وسنرى أن ذلك كله كان عملاً استعراضياً بحتاً لم يحقق أية نتيجة!.

فإن البرسقي سار إلى جزيرة ابن عُمر فسلمها إليه نائب مودود بها، ومنها سار إلى ماردين، فلما تمرد عليه صاحبها إيلغازي نازله فأذعن له وسير معه عسكراً مع ولده إياز، فاتجه إلى الرها على رأس خمسة عشر ألف فارس فنازلها على غير جدوى، فاتجه منها إلى سميساط وسروج، فلم يكن منه سوى التخريب فيها، ثم نهب سواد ماردين.

ونسي الجهاد فقبض على رفيقه إياز بن إيلغازي، لأن أباه لم يحضر بنفسه، بل أرسل ولده إياز مكانه. وبلغ إيلغازي خبر القبض على ولده، فسار إلى حصن كيفا، وصاحبها الأمير

ركن الدولة ابن أخيه سُقمان فاستنجده، فسار معه في عسكره وجمع جمعاً من التركمان، ومضيا لاستنقاذ إياز من البرسقي.

والتقى الجمعان في معركة ضارية، انتهت بانهزام البرسقي، وتخليص إياز بن إيلغازي.

هذا هو الجهاد الذي نادى به السلطان السلجوقي محمد.. وهذه معارك قائده ومبعوثه لقتال الصليبيين آقسنقر البرسقي! على أن الأمر لم يتم فصولاً بعد، فسنرى ما هو أدهى وأمر...

السلطان محمد هذا لم يغضبه على قائده أن حوّل جهاده للتخريب والنهب ثم لقتال المسلمين، بل أغضبه أن إيلغازي هزم آقسنقر، فأرسل إليه يتهدده، فرأى إيلغازي أن يلجأ إلى حميه طغتكين صاحب دمشق.

وكان طغتكين هذا متهماً عند السلطان بأنه غدر بالأمير مودود وقتله، فاتفق رأي الإثنين: إيلغازي وطغتكين على الاستنصار بالصليبيين، فراسلا صاحب أنطاكية وحالفاه، ثم رأوا جميعاً أن يمتّنوا الحلف بينهم، فالتقى الثلاثة على بحيرة قدس عند حمص، فأحكموا أمر التحالف، ووضعوا خطط تنفيذه.

وعاد صاحب أنطاكية إلى بلده، وعاد طغتكين إلى دمشق. أما إيلغازي فاتجه إلى ديار بكر ماراً بالرستن فنزل بها ليستريح، فعلم به قُرجان بن قراجة صاحب حمص، وقد تفرق عن إيلغازي أصحابه، فقبض عليه قرجان ومعه جماعة من خواصه، وأرسل إلى السلطان محمد يعرفه ذلك ويطلب إليه الإسراع بإرسال نجدة يقاوم بها طغتكين إذا حاول إنقاذ إيلغازي.

ولما عرف طغتكين بما جرى على إيلغازي عاد إلى حمص وأرسل يطلب من قرجان إطلاق إيلغازي، فرفض قرجان ذلك وهدد بقتل إيلغازي إن لَمْ يرجع طغتكين إلى دمشق. وعلم إيلغازي بذلك فأرسل يلحّ على طغتكين بالعودة إلى دمشق.

وهنا تشابكت المصالح، فلم تصل لقرجان نجدة من السلطان، فخاف أن يستضعفه أصحابه فيسلموا حمص لطغتكين، فقرر مصالحة إيلغازي فيطلقه ويأخذ ابنه إياز رهينة ويصاهره، ويحول بينه وبين طغتكين وغير طغتكين، فوافق إيلغازي على ذلك فأطلقه قرجان وترك عنده ابنه إياز، ثم عقدا حلفاً بينهما. وسار إيلغازي عن حمص إلى حلب، وجمع التركمان، وعاد إلى حمص مطالباً بولده اياز، وضايق قرجان وحصره.

واتصل الخبر بالسلطان فأرسل عسكراً كثيراً وأمرهم أن يقاتلوا إيلغازي وطغتكين أولاً فإذا فرغوا منهما مضوا إلى قتال الفرنج، فكانت نتيجة ذلك أن إيلغازي وطغتكين ذهبا إلى أنطاكية واستنجدا بصاحبها الصليبي (رُوجيل).

وبعد أحداث تفرقت عساكر السلطان، وعادت إلى بلادها. وهكذا فإن الحملة الجهادية السلجوقية التي أرسلها السلطان محمد لمكافحة الصليبيين انتهى أمرها إلى تقاتل المسلمين، والتحالف مع الصليبيين.

والجيوش التي قال السلطان إنها موجهة إلى حرب الفرنج رأينا إلى من عادت توجه في حين كان الصليبيون يتمددون في البلاد ويتحكمون بالعباد...

وفي سنة ٥٥١ توفي السلطان محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان، هذا الذي رأينا من جهاده ما رأينا!.. وتولى بعده ابنه محمود.

وظل السلاجقة على تشاحنهم، فإن مسعود ابن السلطان، أراد الاستيلاء على بغداد والعراق وحقق ذلك، فمشى عماد الدين منكبرس ليخرجه منها، فمشى مسعود للقائه، فكان من نتيجة ذلك أن الفريقين نهبا السواد نهباً فاحشاً، على حد تعبير ابن الأثير.

وانتهت المفاوضات بين الفريقين إلى أن صار منكبرس صاحب (شحنكية) بغداد، وهي مديرية الشرطة العامة.

ويقول ابن الأثير عن عهد منكبرس في بغداد: وأقام منكبرس ببغداد يظلم ويعسف الرعية ويصادرهم، فاختفى أرباب الأموال، ويطلت معايش الناس، وأكثر أصحابه الفساد، حتى إن بعض أهل بغداد زفت إليه امرأة تزوجها، فعلم بعض أصحاب منكبرس، فأتاه وكسر الباب، وجرح الزوج عدة جراحات، وابتنى بزوجته، واستغاث الناس لهذه الحال، وأغلقوا الأسواق، فأخذ الجندي إلى دار الخلافة فاعتقل أياماً ثم أطلق.

وقد ظل الصليبيون في تماديهم وامتدادهم، فإذا بإيلغازي صاحب حلب وماردين، الذي ذكرنا من قبل استنجاده هو وصاحبه طغتكين بالصليبيين، إذا بإيلغازي هذا يعود فيرسل رسولاً إلى بغداد يستنفر على الصليبيين، ويذكر ما فعلوا بالمسلمين بالديار الجزرية، وأنهم ملكوا قلعة الرها، وقتلوا أميرها.

ومن يأمن لمن استنجد بالصليبيين أن لا يعود فيغدر بالمسلمين وينضم إلى الصليبيين، وهل يمكن أن يؤتمن من خان المسلمين، وهل يمكن أن يخلص في الجهاد من نكث بالمجاهدين؟!

وكل ما كان من الأثر لاستنجاد إيلغازي أن أرسلت الكتب بذلك إلى السلطان محمود!..

أما السلطان محمود فقد كان مشغولاً عن ذلك بالشقاق بينه وبين أخيه طغرل، وبالحرب بينه وبين عمه سنجر، عمه أخي أبيه وهو في الوقت نفسه أبو زوجته، فقد التقى الاثنان في معركة كان فيها مع سنجر عشرون ألف مقاتل ومع محمود ثلاثون ألفاً.

خمسون ألف مقاتل كان يمكن أن يسير بهم محمود وعمه سنجر السلجوقيان لإنقاذ الديار الجزرية من الصليبيين، ولكنهما بدلاً من ذلك تقاتلا بها وسفكا دماءها بأيديها!..

لقد انتصر سنجر.. ولكن على ابن أخيه لا على الصليبيين!.

وظل الفرنج يستضعفون المسلمين فامتدوا حتى بلغوا نواحي حلب فملكوا بزاعة وغيرها، وخربوا ما قدروا على تخريبه من حَلب ونازلوها، وقاسموا أهلها على أملاكهم التي بباب حلب.

فأرسل أهل حلب إلى بغداد يستغيثون، ويطلبون النجدة، فلم يغاثوا(١).

وإيلغازي الذي حالف الصليبيين في وقت من الأوقات هو اليوم صاحب حلب، يتلقى بلده الضربات من حلفائه السابقين، فمضى إلى ماردين يجمع العساكر والمتطوعة، فاجتمع له نحو عشرين ألف مقاتل قاتل بهم هذه المرة الفرنج وانتصر عليهم. وفي سنة ٥١٤ قام الصراع بين السلطان محمود وأخيه مسعود، وقامت المعارك الدامية بينهما، ثم انتهت بهزيمة مسعود.

ولكي نعرف رأي الشعب بحكامه، نشير إلى أنه في هذه السنة نزل في العراق جميعه من البصرة إلى تكريت ثلج كثير وبقي مغطياً الأرض خمسة عشر يوماً فقال بعض الشعراء:

يا صدور الزمان ليس بوفر ... ما رأيناه في نواحي العراق(٢)

إنما عم ظلمكم سائر الخلـ ... ـق فشابت ذوائب الآفاق

وكان من تقدم الصليبيين هذه السنة أن أكثروا من الإغارة على حلب وأعمالها، وأعملوا هنالك التخريب والتحريق حتى أدى الأمر إلى أن سلّمهم صاحب حلب حصن الأثارب القريب من حلب.

---

(١) ابن الأثير: ج١٠، ص٥٥٤.

(٢) الوفر في اللهجة العراقية هو الثلج المتساقط، ولا يزال هذا الاصطلاح معروفاً في العراق حتى اليوم.

وعوضاً عن أن يثير هذا التسليم الحمية في نفوس المتسلطين، أثار أطماعهم في صاحب حلب، فإن بَلك بن بهرام بن أرتق صاحب حران اعتقد ضعف صاحب حلب فلم يندب نفسه لتقويته والتقدم معه لاسترجاع حصن الأثارب، بل تقدم لأخذ حلب منه، فنازلها وضايقها ومنع الميرة عنها وأحرق زروعها، فاستسلمت حلب له.

وطغتكين صاحب دمشق الذي رأيناه فيما مضى يستنجد بالصليبيين نراه اليوم يهاجم مدينة حمص وينهبها ويحرق كثيراً منها، ثم يهاجم مدينة حماه ويستولي عليها.

كان كل ذلك يجري بين حكام السلاجقة غير معنيين بأمر الصليبيين وتمددهم في البلاد. وكان الصليبيون يعدون العدة لاستصفاء بلاد الشام وكبريات مُدُنها، فقرروا الاستيلاء على مدينة صور.

فاستنجدت بطغتكين بعد أن أشرف أهلها على الهلاك، فسار طغتكين حتى نزل بانياس ليقرب من صور لعل الصليبيين إذا رأوا ذلك يرحلون عن صور، ولكنهم لم يفعلوا، وانتهى الأمر باستيلاء الصليبيين على صور وخروج أهلها منها وتفرقوا في البلاد.

يقول ابن الأثير: «كان فتح صور وهناً عظيماً على المسلمين فإنها من أحصن البلاد وأمنعها..» ونقول: إن سقوط صور بقدر ما أوهن المسلمين قوّى الصليبيين وشدد عزمهم في الاستيلاء على بلاد الشام، فكان أن قرروا التقدم إلى حلب، وكات حلب في ذلك الوقت شيعية، وهنا تبرز خيانة من نوع آخر، فإن دبيس بن صدقة كان عربياً شيعياً يحكم منطقة الحلة في العراق، فأغرته المطامع فاتصل بالصليبيين وأطمعهم بحلب، وقال لهم: إن أهلها شيعة، وهم يميلون إليّ من أجل المذهب، فمتى رأوني سلموا البلد إليّ، وإنّني أكون هنا نائباً عنكم ومطيعاً لكم..

لقد طمع هذا النذل بتوسيع حكمه بخيانة أمته، والتعاون مع أعدائها، فسار مع الصليبيين لفتح حلب، ولكن شيعة حلب نبذوه واحتقروه، وقرروا الاستماتة في الدفاع عن مدينتهم، وطال القتال، واشتد الحصار، وقلّت الأقوات، فقرر الحلبيون الاستنجاد بآقسنقر البرسقي صاحب الموصل فأرسلوا إليه يسألونه المجيء إليهم ليسلموا إليه البلد، فاستجاب لذلك وقدم بقواته، فرأى الفرنج أنهم سيقعون بين القوات الحلبية والقوات الموصلية فرحلوا عن حلب.

تعقيبات على ما مر

١ ـ بعد كتابة ما تقدم رأينا الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور يقول في كتابه (مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك)[١]:

«إن منطقة الشرق الأدنى شهدت أواخر العصر الفاطمي تحولاً خطيراً نتيجة لنجاح الصليبيين في الاستقرار في قلب تلك المنطقة وقد سبق أن أشرنا إلى أن الدولة الفاطمية كانت في خريف عمرها عندما ظهر الخطر الصليبي، وكيف أنها عجزت عن فهم طبيعة ذلك الخطر في الوقت المناسب، بل فشلت في صد هذا الخطر وفي حماية نفسها منه.

ومعنى هذا أنه صار عليها أن تتنحى، وتفسح المجال لقوة أخرى فتية تحل محلها وتستطيع أن تنهض بأمانة الجهاد» (انتهى).

ونقول رداً على هذا الكلام ما سبق أن قلناه: وهو أن الدولة الفاطمية كانت قد انتهت سلطتها، قبل وصول الصليبيين بربع قرن، وأن الذي أنهى سلطتها وحل محلها هم الجماليون الذين قامت بهم الدولة الجمالية التي صارت هي صاحبة الأمر والنهي، والتي حجرت على الخلفاء الفاطميين في بيوتهم ومنعتهم من أي تصرف في شؤون الدولة. وإنما أبقتهم لأن رجالها لا يستطيعون أن يتلقبوا بلقب الخلافة، وفي بقاء الخلفاء الفاطميين يضفون على حكمهم مظاهر الشرعية.

وإن صح ما قاله الدكتور عاشور من أن الحكم في مصر قد عجز عن فهم طبيعة الخطر الصليبي في الوقت المناسب وفشل في صد هذا الخطر وفي حماية نفسه منه.

(١) ص٩، بدون تاريخ.

نقول: إن صح هذا القول ـ وهو ليس بصحيح ـ فإن الذي عجز عن فهم ذلك، وفشل في الصد، ليست الدولة الفاطمية التي لم يكن لها وجود، بل الدولة الجمالية.

وقولنا: هو ليس بصحيح، لأن بدراً الجمالي قد فهم طبيعة الخطر لأول وهلة وحاول دفعه سلماً، فلما لم يستطع أعد لصده حرباً كل ما يستطيع إعداده من كان في مثل ظروفه، وقاتله ببسالة وثبات.

وإذا كان قد فشل في صده فلأن القدر كان أقوى منه، ولأن الجيوش المتدفقة عليه كانت أشد من أن يقف في وجهها أكثر مما وقف.

والدكتور عاشور يعني بقوله: (إنه صار على الدولة الفاطمية أن تتنحى وتفسح المجال لقوة أخرى فتية تحل محلها وتستطيع أن تنهض بأمانة الجهاد) ـ يعني بقوله هذا: القوة الأيوبية.

وقد بينا في كتابنا (صلاح الدين الأيوبي بين العباسيين والفاطميين والصليبيين) ـ بينا بأن القوة التي يعنيها الدكتور عاشور قد خانت أمانة الجهاد. . .

إن الدكتور عاشور نفسه يعترف بأنه لم تكن هناك خلافة فاطمية فاعلة مسيطرة عند الغزو الصليبي. إنه هو نفسه يقول: [١]

«كانت الدولة الفاطمية في ذلك الوقت تقاسي آلام الموت البطيء، بعد أن انحلت الخلافة، وفقدت هيبتها، واختلت أحوال مصر الداخلية. ولا أدل على انحلال الدولة الفاطمية عندئذ من نهاية كثير من الخلفاء بالقتل فضلاً عن تحكم الوزراء العظام في شؤون الدولة والخلافة جميعاً».

٢ ـ يقول الدكتور عاشور فيما يقول[٢]:

«ولكن نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي حمل الأمانة واستولى على دمشق سنة ٥٤٩ (١١٥٤م) ومن ثم أخذ يتطلع إلى مصر لتمتد الجبهة الإسلامية المتحدة من الفرات إلى النيل» إلى آخر ما قال. . .

(١) م. ن. مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص١٣.

(٢) م. ن. ص١٠ ـ ١١.

ثم يقول[1]: «وسرعان ما اتضح أن نجاح حركة الجهاد الإسلامية لا يتحقق إلا في ظل جبهة إسلامية متحدة، توحد بين القوى الإسلامية المبعثرة بين النيل والفرات، وتجعل من هذه القوى بنياناً مرصوصاً يستطيع الصمود في وجه الخطر الصليبي. وكانت هذه الفكرة - فكرة الجبهة الإسلامية المتحدة - هي المحرك الأول الذي جعل نور الدين محمود يتجه ببصره شطر مصر بعد أن تم له الاستيلاء على دمشق سنة ٥٩٤ (١١٥٤م) وأصبح يسيطر على المدن الكبرى في الشام مثل حلب ودمشق» إلى آخر ما قال. . .

ثم يقول: «والواقع أن الصليبيين لم يقلوا طمعاً في ملك مصر عن نور الدين»، ثم يقول[2]: ومنذ ذلك الوقت لم يتخل الصليبيون عن فكرة الاستيلاء على مصر، حتى كان منتصف القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) عندما رأى نور الدين محمود أن الجبهة الإسلامية المتحدة لا تستدير حلقتها وتكتمل إلا بالاستيلاء على مصر بالذات، الأمر الذي جعل من مصر ميداناً رئيسياً في الصراع بين نور الدين محمود والصليبيين».

ثم يقول[3]: «ولا يخفى علينا أن هناك سبباً قوياً ربما حرك عند نور الدين الرغبة في غزو مصر، وأعني بذلك العامل المذهبي. ذلك أن الخلافة الفاطمية في مصر كانت مصدراً من مصادر الفرقة في العالم الإسلامي لأنها جعلت ولاء المسلمين في الشرق الأدنى تتقاسمه خلافتان ومذهبان، إحداهما الخلافة العباسية السنية في بغداد، والأخرى الخلافة الشيعية في القاهرة. لذلك كان من الطبيعي أن يتجه نور الدين - وهو الحاكم السني الحريص على تدعيم الجبهة الإسلامية المتحدة وجعلها تمتد من النيل إلى الفرات - إلى التفكير في القضاء على الخلافة الفاطمية في القاهرة.

وكان أن أتيحت الفرصة مرة أخرى لنور الدين محمود عندما أرسل إليه الخليفة العاضد الفاطمي يشكو من استبداد شاور وظلمه» إلى آخر ما قال. . .

ثم يتابع كلامه قائلاً: لذلك بادر نور الدين بإرسال حملة شيركوه الثانية على مصر سنة ٥٦٢هـ (١١٦٧م) وكان بصحبة شيركوه في تلك المرة أيضاً ابن أخيه صلاح الدين.

نقول: من المؤسف أن يوغل رجل مثل الدكتور عاشور في الخيال فيجعله مصدراً

(١) م. ن. ص١٢.
(٢) م. ن. ص١٣.
(٣) م. ن. ص١٦.

لكتابة التاريخ، فما ذكره في أول الكلام الذي نقلناه من حديثه هو خيال في خيال، فنور الدين محمود لم يكن في ذهنه تشكيل جبهة إسلامية متحدة تمتد من الفرات إلى النيل، ولم يتطلع إلى مثل هذا التطلع، وكان دواعي إرساله من أرسلهم من الجنود إلى مصر أول مرة أن نزاعاً على السلطة قام بين (شاور) وبين (ضرغام) فتغلب ضرغام على شاور.

يقول ابن الأثير[1]: «فهرب شاور منه إلى الشام ملتجئاً إلى نور الدين ومستجيراً به فأكرم مثواه وأحسن إليه وأنعم عليه، وطلب منه إرسال العساكر معه إلى مصر ليعود إلى منصبه ويكون لنور الدين ثلث دخل البلاد بعد إقطاعات العسكر، ويكون شيركوه مقيماً بعساكره في مصر ويتصرف هو بأمر نور الدين واختياره».

إذن ـ بنص ابن الأثير ـ لم يكن في ذهن نور الدين تطلع إلى تحديد الجبهة الإسلامية من الفرات إلى النيل، ولم تكن هذه الفكرة ـ فكرة الجبهة الإسلامية المتحدة ـ هي المحرك الأول الذي جعل نور الدين محمود يتجه ببصره شطر مصر. بل المحرك له على ذلك هو أمر شخصي بحت حيث ينتصر لمستنجده على منافسه لقاء مكاسب شخصية هي الاستحواذ على ثلث دخل البلاد.

وما كرره بعد ذلك في الموضوع نفسه من القول: «رأى نور الدين محمود أن الجبهة الإسلامية المتحدة لا تستدير حلقتها، وتكتمل إلا بالاستيلاء على مصر بالذات، الأمر الذي جعل من مصر ميداناً رئيساً، في الصراع بين نور الدين محمود والصليبيين».

إن هذا الذي كرره هنا، وأضاف إليه ما أضاف، هو خيال في خيال لا حقيقة له، فمصر لم تصبح ميداناً رئيسياً في الصراع بين نور الدين محمود والصليبيين.

وكل ما جرى أن ثلث دخل مصر أغرى نور الدين، بإرسال عسكر إلى مصر لنصر شاور على ضرغام، بقيادة أسد الدين شيركوه، وإذا كان هذا العسكر قد استطاع إعادة شاور إلى السلطة، فإنه لم يستطع التغلب على غدر شاور، ورجوعه عما قرره لنور الدين واستنجاده بالصليبيين، على أسد شيركوه الذي آثر السلامة فرجع إلى الشام.

فأين هو هذا الميدان الرئيسي الذي صيرته مصر في الصراع بين نور الدين والصليبيين؟!

أما نسبة العصبية المذهبية العمياء لنور الدين فصحيحة، وما فعله في حلب من شرور وآثام، هو بعض مظاهر هذه العصبية.

---

(١) ج١١، ص٢٩٨.

أما القول بأن الخلافة الفاطمية في مصر كانت مصدراً من مصادر الفرقة في العالم الإسلامي، فقول كنا نجل مؤرخاً في مستوى الدكتور عاشور أن يفوه به، ونحن ننزهه عن العصبية المذهبية، ولكنها رواسب في النفس تظل تفعل فعلها.

إن الخلافة الفاطمية كانت مصدراً من أكبر مصادر التجميع لا التفريق: لقد كان نشؤوها ضرورة من ضرورات العالم الإسلامي في ذلك الحين الذي تمزقت فيه قوى المسلمين وتفرقت كلمتهم وتلاشت دولتهم وأصبحوا يتطلعون إلى الحمى الذي يمكن أن يلجؤوا إليه من الخطر الداهم المهدد لوجودهم بتزايد قوى البيزنطيين وإصرارهم على غزو الإسلام في دياره واسترداد ما أخذه منهم والثأر للماضي البعيد، حتى إن نقفور فوقاس لم يكن يخفي مطامعه الهوجاء في الزحف إلى الحجاز نفسه والوصول إلى مكة والمدينة.

في هذا البحران الرهيب كان المنقذ نشوء دولة فتية وزعامة قوية تجمع حولها ما تشتت من القوى وتوحد ما تفرق من البلاد، فكانت الدولة الفاطمية هي المنقذ فجمعت الشمال الأفريقي في كيان واحد وقيادة واحدة وقضت على التجزئة وأحلت محلها وحدة متماسكة جعلته دولة واحدة بعدما كان عدة دول متطاحنة متقاتلة[1] ولم تقتصر الوحدة على الشمال الأفريقي بل امتدت فشملت مصر والشام والحجاز واليمن وصقلية وقوصرة. وقلورية..

يقول الدكتور محمد جمال الدين سرور أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة القاهرة: «اتجهت سياسة الفاطميين بعد أن امتد نفوذهم إلى مصر في عهد المعز لدين الله الفاطمي سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩م) إلى استعادة المدن التي استولى عليها البيزنطيون في شمال الشام».

ويقول الدكتور حسن حبشي في كتابه (الحروب الصليبية) وهو يتحدث عن الغزوات البيزنطية لبلاد الشام: «وامتد النفوذ البيزنطي عام ٩٧٥م (٣٦٥هـ) على طول البلاد الشامية فدفعت له حمص الجزية واستسلمت بعلبك، وأراق الإفتكين صاحب دمشق ماء وجهه إبقاء على ولايته».

إلى أن يقول الدكتور حبشي في الحديث عن الفتح البيزنطي:

«على أن موجة الفتح (البيزنطي) على حساب البلدان والإمارات الإسلامية لم تلبث أن توقفت منذ أواخر القرن العاشر واصطدمت بقوة الفاطميين الذين أمدوا الإسلام بدم جديد وعنصر قوي يتدفق حياة ويتطلع للفتح..».

(١) كان شمال أفريقيا مقسماً بين: الأغالبة والرستميين وبني مدرار وبقايا الأدارسة.



